علي الطَّنطاوي

من نفحات الحَرَم

طبعة جديدة بعناية حفيد المؤلف

مجاهِد مأمون ديرانيّة



دار المنارة

من نفحات الحرم

بسم الله الرحمن الرحيم

علي الطنطاوي

من نفحات الحرم

من دمشق إلى مكة
وصف وتأريخ لرحلة الوفد السوري إلى الحجاز

طبعة جديدة بعناية حفيد المؤلف
مجاهد مأمون ديرانيّة

دار المنارة
للنشر والتوزيع

ⓗ دار المنارة للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الطنطاوي، علي مصطفى
من نفحات الحرم / علي مصطفى الطنطاوي
ط٢ - جدة، ١٤٤٢هـ ٢٧٣ص ؛ ٢٢×١٥سم
١-الطنطاوي، علي، ت١٤٢٠هـ - مذكرات ٢-رحلات الحج
٣-السعودية-وصف ورحلات أ. العنوان
ديوي ٩١٥,٣١٢٠٤ ١٤٤٢/١٢٩١
رقم الإيداع: ١٤٤٢/١٢٩١ ردمك ٥-٥١٤٣-٠٣-٦٠٣-٩٧٨

طبعة دار المنارة الثانية
٢٠٢١

دار المنارة
للنشر والتوزيع
أسسها الشيخ نادر حتاحت رحمه الله عام ١٩٨٤

ص ب ١٢٥٠ جدة ٢١٤٣١ المملكة العربية السعودية
هاتف ٦٦٠٣٦٥٢ فاكس ٦٦٠٣٢٣٨
info@daralmanara.com
www.daralmanara.com
daralmanarapublisher

مقدمة

في الأول من نَيسان عام ١٩٣٥ انطلقت من دمشق قافلة غريبة في رحلة عجيبة إلى «الديار المقدسة»، قُدِّر لأخبارها أن تُحفَظ في سجلات التاريخ لأن أحد ركّابها كان شاباً أديباً امتلأ قلبُه بالحماسة وجرى قلمُه بالبيان، اسمه علي الطنطاوي.

كانت تلك أولَ قافلة من السيارات تطأ هاتيك الصحارَى الموحشة المهلكة، لم تعبرها قبلَها إلّا قوافلُ الجمال. خرجَت من دمشق بُعَيد انقضاء موسم حج عام ١٣٥٣، ولكنها لم تخرج للحج ولا للسياحة، بل كانت رحلة كشفية لفتح طريق للسيارات بين دمشق والمدينة المنورة. وقد حفلت بالغرائب وحفّت بها الأخطار حتى وصلت أخيراً إلى المدينة بعد مغادرة دمشق بعشرين يوماً، وبعدما اقترب الرَّكبُ من الضياع والهلاك غيرَ مرة، على ما ستقرؤون في فصول هذا الكتاب الذي صدر -في هذه الطبعة الجديدة- بعد انقطاعه عن القراء نحو عشر سنوات.

* * *

صدرت طبعة الكتاب الأولى سنة ١٩٦٠، وكانت مقالاته متسلسلة (تقريباً) وفق ترتيب الرحلة نفسها، ثم أعاد جدي -رحمه الله- إصداره في طبعة ثانية بعد عشرين سنة، فبعثر المقالات

وقطّع أوصال الرحلة، فأقحم في أخبارها مقالات أدبية وصفية ليست من سياقها، وقدَّمَ من ذكرياتها ما حَقُّه التأخير وأخَّرَ ما حَقُّه التقديم، فوقفَ على غار حراء وفي العقيق وعرفات قبل أن يَشُدَّ الرحال، ثم سرد أخبار الرحلة من المدينة إلى مكة وأخبارَه في مكة، وأقحم في ثنايا هذا السرد مقالتين ليست لهما بالرحلة أي صلة، مقالة كتبها في مكة لمّا حوّل أتاتورك جامع «أيا صوفيا» إلى متحف، وأخرى عرض فيها نظريته عن أصل العرب (المنزل الأول للبشر) ثم عاد إلى الرحلة فسرد أخبار الطريق من دمشق إلى المدينة وأتبعها بوصف طريق العودة من المدينة إلى تبوك!

لم أعرف قط لماذا صنع ذلك، ولماذا خلط بقصّة الرحلة المقالات التي كانت مفصولةً عنها متأخرةً عنها في طبعة الكتاب الأولى، إلا أنني عزمت على تصحيح هذا الاضطراب ورَدّ الكتاب إلى صورته الأصلية، مع تأخير المقالات الأدبية والوصفية التي تخلَّلت أخبارَ الرحلة -في الطبعة الأولى- ودفعها إلى آخر الكتاب، بحيث أقدّم للقارئ قصة الرحلة متّصلةً من مبتدئها إلى منتهاها، مع ترميمها وتتميم أخبارها اعتماداً على مصادر أخرى بعضها مطبوع وبعضها مخطوط. وهذا كله أخَّرَ إخراج الطبعة الجديدة من هذا الكتاب لأنني أردت أن أعطيه حقه من العناية والاهتمام، فاستثقلته وأجّلته وشغلت نفسي بما هو أَخَفّ منه عبئاً وأهون عملاً، حتى مضت سنوات لم يعد تأجيلُه بعدَها ممكناً، فثَمَّ أقبلت عليه وفرَّغت نفسي له فصرفت فيه قريباً من شهرين كاملين حتى خرج بالصورة التي ترونها بين أيديكم اليوم.

* * *

بدأت وفي يدي أربعة أصول: الكتاب المطبوع (بطبعتَيه الأولى والثانية) ومجلدات «الرسالة» التي نشر فيها المؤلف أكثرَ مقالات الرحلة، والجزء الثالث من مجموعة «الذكريات» الذي سرد فيه طرفاً من أخبارها، وبعض الأوراق المخطوطة التي بقيَت من أيام الرحلة نفسها ولم تجد طريقها إلى النشر في أي يوم من الأيام.

قابلت أولاً طبعة الكتاب الثانية على طبعته الأولى وأعدت ترتيب المقالات على ما أوضحته آنفاً، ثم قارنت مقالات الكتاب بحلقات الذكريات، فوجدت نقصاً في أخبار الرحلة لم يكتبه المؤلف في كتابه ونشره في ذكرياته، قطعة طويلة تصف أيامه في جدة ومكة، فاستخلصتها من الذكريات وأثبَتُّها في موضعها من الكتاب. ثم راجعت أعداد «الرسالة» الصادرة عام ١٩٣٥ (الذي نشر فيه بعض مقالات الرحلة) وعام ١٩٤٠ (الذي نشر فيه سائرَها) فوجدت مقالة ساقطة لم تُنشَر في أي طبعة من طبعات الكتاب السابقة، فأعدتها إلى موضعها فيه. ثم راجعت المقالات المخطوطة فعثرت على فصل قصير كتبه في مكة ولم يُنشَر قَطّ قبل اليوم، فأثبَتُّه في مكانه الصحيح. وأضفت إلى الكتاب -أخيراً- استدراكات وتعليقات أخذتها من خط المؤلف على الطبعتين الأولى والثانية ومن بعض أوراقه المخطوطة، أضفتها إلى مواضعها المناسبة وأشرت إليها في حواشي الكتاب.

ثم بحثت عن الصور التي تناسب الكتاب، فعثرت على طائفة صالحة منها أضفتها إليه، فإن الصورة تكمل الكلمة في «أدب الرحلات» الذي ينتمي هذا الكتاب إليه. وقد أضاف

المؤلف إلى طبعته الأولى بعض الصور القديمة التي توفرت في زمانه، صوراً لمكة والمدينة على درجة متدنية من الوضوح، ولعل ضعفها دفعه إلى حذفها من الطبعة الثانية، ويبدو أنه لم يجد يومَئذ خيراً منها، أما اليوم فقد توفرت الصور كما لم يحصل في أي وقت مضى، وصار العثور على كثير مما يريده المرء منها ممكناً لو أنه بذل في البحث جهداً وأنفق فيه وقتاً، وهذا ما كان، فأظفرني الله منها -بفضله- بالكثير الذي ستجدونه مبثوثاً في أثناء الكتاب.

* * *

وبعد، فإن هذا الكتاب قطعة فريدة في أدب الرحلات يدرك قيمتَها كل قارئ، ويزداد إدراكاً لها مَن قطع طريق الرحلة بنفسه وشاهده بعينيه. وقد قطعته أنا عشرات المرات خلال العقود الأربعة الماضية، لقد سرت وسار غيري خَلْقٌ لا يحصيهم العَدُّ في الطريق الذي قطعه علي الطنطاوي وصحبُه قبل ثمانية عقود، وسوف يأتي جيل ويذهب جيل ويبقى الطريق هو الطريق. فعسى أن تبقى قصة هذه الرحلة وثيقة لا تبلَى على مَرِّ السنين، رحم الله مؤلفها، ورحم كل من كانت له يَدٌ في إعدادها في وقتها وإخراج هذا الكتاب عنها اليوم، ومن قال من القراء آمين.

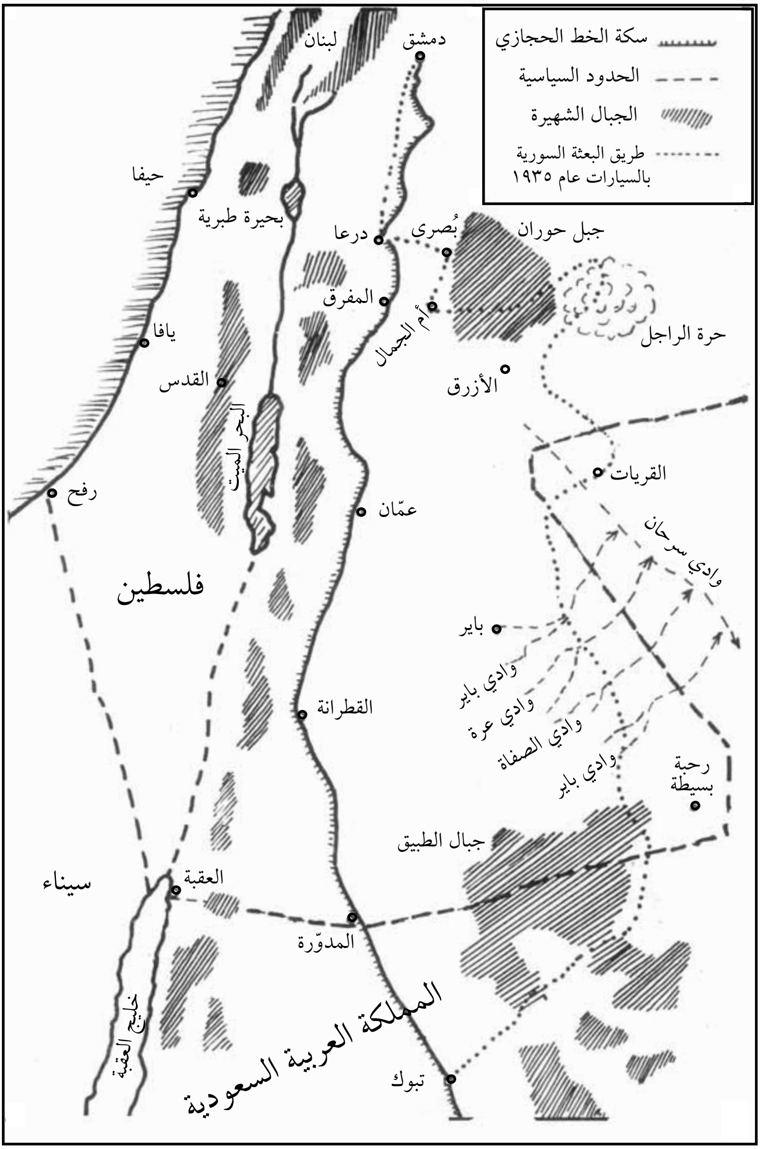
مجاهد مأمون ديرانية

رمضان ١٤٣٩ (أيلول ٢٠١٨)



صورة المؤلف وقت الرحلة سنة ١٩٣٥

وصفتُ مسيرنا بعد عودتنا لأخ من إخواننا هو الأستاذ ياسين الحموي الذي صار من بعدُ مدير «الكلّية الشرعية»، فرسم هذه الخريطة (الذكريات ٣/ ٧٢)



مخطط طريق البعثة السورية بالسيارات
لكشف طريق الحج عام ١٩٣٥

بين يدي الرحلة

نشرت سنة ١٩٣٥*

الآن وقد مَرَّ هذا الأسبوع الصاخب الذي نسيت فيه نفسي، وعشت فيه متشعب الفؤاد مقسَّم اللب بين استقبال المتفضل بالزيارة ووداع الماثل للرحيل، وإجابة السائل ومسامرة السامر ومحادثة الجليس. الآن وقد قُوِّضَت «أقواس النصر» الخشبية التي كانت منصوبة من أول الحي إلى داري الصغيرة، تدل الناس عليّ وتسوقهم إليّ، فيُقبلون زَرافاتٍ ووُحْداناً، فيهم من أعرف ومن لا أعرف، وفيهم الصديق والرفيق الذي لا أتهيَّب حديثه ولا أستثقل مجلسه، وفيهم الرجل الكبير والوجيه المعروف والعالم الجليل الذي أستحيي أن أستقبله في هذه الدار التي تخلو من غرف استقبال بالمعنى الصحيح، وبهذا الوجه الخجول الحييّ، وهذا اللسان الذي يجهل لغة المجاملة كلها ولا يحسن الجواب عليها. وفيهم من لقيته، وفيهم من شرفني بزيارته ومشى في الشمس إلى داري البعيدة ثم لم يجدني لأنني لم أستطع أن ألبث في داري أستقبل الناس، فأنا موظف عليّ أن أغدو على عملي، ولأني

* في جريدة «ألف باء» بتاريخ ١٩٣٥/٦/٨. وهي مقالة «ألف باء» الوحيدة التي عثرت على أصلها، وسائر مقالات الكتاب ممّا نُشر في «الرسالة» على التفصيل الذي أثبتُّه في الحاشية تحت كل مقالة (مجاهد).

أحتاج إلى هذا العمل بعد أن قطعت عني الوزارة راتب الشهرين اللذين غبت فيهما مأذوناً! فجمعت إلى ما حملته من تعب الطريق ومشقة السفر وسوء الصحة عناءَ الدَّين، والدَّينُ -مذ كان- هَمٌّ في الليل وذل في النهار.

الآن بعد أن هُدِمت هذه الأقواس التي لم يكن لها من معنى إلا عطف أهل الحي عليّ وعلى المشروع وسرورهم بأوبة الوفد. وإلّا فما نحن بالذين يستحقون هذا الاستقبال، وما اكتشفنا أميركا ولا فتحنا الدردنيل، ولا صنعنا شيئاً إلا أننا عَرَّضنا أنفسنا للمخاطر، وكان في طاقتنا -لو تمهلنا وفكرنا- أن نتجنب أكثرها. وبعد أن أزيحت الستائر والبُسُط عن الأبواب والجدران، وأطفئت الأنوار التي كانت ممتدة من باب الدار إلى أول الشارع، ورُفعت المقاعد التي كانت مصفوفة في الطريق مباحة للجالسين(١)، وانصرف

---

(١) سرد الشيخ بعض أخبار الرحلة في «الذكريات» ثم وصف -في الحلقة الثالثة والثمانين- ما حصل بعد العودة إلى دمشق، قال:

"عدنا إلى دمشق بعد أن حقّقنا ما كان يعدّه أكثر الناس مستحيلَ التحقيق، وهو وصول السيارات من دمشق إلى مكة، وبعد أن انقطعَت أخبارنا مدةً كتبَت فيها الصحف وتساءل الناس وخافوا علينا، فكانت لعودتنا فرحة عامّة في دمشق، وتبارت الأحياء في استقبال أبنائها من أعضاء الرحلة، وفتحَ الأعضاءُ بيوتَهم للمهنّئين. أمّا الوجهاء منّا وذوُو المال من أصحاب المنازل الكبيرة والخدم والحشم فقد زيّنوا دورهم والطرقَ المؤدّية إليها، وأوقدوا المصابيح سلاسلَ على جوانبها وفتحوها للمئات والمئات من المهنّئين.

أما أنا فكنت أسكن في طريق مسجد القصب الذي يكاد يُعَدّ يومئذ من أطراف دمشق، ما كان فيه إلّا البساتين وبيوت قليلة بُنِيَت في =

شباب الأهازيج والعراضات، فلا يصيحون ولا يَهزَجون، ولا

= أطرافها في شارع بغداد الذي فُتح أيام الثورة سنة ١٩٢٥، أي قبل رحلتنا هذه بعشر سنين. وكان خالياً، ما قامت على جوانبه إلّا بيوت معدودة، أمّا داري فمساحتها كلها بمقدار بهو واسع من دور الأغنياء المترَفين، كانت داراً خشبية تدخل منها إلى رحبة مكشوفة في صدرها غرفة لا تزيد على أربع أذرع في أربع، والرحبة في مثل سعتها، يصعد منها درَج من الخشب في وسطه غرفة صغيرة إلى غرفة عليا كالغرفة الأرضية؛ هذه هي الدار كلها.

وأراد أهل حيّنا أن يباروا الأحياء الأخرى فجمعوا من المال (جزاهم الله خيراً) ما مدّوا به سلاسل المصابيح من مسجد القصب إلى دارنا، مسافة ستّمئة متر أو تزيد، وأقاموا الأقواس من أغصان أشجار الغوطة وزيّنوها -على عادة الشاميين في تلك الأيام- بصوَر زعماء الوطنية أمثال هاشم الأتاسي وزكي الخطيب وشكري القُوَّتْلي، ومعها الصورة المتخيَّلة التي تُعلَّق على جدران القهوات، صور عنترة وأبي زيد الهلالي.

وجاءت الوفود مهنّئة أفواجاً أفواجاً. ولكن أين أستقبلها وما في الدار إلّا غرفة واحدة ما فيها أرائك (كَنَب)، ما فيها إلّا فرش عربي لا يصلح إلّا لاستقبال الأصدقاء المقرّبين والأقرباء الأدنَين، وما في الدار كراسي أصفّها ليقعد عليها القادمون من المهنئين؟ ولكن كانت لنا يومئذ رابطة أضعناها؛ كان الجيران كلهم كأنهم إخوة، كانت بيوت الحارة جميعاً كأنها بيت واحد، فإن كان في بيت منها عُرس أو كان فيه مأتم، فكل كراسي الحارة تكون عندهم وكل الكؤوس والأواني التي يحتاجون إليها تأتي إليهم. وجاءت الوفود وتبرّع أهل الحارة ومن كان من الجيران في استقبالهم ووداعهم، وفعلت ما أقدر عليه (الذكريات ١٩١/٣) (مجاهد).

يستقبلون الزائرين ويودعون القافلين بالطبول والزُّمور والهتاف والصياح ويلعبون أمامه بالسيوف والأتراس، يحركونها في أيديهم بمهارة تأخذ بالألباب وتثير الإعجاب لولا أنها سيوف لا تقطع، ويوم الحرب لا تنفع، وعن البلاد لا تدفع. وسكت ذلك المذياع (الراديو) الذي أصَمَّ دَوِيُّه الأسماع، وذهب أولئك المنشدون الذين ملأت أصواتهم الفضاء، ونزل أولئك الشباب الذين أرادوا أن يجعلوا حارتنا مثل «هايد بارك» في لندن أو سوق عكاظ في الجزيرة أو ساحة المِرْبَد في البصرة، فلم ينقطعوا عن الخطابة ساعة واحدة!

الآن وقد رجع كل شيء إلى حاله وسكنت العاصفة التي هَبَّت إثر رجوعنا، فلم تُبقِ إلّا هذا المجد الذي تعودنا أن نبنيه في الهواء بالكلمات والعبارات والخطب والهتافات وأمثال ذلك من تُرَّهات، الآن أجلس إلى مكتبي لأتذكر حوادث الرحلة فأعيد كتابتها، بعد أن سرق «صاحبنا» دفتر مذكراتي[١]، فأنشر خلاصتها في «ألف باء» الغراء وأضع فيها كتاب «الصحراء»[٢] الذي سيصدر عَمَّا قريب إن شاء الله.

* * *

(١) الخبر بعد صفحتين (مجاهد).

(٢) يبدو أنه عزم يومئذ على نشر قصة الرحلة في كتاب يحمل هذا العنوان، ثم شاء الله أن يتأخر صدور الكتاب ربع قرن، حتى صدر أخيراً باسم «من نفحات الحرم» (مجاهد).

الخروج من دمشق

نشرت سنة ١٩٤٠*

حين تصل هذه المقالة إلى «الرسالة» يكون الركب الذي خرج من دمشق منذ أسبوعين يَؤُمّ الحجاز قد شارف المدينة إن شاء الله. وهو أول ركب من الزوّار يسير على الطريق الذي كشفناه، وفيه قريب من ثلاثمئة رجل وامرأة، ووصولُه سالماً إلى المدينة (وذلك بفضل الله مؤكَّد) هو الثمرة الأولى لرحلتنا الكشفية التي رحلناها في ربيع سنة ١٩٣٥[١].

ولقد خطر على بالي -حين دُعيت إليها- وضعُ كتاب عنها،

---

* في مجلة «الرسالة» العدد ٣٦١ الصادر بتاريخ ١٩٤٠/٦/٣، وفي رأسها: "وصف وتاريخ لرحلة الوفد السوري إلى الحجاز، ربيع سنة ١٩٣٥، لفتح طريق الحج البرّي للسيارات" (مجاهد).

(١) كان ذلك أول ركب شامي يؤمّ الحج براً منذ انقطاع الطريق البري بعد الحرب العالمية الأولى، نظمته «جمعية الهداية الإسلامية» بدمشق، وكان على رأس الركب رئيسها الشيخ محمود ياسين رحمه الله، وخرج من دمشق في العاشر من ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هجرية (١٧ نيسان ١٩٤٠) (مجاهد).

فكنت أتأبط دفتري دائماً، فلا نسلك طريقاً ولا نقطع وادياً ولا نرى جبلاً إلا كتبت اسمه وصِفَتَه وطبيعة أرضه، ولا يمرّ عليّ قوم إلا وسألت عن أنسابهم وأحوالهم ووصفت مساكنهم وذكرت ما عرفت من عاداتهم وسمعت من لغاتهم ولهجاتهم، ولا بتنا ليلة إلا ذكرت كيف حططنا الأحمال وكيف نهضنا الغداةَ للارتحال، ولا أرى منظراً أو أشهد مشهداً إلا سجلت في دفتري أثره في نفسي وما أثار فيها من عاطفة أو هاج من ذكرى، على ضبط في الأرقام وتَحَرٍّ في جمع الأخبار وتوثق من صدق الراوي وخبرته.

حتى إذا دنونا من المدينة وأوفى الكتابُ على الكمال وقاربت الرحلةُ الغايةَ امتدّت إليه يدٌ لا يعلمها إلا الله، فذهبت به! فأيستُ منه وأهملته، وجعلت لا أكتب شيئاً ولا أدوّن خبراً، إلا ما كان من وصف طريق العودة، فهو مكتوب عندي[1]، وما كتبت من المقالات في مجلة «الرسالة» أو في غيرها[2].

وعدت إلى دمشق فانغمست في عملي، ثم ضرب الدهر ضرباته، فسافرت إلى العراق أولاً وثانياً، وعملت سنة في لبنان أدرّس فيها[3]، وحسبتُني نسيت الرحلة ونسيَها الناس، حتى كان

---

(١) وهو الفصل الأخير من الرحلة (العودة) في هذا الكتاب (مجاهد).

(٢) قال في الذكريات (٣٠/٣): "امتنعت بعدها عن الكتابة إلّا مقالات بعثت بها خلال الرحلة إلى «الرسالة» وإلى «ألف باء» في دمشق". قلت: لم أعثر على أصول مقالات «ألف باء»، ويغلب على ظني أنها مكرَّرات من مقالات «الرسالة» التي ضَمَّها هذا الكتاب (مجاهد).

(٣) اشتغل علي الطنطاوي بالتدريس في العراق وبيروت أربع سنين، من عام ١٩٣٦ إلى عام ١٩٣٩ (مجاهد).

هذا الشهر وحقق الله ما ذهبنا إليه، ورأت دمشق اليوم الموعود فسافرَتْ أولُ قافلة من الزوار.

وألحّ عليّ الأصدقاء وأعادوا الطلب مني أن أنشر وصف تلك الرحلة، فأجبت مكرهاً، ونفضت ذهني فكتبت ما بقي عالقاً به، وجعلت غرضي أن أدوّن ما رأيت وما سمعت وأسجل ما أحسست به وشعرت من غير أن أعمِد إلى كتاب من كتب التاريخ أو رحلة من الرحلات فآخذ منها الفصول والأخبار والأرقام، وأن أعرض على القارئ صورة من الحياة البدوية، إذا هي لم تكن محيطة شاملة ولم تكن كافية وافية فهي صحيحة ثابتة، ليست متخيَّلة ولا مبالَغاً فيها. فإن أحسنت فلله الحمد، وإن أسأت فالذنب على من سرق دفتري، عفا الله عنه وسامحه.

* * *

وبعد، فهذه رحلة كشفية سلخنا فيها شهرين اثنين وقطعنا فيها خمسة آلاف كيل في الصحراء، وركبنا فيها من الأهوال ورأينا من العذاب ما لو سردناه وفصَّلناه لكان أشبهَ شيء بالأساطير.

ولم تكن هذه الرحلة للتسلية ولا للنظر في عجائب المخلوقات وغرائب البلدان، ولا للكسب والتجارة ولا لشيء مما يرحل أفراد الناس من أجله عادة، بل كانت لمصلحة عامة وغاية اجتماعية تعود على بلاد الشام وأرض الحجاز بالخيرات الجَمّة والفوائد الكثيرة، هي فتح طريق للسيارات بين دمشق والمدينة، يسهِّل على الناس أمر الحج ويرغّبهم في أدائه ويوفر عليهم الصحة والمال.

ولم تكن هذه الرحلة رحلةَ واحد يهتم به أهلُه وأصحابه ولا جماعة يُعنى بهم أقرباؤهم وذووهم، ولكنها رحلة وفد من وجوه الشاميين وسَراتهم وتجارهم. وكان الشاميون جميعاً يتبعونهم بأفكارهم ويرافقونهم بقلوبهم وينتظرون البرقيات منهم ويتسقطون أخبارهم، فإذا انقطعت أياماً انتشر القلق وساد الذعر وهاجت الجرائد، وأقبل الناس يسألون عن أبنائهم وإخوانهم، فتهتمّ لذلك حكومة الشام ومملكة الحجاز، ثم لا ينقطع القلق ولا تسكن النفوس حتى يُعرَف خبر الوفد وتجيء منه برقية أو رسالة.

* * *

وكان أول عهدي بهذه الرحلة أن لقيني الشيخ ياسين الروّاف، المعتمَد السابق للمملكة العربية السعودية في دمشق[١]، فقال لي: لقد عزمنا على اختراق الصحراء إلى المدينة نكشف طريقاً بريّاً للزوار، فهل لك في مرافقتنا؟

قلت: نعم. ومضيت في سبيلي وأنا أراها أمنيّة من الأماني، وأعلم أن بضاعتنا إنما هي الكلام وأن الوفد لن يسافر والطريق لن يُفتَح، ولذلك قلت له "نعم" وأجبته إلى السفر.

وهل كان يسعني أن أقول له غيرَ ذلك؟ تصوّرْ بالله مسلماً يستقبل البيت خمس مرات كل يوم ويحِنّ إلى هاتيك المعاهد ويرى زيارتها مُنيته ومبتغاه، وعربياً يحب الصحراء ويعرف

---

(١) كان أول معتمَد للسعودية في دمشق. وهو من عائلة الروّاف النجدية التي كانت تقيم وقتَها في دمشق كغيرها من أسَر العقيلات (مجاهد).

أخبارها ويحفظ آدابها، ثم يُدعى إلى قطع الصحراء وزيارة الحرم، هل يقول: "لا"؟ هل يرفض الوقوف أمام الحجرة الشريفة والقيام في الروضة، والصلاة حيال الكعبة والشرب من زمزم والسعي بين الصفا والمروة، وزيارة هاتيك البقاع المباركة التي وُلد فيها الإسلام ودرج، وعاش فيها سيد العالم صلى الله عليه وسلم، ويأبى أن يخالط العرب في أرضهم ويعرفهم في ديارهم، ويرى عِياناً ما كان يقرأ خبره في الكتب ويعرف أخباره على السماع؟

ولقد كنت أعلم أن هذه الرحلة جراءة على الموت واقتحام للخطر، وهجوم على الصحراء الهائلة التي طالما ابتلعَت من أمم وأبادت من جيوش، ولكن ذلك كله كان يرغّبني في الرحلة ويحببها إليّ لِما رُكّب في طبعي من حب المغامرة والإقدام، ولأنها درس من دروس الحياة لا أجده كل يوم.

هذا الدرس الذي من فصوله الصبر والجرأة والحزم والعزم والوحدة والنظام يحتاج إليه كل شاب ينشأ في بلاد ليس فيها نظام عسكري، كالبلاد الشامية[١]، فإن الشبان الذين وُلدوا في الحرب العامة[٢] أو قبلها بقليل قد فقدوا -لطول ما نشؤوا على النّعَم وتقلبوا في الترف- طرفاً من الرجولة، وغدَوا -لما وجدوا من السلامة وفقدوا من المصاعب- يميلون إلى التطرّي والدعة، ويخشون الخروج من المدن ويهابون الحياة في الريف، حتى إن

(١) كُتب هذا المقال سنة ١٩٤٠.

(٢) يريد الحرب العالمية الأولى، وهذا كان اسمها (مجاهد).

إخواننا من المعلمين إذا أُمر أحدهم بالانتقال إلى قرية من القرى فكأنما أُمر بالانتقال إلى جهنم! وما ذلك لسوء عيش القرى، فليس في القرى إلا صحّة الأجسام وصفاء النفوس وجلاء النظر وراحة الفكر، بل لأنه لا يجد في القرية «قهوة»، أي نَدِيّاً فاسد الهواء مسدود الأبواب يجتمع فيه مئتان أو ثلاثمئة على قرع النرد ونفخ الدخان وحديث كأتفه ما يكون من الحديث ونِكات كأثقل ما يكون من النكات! ولو أن الشباب أَلِفُوا المغامرة وركوب الأهوال لما كان من ذلك شيء.

* * *

ومرت أيام، ثم لقيني الأستاذ الروّاف كَرّة أخرى فقال لي: هَلُمَّ فقد تقرر موعد السفر.

فسُقِط في يدي ووقعت بين مشكلتين: مشكلة الوعد ومشكلة الوظيفة، فلا أنا أستطيع أن أضحّي بوظيفتي (ومنها معاشي ومعاش أسرتي)[1] ولا أنا أستطيع أن أخلف وعدي. ولو أني وعدت غيرَ الشيخ ياسين لهان الأمر، ولكن الرجل نجدي سلفي لا يعرف من كلمة «نعم» إلا أنها وعد مبرم لا يحلّه إلا الموت، فاخترت الوفاء ولو خسرت الوظيفة، وقلت له: أنا حاضر.

ثم يسر الله فسمحت لي الوزارة بالسفر، فذهبت أعد الجواز.

---

(١) الأسرة هي ثلاثة إخوة وأختان وعمّة عجوز، وكانت أمه قد ماتت قبل الرحلة بأربع سنوات، ولم يتزوج إلا بعدها بخمس (مجاهد).

وجعلنا كلما أزمعنا السفر وودَّعْنا الأهلَ والأصحاب عرضت لنا الموانع فأخَّرَتنا، حتى ضجرنا واستحيينا من الناس لكثرة ما نعزم ثم نقعد. وكان أكثرنا قد أقلع عن حلق لحيته ليوفّرها ويجمع منها لحية كبيرة، لما ظنوه من أن الرجل هناك بلحيته، فكلما كان أطولَ لحيةً كان أعلى مقاماً! فكانوا يأسفون عليها ويضنّون بها على الحلق، ويستحيون أن يواجهوا الناس بها، لأن هذا الزمان جعل المعروف من السنة منكراً يُستحيا منه والمنكَر من البدعة معروفاً يُفتخَر به.

ولبثنا على ذلك أياماً، ثم عزمنا العزمة الأخيرة فبيَّتنا ثقلنا في المَرأب[1] (الكراج) حتى نغدو مسافرين، فلما حملناه ورآه أصحابنا وجيراننا جاؤوا يودعوننا الوداع السابع، ونحن لا ندري: أهو الوداع حقاً، أم سنقيم بعده أياماً وليالي، أم لا نسافر أبداً؟

---

(١) كذا صوابها، بفتح الميم، لأنها اسم مكان من فعل ثلاثي مفتوح العين فلا يكون إلا على وزن «مَفْعَل». أما المِرأب (بكسر الميم) فهو آلة الإصلاح لأن وزن «مِفْعَل» قياسي لاسم الآلة. والناس يسمون المَرْأب المِرآب (بكسر الميم وألف المد، على وزن مِفْعال)، وهو -في اللغة- الرجل الذي يسعى بين الناس بالصلح فيزيل ما بينهم من خلاف ويعالج ما نشأ بينهم من شقاق.
بقيت مسألة مهمة، وهي أن المرأب لفظة مشتقة من الرأب، وهو في اللغة الإصلاح وليس الوقوف، فصار معنى المَرْأب مكان إصلاح السيارات وليس مكان وقوفها كما يريد من يستعمل الكلمة، فما البديل لما يسمى بالأجنبية الكراج؟ أترك هذه المعضلة لخبراء اللغة. ولعل «المَصَفّ» كلمة صالحة، أما «الحظيرة» التي يستعملها بعضهم في هذا المقام فلا أستسيغها لأنها خاصة بالدواب (مجاهد).

كنا في المرأب مع الفجر، وجعلنا ننتظر حتى طلعت الشمس، وكان الضحى، وأذّنَ الظهر، وكان العصر، فأيِسْنا وهممنا بالانصراف، ولكن السيارات حضرت وتحقق الرحيل، وكانت أربعاً من طراز البويك وواحدة من الناش، وقد رفعوا على السيارة الأولى علماً سعودياً وعلقوا في صدرها لوحة كتبوا فيها «الوفد السوري لاكتشاف طريق الحج البري».

وسرنا وسار وراءنا المودّعون في قطار من السيارات الكبيرة ما له آخِر يعرف، حتى لقد ظننت أنهم لم يَدَعوا في البلد سيارة إلا استاقوها، واخترق الموكب المدينة مهللاً مكبراً تهتز له الأرض.



في هذه الصورة سيارات تشبه سيارات الرحلة (وكانت شائعة في ذلك الوقت، في مطلع الثلاثينيات) وهي تقف في ساحة المرجة بدمشق انتظاراً للركاب، وهي من النوع الذي يظهر بوضوح في الصورة اليسرى.

ولم أكن قد أيقنت بالسفر إلا في تلك اللحظة، فلما تصورتُني كيف أفارق أهلي وموطني وأطوّح بنفسي في هذه الصحراء المخيفة استعبرت. وكنت أطلّ على برَدى وهو يجري زاخراً، فأتأمله فأجده أحلى في عيني مما كان وأحَبَّ إلى نفسي، وعَزّ عليّ أن أفارقه. واستفاقت في ذهني مئات من الذكريات، وكرَّت عليّ حياتي كلها كأنها «فلْم» أراه، فأبصرت في كل بقعة من دمشق وكل طريق من طرقها قِسْماً من حياتي. وهل حياة المرء إلا في قلوب أصدقائه ووجوه أصحابه وجوانب داره ومشاهد بلده؟ فإذا فارق أهله وغادر بلده إلى بلد لا يعرفه وأهل لا يألفهم فكأنما مات نصفَ ميتة! ومن أجل ذلك كانت الهجرة جهاداً في سبيل الله، ذلك لأنها لون من ألوان الموت، ولكن صاحبها ميت يعيش ليتألم والميت مات فاستراح.

واستغرقت في هذه الأفكار فما صحوت إلا والموكب قد بلغ «بوابة الله» ووقف في ظاهر دمشق، ولم يعد موكباً وإنما صار



طوفاناً من البشر ولُجّاً طامياً من الناس، وكان من ثقله يزحف زحفاً، ويكبّر فيزلزل الأرض ويهتف فيشق عَنان السماء، فلما بلغ «البوابة» وقف للوداع[١].

* * *

(١) ليس في هذا الموضع أي باب من أبواب دمشق، وإنما سُمِّيت هذه المحلة من جنوبي حي الميدان بهذا الاسم لأنها الموضع الذي يغادر منه الحُجّاج دمشقَ متجهين إلى بيت الله الحرام لأداء فريضة الحج، وهي تسمى اليوم «ساحة الشيخ محمد الأشمر» (مجاهد).

إلى أرض النبوة (٢)

من دمشق إلى الأزرق

نشرت سنة ١٩٤٠*

تركنا الموكب وقد وقف في ظاهر دمشق حول قبة العسالي، وقد ملأت وفودُ المودعين تلك الساحةَ على رحبها، وقام الخطباء يخطبون، وقمت أشكرهم باسم الراحلين وأودعهم وأشرح الغرض من هذه الرحلة. وكانت الشمس قد جنحت إلى المغيب فزاد شحوبُها الموقفَ رهبةً وجلالاً، وأقبل الناس علينا يودّعوننا، فلم تكن ترى إلّا عناقاً أو تقبيلاً، وإخلاصاً متجلياً وحباً وعطفاً، فلم يبقَ في الناس من لم تَسِلْ عَبَراته.

وإن أنسَ لا أنسَ مشهد حفيد لزكي آغا سكر، وهو من وجوه الميدانيين ورفيقنا في سفرنا، وقد تعلق به لا يريد فراقه ويبكي فيبكينا، فما كان أبلغَ من بكاء الطفل الحفيد إلا بكاء الجد الشيخ، وما تركه حتى انتزعوه منه انتزاعاً وإنّ صوتَه ليرنّ في آذاننا ينادي: جدي، جدي...

وغادَرْنا دمشق. وكان الليل قد أسدل ستائره على الكون،

---

* في مجلة «الرسالة» العدد ٣٦٢ الصادر بتاريخ ١٠/٦/١٩٤٠.

وما زلنا نَنأى عن هذه الجموع الهاتفة لنا الداعية بالتوفيق والنجاح، ونبتعد عن هذا الحشد، حتى ابتلع صوتَه الليلُ وطواه سكونه، وغاب سواد الجمع في سواده الشامل، ولم يبقَ من حولنا إلا السهول الفِيح.

وكان صمتٌ بليغ، فلم ينبِس واحد منا، واستسلمنا جميعاً إلى عواطفنا وأحلامنا، وقد هاجها موقفُ الوداع وأثارها هذا المستقبل المجهول الذي نُقْدم عليه، وهذه الصحراء المرعبة التي نسعى إليها، وهذه البقاع المقدسة التي نقصدها. وكنا نتلفّت بين الفينة والفينة فنملأ العين بمرأى أضواء «المهاجرين»[١] وهي تسطَع على نفوسنا المظلمة كما تسطَع النجوم الهادية في الليلة الداجية على الضالّ الحائر. ولم نكن ندري: أنعود إليها فنراها كَرَّة أخرى، أم ستأكلنا الصحراء فيكون ذلك آخر العهد بها؟ وكنا نحدق فيها لننقش صورتها في نفوسنا حتى نأنس بها في ليالي البِعاد، ونذكر فيها آخر آية من آيات دمشق، البلد الحبيب.

وكانت السيارات تسير متعاقبة يكاد ينوء بها ثِقَلُ ما تحمل[٢]. وكانت تحمل -فوق الطعام والشراب- الفرشَ والخيام والقدور والطباق، ومئتي «صفيحة» بنزين، وعدداً هائلاً من آلات السيارة وأدواتها، وجهاز راديو، وغير ذلك مما نسيته الآن. فكنا نعوّذها بالله ونرجو لها التوفيق، وليس فينا من يتحدث أو يتكلم إلا قائلاً كلمة وسامعاً جواباً، ثم يرجع الصمت، حتى طلعت علينا أضواء

(١) الحيّ الدمشقي الذي يقوم على سفح قاسيون.

(٢) هذا هو التعبير الصحيح، وإن كان عكسه هو الشائع.

أَذْرِعات (درعا)، قصبة حَوران.

بلغنا أَذْرِعات (دَرْعا) عقب العشاء. فلبثنا فيها ريثما نظروا في جواز سفرنا وريثما صلينا. وأذرعات اليوم بُلَيدة جميلة ذات قسمين: قسم جديد منظم بُني على المحطة، وقسم قديم ينأى عنه قليلاً، وفيها سوق كبيرة وأبنية جيدة، وهي قديمة ذكرتها العرب في أشعارها لأنها -كما قال ياقوت- لم تزل من بلادها في الإسلام وقبله، وذكرها امرؤ القيس، وعَدّ ياقوت جماعة من العلماء خرجوا منها. وعالم حوران وفقيهها اليومَ هو الشيخ التقيّ الصالح الشيخ الطيّبي الدمشقي، وهو فوق التسعين، وهو بقية السلف الصالح.

❋ ❋ ❋



محطة درعا، وهي من محطات
الخط الحديدي الحجازي

وفارقنا أذرعات نسير شرقاً إلى بُصرَى بعدما هتفنا[١] بآل المقداد، أعيان وجوهها، ننبئهم بوصولنا. فلم نبلغ نصف الطريق إلى بُصرى حتى رأينا أضواء كثيرة ومصابيحَ تجيء وتروح، فعجبنا أن يكون في البرية مثلها، ودنونا منها فإذا هي أضواء المستقبِلين الكرام، هجروا مضاجعهم وأقبلوا يتلقَّوننا من نصف الطريق، فحيّونا ومشوا بين أيدينا يَهزَجون الأهازيج البدوية حتى بلغنا بصرى.

ولبُصرى ذكر في التاريخ مستفيض ومجد مؤثَّل وفيها كثير من آثار الماضي. ولم أكن قد دخلتها من قبل، فما استطعت رؤيتها في الظلام، ولم ألمح من آثارها إلا صفَّين من الأعمدة



(١) أي تكلمنا بالتلفون، واسمه في الشام «الهاتف»، وهو اسم معروف عند الخاصة والعامة.

الضخام قائمَين عند مدخل البلد، على طرفَي الطريق الذي سلكناه إلى منزل آل المقداد، حيث رأينا الكرم الذي لا كرمَ بعده.

وبُصرى مذكورة في الشعر قديماً وحديثاً، ولكنهم لم يذكروها إلّا ليذكروا نجداً ويعلنوا شوقهم إليها، وكأنهم لم يَرَوا فيها ولا في الغوطة ولا وادي بردى ما ينسيهم تلال نجد ورماله، وذلك من حكمة الله، فإنه لولا حبّ الوطن ما سُكن البلدُ القَفار. فمن قولهم فيها:

أيا رُفقةً مِن آل بُصرى تحمَّلوا
رسالتَنا، لُقِّيتِ من رُفقة رُشدا
إذا مـا وصلتُم سالمين فبلِّغوا
تحيّةَ مَن قد ظنّ أن لا يرى نجدا
وقُولا له: ليس الضّلالُ أجازنا
ولكنّنـا جُزْنـا لنلقـاهُمُ عَـمْدا

ولبثنا فيها إلى مَوْهِن من الليل[١]، ثم خرجنا يصحبنا دليل من أهلها ليسير بنا إلى «قُرَيّات الملح»، القرية التابعة لابن سعود، من غير أن نَمُرّ على المَخفِر الإنكليزي في «الأزرق»، لأننا لم نستأذن من القنصل الإنكليزي لنمر على بلد من بلادنا! وكان اسم الدليل الحاج نمر، وقد زعموه خبيراً بالطرقات عارفاً بالأرض خِرّيتاً حاذقاً. فتوكلنا على الله ثم على هذا الدليل الحاذق[٢].

* * *

(١) منتصف الليل.

(٢) قال في «الذكريات» (٣/ ٣٢): "كانت تلك الرحلة مثلاً مُفرَداً في =

سرنا إلى الجنوب نخبط في ظلام الليل، لا نتبع جادة مسلوكة ولا طريقاً واضحاً، يقودنا الحاج نمر. ويا ليت اسمه الحاج غراب، فقد أضلّنا كما «قد ضَلّ مَن كانت الغِربان تهديه»! حتى بلغنا قرية كبيرة اسمها «أم الجمال»، فيها بنيان كثير وأزقّة وطرقات، وفيها برج عال قديم، ولكنها مهجورة منذ قرون، ليس فيها دَيّار ولا نافخ نار، وهي موحشة في رأد الضحى، فكيف بها في الليلة الظلماء؟

فما كان من صاحبنا الحاج غراب إلا أن دِير به[1] وغَثَتْ نفسه، وجعل من الدُّوَار والغثيان يقيء وفقد رشده، فصبرنا عليه

= «باب التنظيم»، فيها نوادر لولا أنها واقعة وأنني كنت أحد أبطالها لما صدّقتها. كان طريقنا على إمارة شرقي الأردن (التي صارت الآن المملكة الأردنية الهاشمية) ولم يكن لها ممثّل في دمشق، فكان على من يريد دخولها أن يطلب الإذن من القنصل البريطاني! وطلبنا الإذن فأباه علينا، كأن الأرض أرضه وأرض أبيه وجَدّه، فماذا نصنع؟ جاءنا من يقول لنا إنه يعرف طريقاً ينقلنا من سوريا إلى الحجاز من غير أن نمرّ على الأردن، وصدّقناه، ولم يخطر على بال واحد منّا (ولا أنا، الذي كان يحمل يومئذ ليسانس الحقوق) أن يُلقي نظرة على المصوَّر (الخريطة) ليرى أنْ ليس بين سوريا والحجاز حدود مشتركة وأنه لا بد من المرور بالأردن!

يقولون إن الهوى يُعمي ويُصِمّ. وكان هوانا في أن نرى الكعبة ونشرب من زمزم، ونقوم في الروضة ونزور رسول الله ﷺ، كأن هوانا هذا قد أعمانا فلم نرَ الحقيقة الماثلة أمامنا. إني لأذكر ذلك الآن فأضحك من نفسي، من جهلي وجهل من كان معي" (مجاهد).

(١) أي أصابه الدُّوَار (داخ).



حتى أفاق، فسألناه عن أمره، فإذا هو لم يركب في عمره سيارة قط ولذلك دار رأسه، فعالجناه حتى برئ[1]، فلما برئ رأى الطريق مختلطاً عليه، فأمرَنا بالوقوف في هذه البُلَيدة الموحشة التي لا يسكنها إلا الجن وذهب في سيارة يكشف لنا الطريق، فانتظرناه إلى الفجر فلم يرجع. وكانت ليلة ما أذكر أني رأيت مثلها برداً، ونحن في العراء، فأحسست والله كأن عظامي ترتجف من البرد، وبلغ منا النعاس وما نطيق أن ننام. وأين وكيف ننام؟

---

(١) في الذكريات (٤٢/٣): "وكان معنا كلّ ما يحتاج إليه الإسعاف العاجل، كما كان معنا من الطعام ومن الشراب ومن الأدوات والآلات ما لا يُستغنى عنه في مثل هذه الرحلة، كما حملنا معنا مئتي صفيحة بنزين مختومة، لأنه لم يكن ينبع النفط إلّا في العراق ولا كنّا نعرف محطات الوقود على الطرقات" (مجاهد).

فلما طلع النهار وتعارفت الوجوه رأينا الحاج غراب على بعد خمسين متراً منا، وإذا المحترم ينتظر أن نأتي إليه! وأردناه على الإسراع قبل أن يبصرنا بعض أعوان المستر كلوب، ملك البادية المسمى أبا حُنَيك[1]. وسألناه: هل يعرف الطريق أم يخبط بنا خبط أعشى؟ فعجب من سؤالنا وأكّد لنا أنه يعرف البلاد كلها شبراً شبراً وأنه سلك هذه الطرق بعدد شعر رأسه، فاطمأننّا وسرنا معه. وكانت الشمس قد طلعت، وانقضت أول ليلة من ليالي الرحلة.

سرنا معه، فصَعِد بنا جبلاً وعراً فيه أحجار وحفر، سرنا فيه ساعة كاملة وهو لا يزداد إلا وعورة. قلنا له: ويحك يا هذا! إلى أين تمشي بنا؟ قال: إن علينا أن نجاوز هذه الوعرة كي نبلغ قُرَيَّات الملح من غير طريق الأزرق. فقلت له: ويحك! هذا والله البلاء الأزرق والموت الأحمر، وإنه ليوشك إذا أوغلنا في هذه الوعور ألّا نخرج منها، فعُدْ بنا ولو إلى الأزرق، فماذا في الأزرق إلّا الجزاء النقدي؟

واختلفت الآراء وتجادل القوم، ثم اتفقوا على العودة، فعاد بنا الدليل من حيث جاء، حتى إذا هبطنا الجبل سار بنا في طريق معبّدة، فسرنا فيها ثم سرنا وهي لا تنتهي حتى كاد النهار يزول، ثم وجدنا مركزاً من مراكز البترول فيه ضابط إنكليزي، فسألناه: إلى أين تؤدي هذه الطريق؟ قال: إلى العراق، وقد اقتربتم من الحدود!

---

(١) «أبو حنيك» هو الاسم الذي عُرف به كلوب، لأن رصاصة كانت قد أصابت حنكه فتركت فيه أثراً.

فوثب أصحابنا على الدليل يوسعونه سباً وشتماً على أنْ طوّحَ بهم حتى كاد يهلكهم بجهله، وهو صابر ساكت لا ينطِق بحرف، فتركه القوم وائتمروا بينهم، فقال قائل من السوّاقين: إني لأعرف طريقاً في الحَرّة[1] يصل بنا إلى القريات، وقد جزته فوجدته سهلاً. فقالوا له: سر بنا إليه.

فمال بهم ذات اليمين ثم دار دَورة فإذا نحن في حرة من أصعب الحِرار، واسعة ممتدة الجوانب ملتوية مفروشة بحجارة سوداء لَمّاعة كأنما قد صُبَّ عليها الزيت، حادة الجوانب كأنها السكاكين، فلما بلغنا وسط الحرة رأينا الجادة متروكة مهملة قد تخربت وغطتها الحجارة، فكنا ننزل من السيارة فنزيح الأحجار من طريقها لنمشي، وكنا إذا بلغنا هضبة لا تقوى السيارة على صعودها نزلنا فربطنا السيارات بالحبال فجررناها بأكتافنا، واحدة واحدة، كما تُجَرُّ الدابة الحَرون، ودفعها ناس منا من خلفها!

واستمر بنا ذلك إلى الغروب، وامتدت بنا هذه الطريق تسعين كيلاً رأينا فيها الموت مما تعبنا. ولم نقف إلا ساعة أكلنا فيها وصلّينا، فلما أن غابت الشمس يَسَّرَ الله لنا الخروج من هذه الحرة، فلما خرجنا منها إذا نحن حيال قصر الأزرق، ليس بيننا وبينه إلا أربعة أكيال أو أقل منها. وكنا حين انتهينا إلى الأزرق بعد هذا الأذى كله كالذي «فَرَّ من الموت وفي الموت وقع»!

* * *

(١) الحرة أرض بركانية كلها صخور.

إلى أرض النبوة (٣)

أول ليلة في البادية*

لما رأينا أضواء الأزرق حاولنا الرجوع فلم نستطع. كنّا في رأس منحدَر وأمامنا عن بُعد مركز «الأزْرَق» يلوح العلم فوقه ويقف الجند حوله وتحفّ السيارات العسكرية به، فخشينا أن يكونوا قد رأونا فتضيع جهودنا كلها ويذهب تعبنا عبثاً. وكان إلى يسارنا أدغال وعرة فيها نبت من نبت الصحراء ذو أشواك وأرضها

* لم تُنشَر هذه المقالة في وقتها لأنها ضاعت بالبريد. وقد وجدت في «الرسالة» في آخر الحلقة الخامسة من ذكريات الرحلة ملاحظة كتبها جدي رحمه الله لقراء المجلة وفيها: "لعل في القراء مَن أحسَّ أن بين المقالة الثالثة والتي قبلها كلاماً منقطعاً، فليعلم أن بينهما مقالة لم تُنشَر، وأكبر الظن أنها قد قُطعت عن الوصول". وتحتها تعقيب من «الرسالة»: "نعم، لم تصل".
ويبدو أنه أعاد كتابتها بعد ذلك أو عثر على مسوَّدتها فأثبتها في الكتاب لمّا صدر في طبعته الأولى سنة ١٩٦٠، وكتب في حاشيتها: "هذا فصل من فصول الرحلة ضاع ثم وجدته في أوراقي، فأنا أثبته فيما يلي". وقد أعدت ترقيم الحلقات التالية ليتّسق ترتيبها، فما نشرَتْهُ «الرسالة» برقم (٣) صار في هذا الكتاب (٤)، وكذلك في سائر الحلقات (مجاهد).

من الرمل الناعم، وهو العدوّ الأكبر للسيارات لأن دواليبها تغوص فيه فلا تُستخرَج منه إلّا ببالغ المشقّة. فلم نجد بُداً من دخولها، فدخلناها مكرَهين، تقوم بنا السيارة وتقعد وتميل وتعتدل، حتى أظلم الليل، ورحمَنا الله فوصلنا إلى قاعٍ مستوٍ وقفنا فيه وأنخنا للمبيت[١].

والقاع في عرف البدو أرض طينية كان فيها غدير من ماء المطر فجَفَّ وترك فيها شقوقاً وغادرها مستوية كالطبق[٢]. وكان خالياً موحشاً، فلما وقفت فيه السيارات وانطلق إخواننا إلى الأحمال يضعونها عن السيارة ونُصِب فيه السرادق (وهو خيمة كبيرة) وأُشعلت مصابيح الغاز[٣] وأُوقدت أمامه النار ومُدّت فيه البُسُط رأيت القاع قد استحال إلى قرية صغيرة عامرة أو إلى نَدِيٍّ[٤] من أندية المصايف، فها هي ذي الخيمة منصوبة وها هي ذي الأضواء معلقة وها هو ذا الرادّ يصدح بالأغاني[٥]، وها هي ذي أكواب الشاي تدور على الجلوس.

وكان كل شيء نراه جميلاً يبعث إلى النفس القوةَ والنشاط

---

(١) أخذت هذه القطعة من طبعة الكتاب الأولى التي صدرت سنة ١٩٦٠، وقد سقطت في الطبعات التالية كلها فلم تظهر في أي منها (مجاهد).

(٢) ويسمى في بادية الشام «طُلَيحة».

(٣) الأتريك.

(٤) أي قهوة.

(٥) كنّا قد أحضرنا معنا رادّاً (راديو) وصلوه بكهرباء السيارة فانطلق يصدح بالأغاني. ولم تكن هذه الرَّوَادّ الصغيرة التي تعمل بالأحجار، أي بالبطاريات الصغيرة.

والرجولة، إلا هذه الأغاني المخنثة الضعيفة التي كان يأتي بها المذياع، فقمنا إليه فسددنا فمه. وجلسنا نتحدث بما مرّ علينا في يومنا، حتى نَضِج الطعام، فتهافتنا عليه نأكل أكل من لم يَرَ الزاد منذ أيام، حتى تكشف قعر القصعة! وكانت قصعة كبيرة يقعد فيها إنسان، فابتعدنا عنها وما منا إلا من يشتهي الطعام، وجعلنا نمسح أكفنا بالرمل والطين، لا نستطيع أن نغسلها بما كان معنا من الماء خشيةَ أن نُقبل على مفازة فنهلك عطشاً. ثم جلسنا للسمر والحديث، تدور علينا أكواب القهوة المُرّة والشاي، فكانت ليلة من أجمل الليالي، نسينا فيها كل ما قاسينا من تعب وما رأينا من عناء.

حتى إذا اكتهل الليل قمنا إلى الخيمة، فمددنا فيها ما كان معنا من بُسُط أو فُرُش ونمنا جميعاً، لا نخاف اللصوص أن تسرق متاعنا ولا الوحوش أن تجر برجل أحدنا[1]. ولقد حسبتني سأنام إلى الظهر لما كنت أحسّ من التعب والنعاس، وإذا بي أنهض من الفجر وينهض إخواننا جميعاً وليس في أجسامهم أثر من تعب الأمس، وإذا نوم ساعات في الصحراء أجدى على الجسم من نوم الليل كله في المدينة. وليس في الدنيا أجمل من صباح البادية، ولا يُعرَف الفجر إلّا فيها ، ولم نكن نعرف ذلك من قبل، فكان

(١) قال في «الذكريات» (٤٦/٣): "وما كان معي إلّا «إحرام» واسع كنّا نستعمله في دمشق في الشتاء، من الصوف الخالص ناعم رقيق، إن بسطته غطّى عشرة أشخاص نيام وإن شئت زيادة في الدفء طويته، فكان هو فراشي وكان لحافي. وبسط كل منّا ما حمل معه، ونمنا نومة كانت بعد ذلك التعب ألذّ نومة نمتها في حياتي" (مجاهد).





صورة نادرة لبعض أعضاء الرحلة، يظهر فيها الشيخ ياسين
الرواف واقفاً (١) وعلي الطنطاوي مستلقياً على الأرض (٢)

لذلك الصباح أثر في نفوسنا لا يُمحَى، وبدأنا منذ تلك الساعة نحب الصحراء ونخشاها بعد أن كنا نخشاها ولا نحبها[١].

وأسرعنا بالصلاة والطعام، ثم سرنا قبل طلوع الشمس يقودنا الحاج غراب، حتى خرج بنا من هذه الأدغال إلى أرض مستوية فسيحة رأينا فيها أثراً جديداً لسيارات من السيارات الكبيرة ذات الدولاب المزدوج، فعجبنا منه ولم نَدْرِ أي السيارات تمر من هناك، وعهدنا بهذه الأرض لا تطؤها سيارة! ورأينا هذا الأثر يمشي معنا ويدور من حولنا لا يفارقنا، فجعلنا نظن به الظنون، حتى طلع علينا أعرابيان من عُرض البر، فأشرنا إليهما فأقبلا علينا.

ومن مزايا الأعراب (التي اضطَرتهم إليها طبيعة أرضهم) أن الأعرابي يأتي إليك من مسافة كيل أو كيلين إذا أنت أشرت إليه لتسأله عن الطريق أو تطلب منه حاجة، لا يغضب ولا يتأفف ولا يسألك أجراً.

فلما أقبلا إذا أعرابيان بثياب رثة لا يُدرَى ما هي، يقودان جملاً هزيلاً. فقلنا لهما: أين نحن؟ قالا: على ماء الهَزيم، وها هو ذا عند هذه الطَّلحة[٢]. قلنا: ومنذ كم أنتم هنا؟ قالا: منذ الأمس.

---

(١) في «الذكريات» (٤٦/٣): "صحوت في الصحراء نشيطاً قوياً قبل أن يُطِلّ الفجر من الأفق الشرقي، فرأيت الفجر عياناً، وما عرفته من قبل إلّا على السماع أو في الكتب. رأيت الفجر الكاذب الذي يكون فيه النور خيوطاً متفرقة كأذناب البقر، والفجر الصادق الذي يطلع معترضاً يملأ الأفق" (مجاهد).

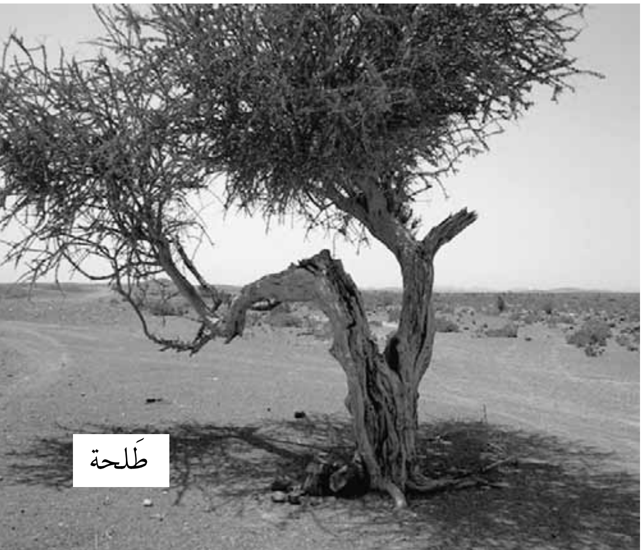
(٢) واحدة من شجر الطلح، وهو شجر لا يثمر. والطلح أيضاً شجر الموز.

قلنا: هل رأيتما سيارتين كبيرتين مَرَّتا من هنا؟ قالا: نعم، من سيارات «أبو حنيك» فيها عسكر يفتشون عن سيارات مرت على الأزرق ثم اختفت، وقد سألونا عنها.

نظر بعضنا في وجوه بعض وابتسمنا. وأبو حنيك هذا هو الإنكليزي كلوب، سُمِّي بأبي حنيك لأن رصاصة أصابت حنكه فتركت فيه أثراً بيّناً، وهو ركن الاستعمار في هذه الديار. فقلنا لهما: وأنتما ما خطبكما؟ قالا: أضللنا بعيرين لنا فنحن في طلبهما منذ ثلاث. فدعونا لهما وسرنا، ونحن نحس أننا قد دخلنا الآن في جزيرة العرب. حتى وصلنا ماء الهزيم، فإذا الهزيم جبّ ماء منتن خبيث، فتركناه وسرنا.

* * *

لم نجاوز غيرَ بعيد حتى رأينا لوحة وأسلاكاً من هذه الأسلاك الشائكة، فعلمنا أننا قد دخلنا في أراضي المملكة السعودية، فاستبشرنا وشعرنا بالاطمئنان، وذهبت علائم الكدر من وجوهنا وخالطَنا سرور عجيب. لا أدري أكان ذلك لأننا دخلنا في أراضي الحجاز فهاجَنا الشوق إلى هاتيك المعاهد، أم لأننا وطئنا أرضاً لا يسيطر عليها أجنبي ولم تمتد إليها رذائل الحضارة الأوربية، فهي عربية مسلمة، أم لأننا قد أصحرنا ودانينا الخطر فألّفَ الخوف بين قلوبنا



وشعرنا بزهو المُخاطر وسروره من نفسه وشجاعته، أم لأننا نجونا من «أبي حنيك» الذي يطاردنا.

ولم يكن حولنا إلا تلال من الرمل متتالية متعاقبة لا يكاد البصر يدرك آخرها، توحي إلى النفس -بامتدادها وصمتها- معنىً من معاني الرهبة والجلال. وجعلنا نتبع الأرض الصلبة كيلا تغوص السيارات في الرمل يقودنا الدليل، حتى لمحنا على تل عال من هذه التلال شيئاً تأملناه، فإذا هو خِباء من أخبية البدو، فاستأنسنا به ودنونا منه، وإذا مَخفِر من مخافر الحدود البدوية، وإذا فيه ثلاثة شبان من شبان نجد، ما إن رأونا حتى هرعوا إلينا يستقبلوننا من أسفل التل ويقودوننا إلى الخباء. وكانوا يلبَسون الثياب العربية ويتمنطقون عليها بمناطق الرصاص ويتنكبون بنادق جديدة رأينا عليها كتابة، فقرأناها فإذا هي: "وقف لله تعالى، وقفه عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود"، فساروا ونحن نتبعهم حتى بلغنا الخباء في أعلى التل.

كان خباء من الشعر على مثال أخبية البدو، قد حفرت في وسطه حفرة أوقدت فيها النار وصُفَّت من حولها البسط والجلود، فأجلسونا على أكرمها وأحسنها وقدموا لنا رحال الجمال لنتكئ عليها، وقاموا بين أيدينا يخدموننا، فما تركوا شيئاً يستطيعون أن يفعلوه من الإكرام إلا فعلوه.

* * *

إلى أرض النبوة (٤)

إلى القُرَيّات

نشرت سنة ١٩٤٠*

تركَنا القراءُ في المَخفِر السعودي على الحدود. وأشهد أني لم أذق طعم الأنس والاطمئنان مذ فارقت دمشق إلا في هذا المخفر، ومهما نسيت من المشاهد وأضعت من الذكريات فلن أنسى تلك الساعة ولن تضيع من نفسي ذكراها، وإنني لأتخيلها الآن وقد مَرَّ على تلك الزيارة خمس سنين[1] ولم يبقَ في يدي منها إلا ما علق بذهني، أتخيل تلك الخيمة الشَّعرية الجاثمة على ذلك التل العالي، تطل على التلال التي لا يحصيها عد، وقد اتكأت فيها على جنبي ونظرت إلى أسفل مني فرأيت السلوك الشائكة، فعجبت منها. سلكة لا يُعبَأ بها تفرق الأخ عن أخيه وتجعل الشعب شعبين!

ثم مددت بصري حتى ضَلَّ في ثنايا السراب المتألق في

* في مجلة «الرسالة» العدد ٣٦٤ الصادر بتاريخ ١٩٤٠/٦/٢٤.
(١) أي يوم نشر هذه المقالة سنة ١٩٤٠.

وهج الظهيرة، ثم بلغ دمشق، دار الأحبة ومثوى الأماني، فهزّني الشوق إليها والفخر بها والأسى عليها لما أصابها. ثم رجعت البصرَ إلى البادية من حولي فسرَتْ في روحي روحُها، فشعرت كأنْ قد صهرتني شمسها، فغدوت كأولئك الذين خرجوا منها جِنّاً في النهار ورهباناً في الليل، موتاً للظالمين والمبطلين وحياة للشعوب ورحمة للناس، وتمنيت لو كان اليوم إلى اليرموك أو القادسية طريق حتى أسلكه كما سلكه أجدادي الأمجاد. وهيهات أن يكون للشباب الذي أضاع روح الصحراء إلى مثلها طريق!

وأكلنا من طعام الجند، وهو الزبد والرز والتمر، وشربنا من ألبان النياق، وما ألذه من شراب! وتبادلنا أطيب الحديث، فكان بِشرهم وحديثهم قِرى حُلواً كتمرهم سائغاً كلَبَنهم. ثم سألونا عن الطريق الذي نسلكه، فأشرنا إلى الدليل، فحدثوه فوجدوه أجهل الناس بالبادية ووجدوه يضرب بنا على غير هدى ويسير على عَشى. فأتموا صنيعهم معنا، فبعثوا واحداً منهم يصحبنا إلى القُرَيّات، يرشدنا ويهدينا. وكان اسمه سلامة، فتفاءلنا به خيراً، وكان رسولنا ﷺ يتفاءل، قلت: "رافقتنا السلامة إن شاء الله". والحاج غراب صامت لا ينطق.

* * *

ودعنا القومَ الكرام وسرنا نخرق صدر البادية المهولة وأرواحُنا معلقة بيد سلامة، وسلامة يشير إلى السائق ويلقي عليه أوامره: يمين، يسار، اصعد التل، تجنب الرملة... والسائق يسمع ويطيع والسيارات تتغلغل بين هذه التلال. ولبثنا على ذلك إلى العصر، عصر اليوم الثاني من أيام الرحلة، فرأينا رملة بيضاء

فسيحة لها منظر البحر في سعته وتموّجه واستوائه، تملأ العينَ جمالاً والقلبَ من خوف سلوكها فزعاً، يَلوح من ورائها سواد قليل كأنه النخيل أو خيال البنيان. فقال سلامة سلّمه الله: هذه هي القريات.

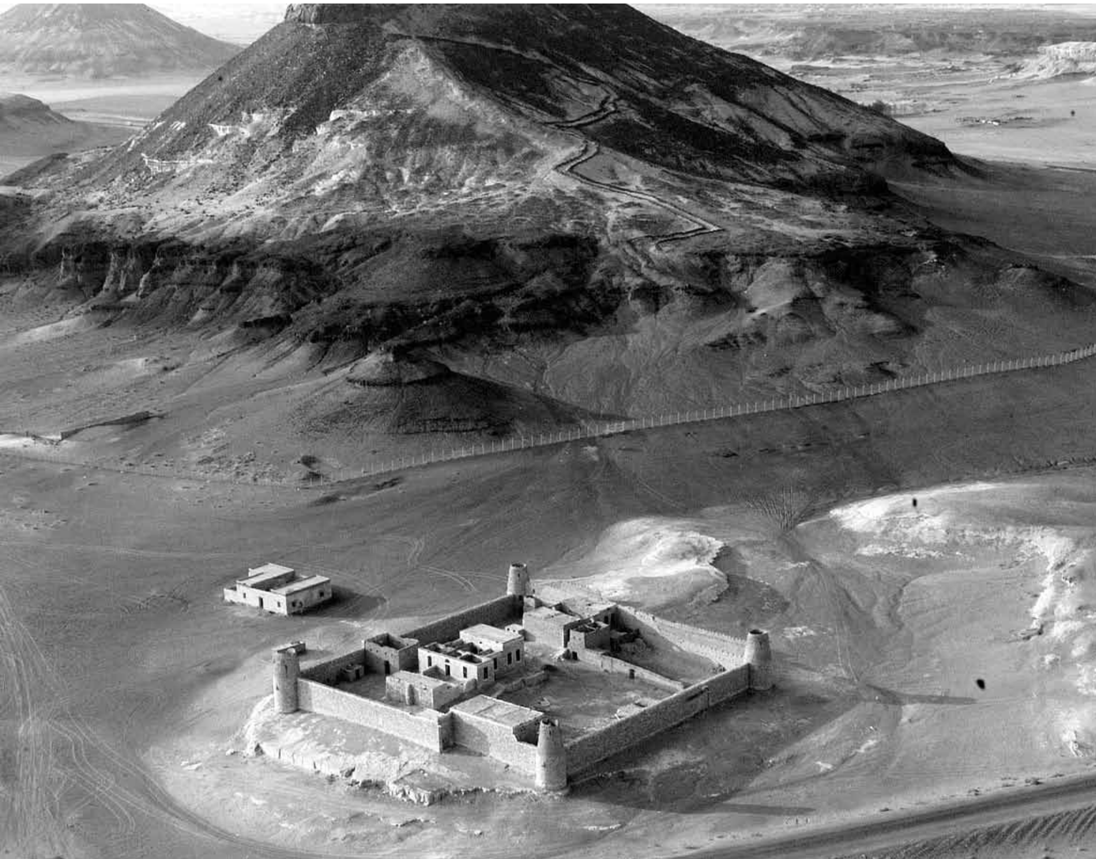
والرمال التي رأيناها في البادية على نوعين: رمال منبسطة بيضاء دقيقة كالغبار، لاطية بالأرض يتخللها نبات من نبات الصحراء (وسأصف فيما يأتي من الحديث أنواعاً منها خبرناها) ورمال حمراء حباتها أكبر وامتدادها أكثر، وهي تلال يأخذ بعضُها بأعقاب بعض، وإذا أنت تأملتها وجدتها في حركة دائمة لا تستقر حباتها، وبذلك ينتقل التل العظيم من مكان إلى مكان في الشهر مرة أو الشهرين! ولقد رأينا في عودتنا مناطق كانت سهلة ما فيها حبة رمل فصارت بعدنا آكاماً من الرمال.

وهذه الرمال آفة السيارة وعلّتها التي لا دواء لها، فإنها -لِلينها وتهافتها- لا تثبت تحت دواليب السيارة، فتغوص فيها كما تغوص في الماء وتلبث فيها كأنما دُفنت وهي في الحياة! ولقد لقينا من هذه الرملة عناء تقلّ في وصفه مبالغات الشعراء. غرقت فيها السيارات، وما لها لا تغرق وقد قلت لك إنها رملة كالبحر، أفتمشي سيارة على وجه البحر؟ ولقد لبثنا إلى الليل نزيح الرمل من حول السيارة، ونرفعها رفعاً ثم ندفعها بعواتقنا دفعاً ثم نجرها بالحبال، حتى إذا قلنا سارت عادت فغاصت، فلم نقطع الرملة حتى تقطعت أعمارنا، ولم نخرج منها حتى شهدنا أنه لا إله إلا الله!

* * *

و«قريات الملح» قرى ست متقاربة، أكبرها قرية «كاف»، ولكنها لا تحوي على نصف سكان أصغر قرية من قرى الشام ولا تبلغها كبراً واتساعاً. وهي في غور من الأرض، وكان أول ما استقبلنا منها الحصن، وهو حصن كبير من الحجر الأبيض المسنون، علمت أن الأمير نواف بن النوري الشعلان هو الذي بناه أيام تسلطه على تلك الديار منذ خمس وعشرين سنة، ولم أجد مَن أستزيده من خبره.

والقريات اليوم إمارة، وهي مقر الأمير. ومما رأينا في الحكومة السعودية أنهم يسمّون كل مَن يلي مدينة -مهما صغرت- أميراً، لا فرق في ذلك بين أمير القريات هذه وأمير المدينة المنورة.



وكان الأمير يومئذ غائباً في مكة يشهد الموسم، ويقوم مقامَه ابن أخ له (وهذه البادرة فاشية في الحجاز، إذا غاب الأمير أناب عنه ولداً له أو قريباً). وكان نائب الأمير في قرية أخرى من القرى الستّ فلم نلقَه، ولكنا لم نَعدَم من يستقبلنا ويكرمنا. وغاية الإكرام -كما رأينا- أن ندخل القصر وتوقَد النار في زاوية البيت الذي جلسنا فيه ويشعل فيها الغَضا، هذا الذي يُضرب بحرارته المثل، والذي ذكره الشعراء فأكثروا وكنَّوا به عن نجد، مهوى الأفئدة منهم. وقد رأيته مراراً فوجدته كثيراً في البادية، وهو كالمِشمِش غير أنه أجمل شكلاً وأدقّ ورقاً، وهو أشد شجر رأيناه في البادية اخضراراً، أما جمره فكالفحم الحجري ولا مبالغة، أشعلوه وزادوا في إضرامه حتى بلغ لهيبه السقف، ثم قربونا منه وأجلسونا إلى جانبه.

فلما «تَقَهْوَينا» ونلنا حظنا من الإكرام البالغ سألونا سيارة تأتي بالأمير، ودُعينا إلى دار أخلَوها لنا، وكانت دار مفتش الحدود عبد العزيز بن زيد، وهي أكبر دار في القريات وأجملها، إلا أنها خالية لا شيء فيها، ففرشنا فيها ما كنا نحمل من بسط وفرش وإحرامات. ولم أبتئس أنا بخلوّها، فقد كان بساطي وإحرامي أحبَّ إليّ من كل ما يمكن أن يفرشوه فيها. ولما اطمأننا على أمتعتنا وعلى مكان مبيتنا خرجنا نجول في القرية، فإذا هي بيوت من الطين قائمة على «شاطئ» الرملة، يحف بها نخل قليل وفيها حقول تُزرع فيها بعض الخضر، وتُسقى من عين جارية وفيرة (تكفي لريّ قسم كبير من الأراضي لو كان هناك مال[1] وكانت

(١) كان ذلك قبل اكتشاف البترول.

هناك أيدٍ عاملةٌ تسعى في توسيع الأراضي الزراعية وتحسين زراعتها). وتحيط بالبلدة وبساتينها ورملتها صخورٌ أهرامية هائلة رهيبة المنظر تمتد من حولها كأنها سور إلهي. وحياة هذه القرى من الملح الذي يُستخرَج من السباخ الكثيرة القريبة من البلد ويصدَّر إلى حوران وشرقي الأردن.

* * *

بتنا في دار ابن زيد هذا خير مبيت. وقد جاؤونا بالعشاء من قصر الأمير، فلما أصبحنا غدونا عليه، فرأيناه شاباً ذكياً، واستقبلَنا بنفسه على عتبة الباب ببشر وإيناس ثم جلس معنا يحدّثنا ونار الغضا تلفح وجوهنا. ولبثنا على ذلك ساعة لم يدع فيها الأميرُ دقيقةً واحدة قولَه: قهوة، شاهي، شاهي، قهوة... يدور علينا بها عبد أسود ضخم الجسم. ثم أُديرت علينا المِجْمَرة وفيها البَخُور، بخور العود، فلم نَدرِ ما نصنع بها، ثم وجدنا الأمير يضمّ عليها طرَفَي كوفيته أو عباءته حتى يتعشق الطيب ثيابه ثم يدعها، فصنعنا مثله. وانتهى العبد من إدارة المجمرة فرأيت الأمير ينظر إلينا، فقام الشيخ الرواف واستأذن، وقمنا معه على أن نجتمع الظهر بالأمير على الغداء.

فلما خرجنا قال الشيخ الرواف: ألم تسمعوا المثل النجدي؟ قلنا: وما ذاك؟ قال: «إذا دار العود فلا قعود». فعلمت سِرَّ نظر الأمير إلينا، وتمنيت لو دخل هذا المثل بلادنا حتى عرفه الناس، ثم ذكرت أن عندنا -بحمد الله- من لا يفهم بالعود ولا بالعصا ولا يخرج من زيارتك حتى تخرج غيظاً من جلدك!

* * *

إلى أرض النبوة (٥)

في القُرَيّات

نشرت سنة ١٩٤٠*

إن من دأب العادة أنها تضعف الحس وتذهب بالانتباه. فالغنيّ الذي يلبَس الحرير وينام على السرير ويركب السيارات ويملك العِمارات لا يجد لذلك كله من اللذة ما يجد الفقير المُعدِم والبائس المحروم إن نال مثله. والشبعان لا يدرك اللذة التي يتوهمها الجائع، والصحيح لا يعرف لنعمة الصحة قدرَها إلّا إذا مرض، فلا لذّةَ في الدنيا إلا في التنقل والتبدل وألّا تَجمد على حال مهما حسنت في ذاتها. وهذا ما أراده الشاعر حين قال:

ولذيذُ الحياةِ ما كان فوضى　　　ليس فيه مُسَيطرٌ أو نظـامُ

من أجل ذلك أحسسنا -حين ذهبنا إلى غداء الأمير ورأينا عاداتٍ لم نألفها وطرائقَ في الطعام لم نعرفها- بلذة التبدل والاستمتاع بالجِدّة، فما كاد يستقر بنا المجلس حتى أقبل العبيد فمدوا سِماطاً على الأرض ووضعوا عليه قصعة هائلة كان يحملها

* في مجلة «الرسالة» العدد ٣٦٥ الصادر بتاريخ ١٩٤٠/٧/١.

منهم اثنان، وقد مُلئت رزاً وألقي فوقه خروف كامل بيديه ورجليه ورأسه! إي والله، كأنهم خافوا أن نشكّ فيه فنحسبه دباً أو فيلاً أو قطاً، فأبقوا على الرأس دليلاً قاطعاً على أنه خروف أصيل من أمة الضأن لا من شعب الثعالب!

وكان الخروف مفتوح العينين ناعس الطرف، فأخذتني الشفقة عليه وتوهمت أنه ينظر إلينا! ثم رأيت أن لا مجال للوهم ولا للخيال وأن الوقت لا يتسع للشعر والأدب، لأن القوم أحدقوا بالقصعة وشمروا عن سواعدهم ونظروا شَزْراً، فِعْلَ من يقدم على معركة، فخشيت أن يذهبوا بالرز واللحم ويبقى لي الوهم والخيال. ومتى أفاد الخيال جائعاً أو أجدى الأدب على إنسان؟

وكان أصحابنا يدورون بعيونهم يفتشون عن ملعقة أو سكين أو شوكة، فما وجدوا شيئاً من ذلك. وأبصروا القوم يأخذ أحدهم قبضة من الرز فيديرها في كفه، ويعصرها حتى يقطر منها السمن ويحركها كما يحرك اللاعب الكرة قبل قذفها، حتى إذا اطمأن إلى أنها صارت كالقنبلة قذف بها في حلقه، فما استقرت بإذن الله إلا في معدته، لا تقف في الفم ولا تمسها الأسنان!

وطفق أصحابنا ينظرون إليهم ويَعْجَبون، ثم أقبلوا يأكلون كما يأكلون، ولبثت منتظراً أقول لنفسي (وأنا أحاورها لأقنعها): من أين تأكلين إذا لم تجاري وتماشي وتستعدي لقبول كل ما تأتي به الحال؟ وإني لَفي تفكيري إذ حانت مني التفاتة، فوجدت القصعة قد تكشفت والخروف المسكين قد تناثر لحمه وبدت عظامه... فمددت يدي آكل كما يأكلون، وقد علمت أن شر الطعام خير من الجوع، والرز يتفلت من بين أصابعي والسمن

يملأ كفي، فإذا رفعتها إلى فمي نقط من مرفقي! ولم يكفِ القومَ ما كانوا قد وضعوا من السمن، بل عمدوا إلى كؤوس يحملونها فملؤوها وصبّوا ذلك أمامنا، حتى ما نستطيع من كثرة الدهن أن نأكل. ولم يكن الرز ليستدير في يدي استدارته في أيديهم، بل كان يدخل بين أصابعي حتى أُضطَر إلى إدخالها جميعاً في فمي. وغُسل وجهي كله بالسمن!

وانقضى الطعام، ولا تسألني: أشبعتُ أم لم أشبع، كيلا يطول سؤالك كما طال في هذه الرحلة عطشي وجوعي!

ثم جاؤونا بعد الطعام ونحن في مجالسنا بطَست من النحاس[١] عليه مِصفاة فوقها قطعة صابون وإبريق له رقبة طويلة ملتوية، آخذ الصابون فأغسل يدي فوق الطست والخادم يصبّ عليّ ثم يقدّم لي المِنشفة، على نحو ما كانت عادتنا في الشام قبل عشرين سنة. ولطالما صببت على أيدي الضيوف بأمر من أبي، وقد بطَلَت هذه العادة حين اتخذنا المغاسل في البيوت.

* * *

ثم خرجنا نجول في البلد (وقد علمتم أيّ شيء هذا البلد) فاستقريناه كله في ساعة، ثم دخلنا المسجد فرأيناه داني السقف قائماً على عَمَد دِقاق من جذوع النخل، جدرانه من الطين وأرضه مفروشة بالرمل، لا بساط ولا سَجّادة ولا حصير. فسألنا متعجبين، فعجبوا من عجبنا وأنكروا سؤالنا، وكأنهم استخفّونا

---

(١) أو طشت، كلاهما صحيح.

واستجهلونا، لأن من المقرر عندهم -كما علمنا بعدُ- أن هذه هي سنة السلف، وعليها مساجد نجد كلها اليوم!

وأنا رجل سلفي، ولكني لست ظاهرياً من المتمسكين بحرفية النصوص ولا ممن يأخذها بلا فكر. وأنا أفهم أن المسجد في الإسلام يُستحَبّ فيه الخلوّ من الزخارف التي تشغل عن الصلاة وتُطلَب فيه البساطة، ولكن البساطة مَرَدُّها إلى العرف وليس مدارها على الرمل والطين. والذي أفهمه أن فرش المسجد بالبسط النظاف وتحوير جدرانه أو دهنها بلون واحد، واتخاذ مكان فيه للأحذية حتى لا توضع حيث توضع الجباه، ومدافئ للشتاء إذا كان البلد بارداً ومراوح كهربائية في البلد الحار، وإقامة مكبر للصوت في مثل مسجد دمشق الذي يجتمع فيه اليوم لصلاة الجمعة أكثر من عشرين ألف مصلٍّ... كل هذا لا ينافي سنّة البساطة، وإن لم يفعله السلف للجهل به أو لعدم الحاجة إليه.

إن مصيبتنا -نحن المسلمين- في هذه الأيام أننا لا نعرف التوسط ولا الاعتدال، فمِنّا من ينطلق وراء عقله وحده لا يتقيد بوحي ولا كتاب، ومنا من يدع العقل والكتاب والسنة ليفكر بعقول من مضى من فقهاء القرن التاسع والعاشر، أو يأخذ من الكتاب والسنة، ولكنه يفهم بالحروف والألفاظ ويدع ما وراءها من المجاز والإشارة والحكمة والمصلحة.

* * *

عدنا إلى الدار التي منحونا مفتاحها، نتحدث ونسكت وننام ونفيق، ونقرأ حتى نَمَلّ ونمل فنعود إلى القراءة، حتى تصرَّم

النهار ونحن نظنه -من ثقله- شهراً.

وقد عرضت مرة -في بعض مقالاتي- إلى تحليل الحس بالحياة، فكان من رأيي أن الحياة أصعب شيء على الإنسان وأنه لا يستطيع أن يحملها، فهو يقطعها أبداً بحديث أو مطالعة أو عمل أو ما هو من ذلك بسبيل، فإذا خلت حياته من شيء يشغلها عادت هماً وحملاً ثقيلاً، وكذلك كانت حياتنا ذلك اليوم في قريات الملح.

وكنا قد سألنا الأمير دليلاً وأقمنا ننتظره حتى جاء، وإذا هو سيد من سادات «الشرارات» عُمَّار تلك الديرة والعشيرة صاحبة النفوذ فيها، اسمه «صْلَبي»، ولي في صفته كلام في أول قصة «أعرابي في حمام»[1] ما زدت فيه على الحقيقة، وإن كنت قد أقمت القصة على الخيال، فليرجع إليه من شاء ثَمّة.

ولقد أبدلنا الله بدرهمنا ديناراً حين صرف عنا الحاج غراباً الجاهل الجامد الحضري الثقيل، وجاءنا بهذا الأعرابي الفكه الظريف الذي أخذنا منه فوائد كثيرة ولمسنا في صحبته السلائق العربية: الذكاء والوفاء والإباء والصبر والإيثار، والمنطق البليغ والذاكرة القوية والجواب الحاضر. وأشهد لقد أحسن إلينا أمير القريات حين اختاره لنا، فلما حضر تجددت عزائمنا، فأعددنا ثقلنا وذهبنا نودع الأمير ونستأنف السفر.

وكان أهل البلد مجتمعين حول الدار التي نزلناها، وكان

---

(١) وهي في كتابي «صور وخواطر».

مجيئنا من الحوادث الكبرى في البلد. فمشينا بينهم، ودخلنا الحصن، فوجدنا الأمير قد أعد لنا مجلساً في رحبته يشرف على الفضاء، ودعانا إلى المبيت وألحف علينا وذهب يلتمس إلى إقناعنا الطرق، ونحن نعتذر ونتملص. لا أدري: أكان ذلك حياء من الأمير أن نطيل المكث في ضيافته، أم كراهية البقاء في هذه البليدة الساكنة سكون المقبرة الخالية من كل شيء يشغل أو يسلي، أم حماقة وطيشاً؟ ولعل ذلك هو الأقرب.

فلما يئس منا عرض علينا العشاء، فأبينا واجتزأنا بالشاهي نشربه إذ لم يكن منه بُدّ. وأخرجنا مما كان معنا حلوى من حَلْوَيات دمشق التي ملأت شهرتها الآفاق وعجَزت عن صنع مثلها أيدي الطهاة، فعرضنا منها على الأمير، فطعمها فأعجبته، وقال لنا أنه ما ذاق مثلها، وخيرٌ له ألّا يذوقها فيعوّده مذاقها الترف والنعيم ويسلبه روح الصحراء.

وانتهى المجلس مع الغروب فقمنا إلى الصلاة، ثم استقبلنا البادية القاحلة حيث لا نجد -حاشا تبوك والعُلا- داراً مأهولة ولا منزلاً معموراً، لا نجد إلا الرمال والصخور والشمس الملتهبة والفضاء الأرحب، حتى نصل بمشيئة الله إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم.

* * *

سرنا، فما جاوزنا غير ساعة حتى أظلم الليل وتوعرت الأرض وتعذر المسير، فأمرَنا الدليل بالنزول، فنزلنا. وجعلنا من عادتنا بعد ذلك ألّا نسير إلا نهاراً، وإن اضطررنا إلى مشي الليل

اخترنا الإدلاج من آخره على السُّرَى من أوله.

كان نزولنا في أرض رخوة ما ألقينا لها بالاً، فلما نصبنا الخيمة وبسطنا البسط وقعدنا إذا بها تعصر ماء، وإذا هي «مَمْلَحة»، سبخة من تلك السباخ التي يُستخرَج منها الملح! فتفرقنا وأبعدنا رجاء أن نصيب أرضاً خيراً منها، فما وجدنا، فاسترجعنا وندمنا على ترك البلد والسفر ليلاً والإعراض عن دعوة الأمير. وأمضينا الليل على شر حال، منا من نام وسط الوحل (وما السبخة إلا وحل) فأصبح يشكو الرَّثْيَة (الروماتيزم) أو يحس الأذى في ظهره، ومنا من لبث الليل كله في السيارة لا يستطيع أن يتحرك أو يمد رجله، ولقينا من الشدة ما ذكرنا معه بالخير ليلة أم الجمال!

رُبَّ «ليل» بكيتُ منه فلمّا صرت في غيره بكيت عليه[1]

* * *

(١) في «الذكريات» (٦٧/٣): "كانت الحماقة وحدها هي التي حملتنا على ترك ضيافة الأمير. ذلك أننا لم نسِر إلّا ساعة حتى أظلم الليل وتوعّرَت الأرض وتعذّر المسير، فقال لنا الدليل: قفوا، فوقفنا. فعرض علينا العودة إلى القريات لأن السير صعب والمبيت هنا أصعب، فأبينا، فنزل ودعا إلى النزول فنزلنا. قال: انظروا، فنظرنا فإذا الأرض تعصر ماء، وإذا هي سبخة من السباخ التي يُستخرج منها الملح، قال: ارجعوا فلا محطّ لكم هنا. فأبينا الرجوع، وتفرقنا وذهبنا يميناً وشمالاً نفتّش عن أرض خير منها نبيت فيها.
قال: أين تذهبون؟ كل هذه المنطقة مثل هذه البقعة، فارجعوا فناموا في البلد، فإذا أصبح الصباح سرتم في ضوء النهار. قلنا: لا. قال: =

= مَن أميركم؟ قلنا: كلنا أمير. فأنشد أبياتاً من الشعر النبطي ضحك منها الشيخ الرواف، لأن فيها -كما بدا- السخريّة منّا والهزء بنا. أمّا نحن فلم نضحك ولم نَبكِ لأننا ما فهمنا منها شيئاً، وربما كان الجهل نعمة على صاحبه أحياناً. وذهب هو والشيخ ياسين فقعدا في السيارة، وما أدري من أين هبط عليّ العقل تلك الليلة ففعلت فعلهما. وهذا جزاء الجاهل يركب رأسه ويعصي عقلاء الرجال" (مجاهد).

إلى أرض النبوة (٦)

من القُرَيّات إلى تَبوك

نشرت سنة ١٩٤٠*

تبدل عليّ كل شيء منذ فارقت القريات، فقد كنت -قبل أن أصل إليها- أفكر فيها وأراها غاية سفري، فصرت أمشي من بعدها لا أعرف لي غاية إلا تبوك. وأين نحن من تبوك حتى نفكر فيها؟ وكيف وبيننا وبينها أيام وليال؟ وكنت آسَفُ على فراق دمشق فصرت لا أفكر فيها إلا لماماً، وأحسست كأني منقطع حقاً عن العالم، فلا بشر إلا الرفقة التي أصحبها، وليس إلا الرمل والتلال والسراب مشهد نراه، وكان عملنا كله التدقيق في الأرض والانتباه إلى الدليل، لنتجنب الخوض في رملة أو المرور على شِعب أو الالتقاء بصخرة.

ولقد كنت أنظر تارة إلى هواننا على الصحراء وأُفاضل بين صغرنا وجلالها وفنائنا وبقائها، فأُحس الصَّغار وأشعر بالعجز، ثم أنظر فلا أرى فيها إلا إيّانا قد انفردنا بين شرقها والمغرب وانبسطت تحت أرجلنا وامتدت إلى الأفق البعيد، ونحن نغزوها

* في مجلة «الرسالة» العدد ٣٦٨ الصادر بتاريخ ١٩٤٠/٧/٢٢.

ونوغل فيها ونحمل حرها وبردها ولا نبالي شمسها ولا رملها، فتغمر نفسي القوة وأرفع رأسي فخاراً وأتيه زهواً.

وكنا نسير النهار كله سيراً بطيئاً، وما أكثر ما نقف نخرج سيارة غاصت في الرمل، أو نتحرى خير الطرق، أو ننظر في «الموصلة»[(١)] لنتبع أبداً الجنوب. وكنا أبداً على استعداد للوثوب من السيارة، فإذا مالت الشمس واصفرّت نزلنا فنصبنا خيمتنا وأكلنا وشربنا الشاي. وأنا أحلف أني -على ولعي بجمال الطبيعة وارتيادي الجبال والأودية، ووقوفي بالعيون والينابيع ومقامي على الشواطئ وحيال الشلالات- ما رأيت منظراً أجَلَّ ولا أجمل ولا أحفل بالعظمة والمتعة من أماسي الصحراء، حيث تضطجع على تلة من التلال، ثم تمد بصرك إلى الجهات الأربع فلا يحجزه حاجز ولا يقف في سبيله شيء، فترى الشمس وهي تغيب في الأفق الغربي، وظلال الليل وهو «يشرق» من الأفق الآخر، والنجوم وهنّ يطلعنَ في السماء الصافية، وتحس بلطف الليل ورقّة نسيمه كما أحسست بجلال النهار وحدّة شمسه، ثم تقوم مع الفجر قوياً نشيطاً، قد قبست من روح الصحراء روحاً جديداً لتستقبل الحياة بعزم جديد.

* * *

أشهد لقد نقّت ليالي الصحراء نفسي وصَفَّتْها، وعلمتها الشعور بجمال القبح وأنس الوحشة وأغاني الصمت، فعرفَتْ

---

(١) أو «البوصلة»، وهي لفظة مَجْمَعيّة، ومن أسمائها القديمة «بيت الإبرة» (مجاهد).

جمال الكون فأوصلها إلى معرفة كمال المكوِّن، كما صهرت أَنْهُرُ[1] الصحراء عزيمتي فألقت عن نفسي أوضار الخوف والجبن والضعف والتردد، وأشعرتها عظمة الطبيعة وقوتها فشعرت بعظمة الطابع.

ولم أكن أعدم النظر في الآفاق الواسعة ولا حُرمت التحديق في المناظر البعيدة، وإني لأبصر من شبّاك داري دمشقَ كلها وغوطتها والقرى المنثورة فيها، لا يغيب عني من ذلك شيء، فأرى فيها نهاية الجمال والرُّواء، ولكني لا أرى فيها طهر الصحراء ولا صفاءها. الصحراء مبسوطة مكشوفة كالرجل الصريح الشريف، ظاهرها كباطنها، لا تخفي سراً ولا تُبطن دون ما تظهر أمراً، ليست كالمدن والرياض، فالله وحده يعلم كم يتوارى خلال تلك الأشجار المزهرة الخضراء وتحت تلك السقوف المزخرفة والقباب والسطوح من رذائل ورزايا، وكم يسكنها من عوالم الكذب والحسد والنفاق.

إن الله حرَم الصحراء رُواء المدن وروعة السهول وفتنة الأنهار، ولكنه أعاضها عن ذلك ما هو أحلى وأسمى: جمال الصدق وبهاء الصراحة وسَنا الإخلاص. ليس في الصحراء مثل النيل ولا الفرات، تأوي إلى ضفافه وتبصر غروب الشمس في مائه وتمخر بالزورق عبابه، ما فيها إلا بِرَك وغُدران قليلة الماء غير دائمة ولا باقية، ولكنها -على ذلك- أجلّ من النيل وأجمل من الفرات لأنها في الصحراء!

---

(١) جمع نهار، ذكرها هنا مقابل ليالي الصحراء التي ذكرها آنفاً (مجاهد).

ولست أستطيع أن أترجم لكم عمّا لليالي الصحراء من معنى في نفسي، لأن لغة الألسنة لا تترجم عن القلوب. ويا ليتني أقدر أن أصف لكم تلك الكائنات الخفية التي تعيش في ليالي الصحراء فتخاطب القلوب بما لا تنقله الأقلام.

فاشهدوا أني أوثر الصحراء على كل مظاهر الطبيعة المطبوعة، إلا الأودية والجبال، فإن للجبال السامقة ذات الصخور الماثلة كالجبابرة لا تبلغ هامَها النسور ولا العِقبان ولا يسكنها إلا الثلج الأبيض، وإن للأودية العميقة التي لا يبلغ قراراتها إلا الشلال المتحدّر من أعالي الجبال، ولا تعيش فيها إلا السواقي الحائرة التي تهيم على وجهها ذاهلة لا تصحو إلا على جرجرة أمواج البحر الذي يفتح فاه لابتلاعها، وإن في التواء الوادي حتى يضيع الطريق فيه، وفي اختفاء الشِّعب الضيق خلال الصخور، وفي ظلال الساقية بين الحشائش والحجارة... إن في ذلك كله لَمعنىً من معاني المجهول لا ألقاه في الصحراء المكشوفة العارية. ولكن للصحراء سحرها وجمالها، وإني لأفضلها على السهول والبساتين.

* * *

سلكنا بعد القريّات مَهَامِهَ[1] وفلوات لا يُعرف لها أول ولا آخر، ولا أدري ولا يدري أحد ممن كان معنا أين موقعها على المصوَّر الجغرافي[2]. وكنا كلما زدنا إيغالاً في الصحراء زادت

(١) واحدها مَهْمَه، وهي الصحارى والمفازات المنقطعة المهلكة (مجاهد).
(٢) المصوَّر هو الخريطة، كذلك سمّاها جدي في كتاباته كلها (مجاهد).

بنا بعداً عن مظاهر الحياة، حتى أحسسنا كأنْ قد ودّعنا هذا العالم، وكأنّ دمشق وبغداد والقاهرة صور شعرية تخطر على البال ويدركها الخيال ولكن الواقع خلو منها. واسترحنا من هموم الاجتماع ومشاغل السياسة وأعباء الفكر واستسلمنا إلى المقادير، فغدا شعورنا بالحياة كشعور من يرى في نومه أنه سائر على وجه الريح أو مضطجع على صفحة الماء يحمله إلى حيث يشاء، فإما أن يغرق وإما أن يبلغ ما يريد، ولكنه على الحالتين راض قانع لا يشكو ولا يتبرم.

كان همنا الأكبر أن نتأمل الأرض أو ننظر في الفضاء لنأمن عثرة السيارة وننجو من الضلال. وما في البرية علامة يُهتدى بها إلا النجوم، فعرفت بذلك معنى قوله تعالى: ﴿وبالنَّجْمِ هُم يَهْتَدون﴾، وعرفت سر اعتماد العرب عليها في تحديد مواقع البلدان، حتى إن الشاعر المُحتضَر لَيَسرّه أن يرى سُهَيلاً لأنه يذكّره بلادَه وأرضه[1].

---

(١) الشاعر هو مالك بن الرَّيْب، في قصيدته التي رثى فيها نفسه، ومنها قوله:

أقولُ لأصحابي ارْفَعوني فإنّني يَـقَرُّ لِعَيني أنْ سُـهَيْلٌ بَدا لِـيَـا

وهي من عيون الشعر، وفي كتاب «رجال من التاريخ» مقالة جميلة عنه عنوانها «شاعر يرثي نفسه». وقد وُلد مالك في القصيم، في عنيزة، في خلافة عمر بن الخطاب، ثم التحق بجيش سعيد بن عثمان بن عفان في خراسان، ومات هناك.

و«سُهَيل» من ألمع نجوم السماء، بل هو ثاني ألمع نجوم السماء بعد الشِّعْرى اليمانية. وهو من نجوم الجنوب، تبلغ زاوية مَيَلانه (-٥٣) درجة تقريباً، لذلك لا يمكن أن يُرى أبداً فوق خط العرض =

وكنّا نمرّ على الأرض الصلبة المتماسكة فنحمَد الله ونسرع السير، ونمرّ على القاع[1]، ونمرّ على مَسيلٍ جَرَفَ الماءُ ترابَه وأبقى فيه حجارة صغاراً وكباراً تُعيق السياراتِ، وهو والشِّعب شر ما نمر عليه[2]، أو نصعد رابية أو تلّة يسهل صعود السيارة أولها ثم تعجِز عن بلوغ ظهرها فتقف دون تسلّقها... من شِدّة إلى شدّة، لا نعرف ما الذي يستقبلنا فيها.

وامتدت هذه المرحلة (من القريات إلى تبوك) أربعَ ليال لعلّ ليالي السجين المعذّب والعاشق المهجور أهون منها! مررنا فيها على مياه من مياه العرب، وهي آبار منتنة خبيثة الطعم واللون والرائحة، تضع المنديل بين فمك ومائها فتَلقَى عليه مثال الوحل أو ما هو أخبث، تسمى «غطى» و«العيساوية» و«الفجر»، ولم نصادف في هذه المرحلة ماء غير ذلك.

ولا تسألوني أين هذه المياه ولا تطلبوا إليّ تحديداً ولا يقيناً، فلست أعرف ذلك. إنما أعرف أننا تركنا «وادي سرحان» عن شمائلنا وسرنا قِبَل الجنوب حتى لاحت لنا على اليمين جبال عالية فأممناها، حتى إذا اقتربنا منها سرنا بحذائها على أرض ما رأينا أعجب منها، فهي أرض سوية متسعة مشينا في طرفها تسعين

= ٣٧ شمالاً. وكلما انحدرنا عن هذا الخط جنوباً صار أكثرَ ارتفاعاً في السماء (في ليالي الشتاء خاصة)، فهو يُرى بوضوح في جزيرة العرب، ولا سيما في وسطها وجنوبها، أما في خراسان المرتفعة إلى الشمال فقد احتاج الشاعر إلى رفع رأسه ليراه (مجاهد).

(١) وقد عرفتم ما هو.

(٢) الشعب في عرفهم أرض فيها رمل قليل هش ونبات صحراوي.

كيلاً، فيها حجارة سود دقاق مرصوفة رصفاً، كأنها أرض ميدان واسع في مدينة كبيرة فُرشت وثُبِّتَت بالمداحل، وهم يسمونها «بُسَيْطَة» بصيغة التصغير[1]. وسلوا أهل الجغرافيا يعرّفوكم موضعها على المصوَّر.

حتى وجدنا ثغرة في الجبل فدخلنا منها، فإذا نحن في واد ما رأيت في عمري مكاناً أوحش منه، وكلما أبعدنا فيه ازدادت وحشتنا. ولم يكن حولنا إلا الصخور والتلاع والقُلل الشامخة والوادي يتشعب بنا ويتفرع، ونحن منفردون بين ذلك كله. وطال الوادي حتى أمسى علينا المساء، فبتنا فيه، ولم ندر أننا ضالّون حتى أصبحنا غداة الغد، فخالط قلوبَنا الرعب من أن تكون خاتمة مطافنا أن نُدفن في بقعة لا يمر فيها إنسان، فنُحرم قبراً يستوقف السالكين ويستجديهم دعوة صالحة.

وكانت ساعة يأس أحيت في نفوسنا الماضي الذي ظننا أنّا نسيناه. فتلفتنا بالقلوب إلى دمشق، فإذا نحن منها على مسيرة سبع ليال بالسيارة، ولكنْ ما إليها من سبيل، فجعل كل منها يذكر أهله وأحبابه ويتخيل ماذا يحل بهم من بعده، ويتصور بردَى يجري زاخراً دَفّاعاً ونحن نكاد نموت عطشاً، لأن الماء الذي معنا قد

---

(١) يبدو أنها هي التي قصدها المتنبي بقوله:

بُسَيْطةُ مهلاً سُقيتِ القِطارا   تركتِ عيونَ عبيدي حَيارَى

وقد مَرَّ بها في طريقه من مصر إلى العراق لما وقعت النَّفرة بينه وبين كافور. وهي اليوم جنة خضراء بعدما جَرّوا إليها الماء وأقاموا فيها مشروعات زراعية عملاقة (مجاهد).

شَحَّ ونَفِدَ، إلا الأقل منه احتبسه الأقوياء منا! وبلغت المسألة مبلغ التنازع على الحياة، ولم يبقَ إلا الأثرة البشعة (وهذا ما عند الأكثرين) أو الإيثار البالغ (وهو ما عند القلّة النادرة من عباد الله الصالحين).

وحار الدليل وأظهر حَيرته حين لم يعد مكان لإخفائها. وكان يدع السيارة في قعر الوادي ويصعد قمم الصخور ينظر فلا يرى شيئاً، فيعود فيسير بنا على غير هدى، حتى نظر مرة، وكان ذلك في مساء اليوم الثاني لدخولنا وادي الموت هذا، فلمح جبلاً فهلل وكبر وقال: وصلنا، هذا شَرورَى!

وشرورى جبل قريب من تبوك ذكره ياقوت. فسرنا إلى الليل وشرورى مكانه عند الأفق لا يدنو ولا يَريم[1]، فنزلنا للمبيت. ثم عاودنا السير من الصباح فاختفى الجبل، وهبطنا إلى جوف الأرض حتى وصلنا إلى موضع رأينا فيه جبلاً عظيماً يسد الوادي، فتشاورنا فلم نجد بداً من صعوده بالسيارات وما تحمل من الأثقال، فجعلنا نصعد وندور ونحتال على الارتقاء، حتى إذا بلغنا القمة -بعد مخاوف ومتاعب لا ينفع معها وصف- نظرنا تحت أرجلنا، فإذا في الحضيض الأوهد البعيد فضاء فسيح كالبحر في وسطه سواد كأنه باخرة ماخرة، فقال الدليل مشيراً إليه: هذه تبوك.

* * *

(١) يقال: ما رام فلان مكانه وما رام منه: ما فارقه (مجاهد).

إلى أرض النبوّة (٧)

في تبوك

نشرت سنة ١٩٤٠*

أبصرنا الشمس وهي تغيب في آخر السهل ورأينا سواد الليل يمتد حيال الأفق الشرقي ونحن لا نزال في أعالي الجبال المطلة على تبوك والفضاء الأرحب الذي يحيط بها، فتنازَعْنا الرأي واختلفنا: أنَبيتُ مكاننا فنهبط تبوك مصبحين، أم نصبر على ما نجد من السغب واللغب ولا نبالي الليل وظلمته، ونتم طريقنا إليها فننام فيها نوم الآمن؟

وطال الخلاف، ولم يكن علينا أميرٌ منّا، مع أن ذلك من السنّةِ واليمنَ والبركةَ فيه. فقطعت سيارتنا كل قول حين أخذت طريقها هابطة، وتبعتها السيارات بلا جدال، وكان ضوء السيارات وهي فوق الجبل متوجهة إلى تبوك يبدو قوياً منظوراً، وكان أمير تبوك على علم بقدومنا، فبعث إلينا بسيارته تستقبلنا وتهدينا، فعرفناها بضوئها، فتبعناها حتى بلغت بنا السهل، ثم أوصلتنا

* في مجلة «الرسالة» العدد ٣٧٢ الصادر بتاريخ ١٩٤٠/٨/١٩.

البلد وقد كاد ينتصف الليل[1].

---

(١) في الذكريات (٣/ ٨٠) مزيد تفصيل لهذا الموقف، قال: "وقفت بكم على رأس جبل يُشرِف من بعيد على تبوك، ونحن قِلّة من الناس في جبل قَفر في برية منقطعة في ليل بهيم معرّضون لخطر الضياع أو الهلاك، فلو تركنا الاختلاف مرّة لتركناه ونحن هنا! ولكنّا اختلفنا: أنَبيت هنا حتى يطلع النهار فنمشي في نوره إلى تبوك، أم نصبر على التعب وننزل إليها فننام فيها آمنين؟ ولم يكن علينا أمير مع أن نبيّنا علمنا في مثل هذه السفرة (ولو كنا ثلاثة) أن ننصّب علينا أميراً منّا. وطال الجدال وعلت الأصوات، وكنت مع الشيخ ياسين والدليل في سيارة واحدة، فأمر السائق بأن يهبط.

ومن أين يهبط؟ لا أزال أرى المشهد بعين الخيال من وراء خمسين سنة كاملة: منحدَر مائل ميلاً شديداً ممتلئ بحجارة صغار. فتشهّدت واستغفرت الله واستودعته أهلي، وأغمضت عيني حتى لا أرى وأذني حتى لا أسمع صوت الحجارة تتدحرج من تحت دواليب السيارة كأنها سيل ماء يتدفق! كان الموت يتربّص بنا في كل دورة يدورها الدولاب وكل حصاة يمرّ عليها، وصرنا -من مَيل السيارة- كأننا راكعون في الصلاة لأننا انكفأنا على وجوهنا، ومضت مدة لست أدري كم هي بلغة الساعات، ولكنها بلغة المشاعر يوم عذاب.

وما صدقت أننا بلغنا السهل سالمين، وخرجنا ننفض غبار الموت عن ثيابنا، ورفعنا رؤوسنا فإذا أصحابنا لا يزالون فوق، تبدو سياراتهم كأنها -من صغرها- علب الكبريت. فجعلنا نناديهم لينزلوا وهم يصرخون بأنهم لا يستطيعون، فلا نحن نتبيّن كلامهم ولا هم يتبينون كلامنا، لأن صدى الصوت يختلط به فلا نفهم الكلام مِن تعاقُب الأصداء. فلجأنا إلى الإشارات بالمناديل ونحن واقفون أمام مصابيح السيارة لعلهم يُبصروننا، ومضت مدة، ثم رأينا السيارات تتعاقب هابطة، ما أبصرناها تماماً ولكن رأينا حركة أنوارها" (مجاهد).

وصلنا البلد على حال لم نكن نملك معها ملاحظة ولا نظراً، ولقد شغلنا ما نجد من الجوع والتعب عن أن نبصر المدينة أو نرى مسالكها، فما عرفت إلا الدار التي أنزلونا فيها. ولم تكن داراً كالتي عرفنا في القريات، بل هي بناء حضري واسع منظم مبني على طراز فني مقبول، ذو ردَهات وغرف وأبهاء. فأدخلونا بهواً فيه مفروشاً بالبسط والوسائد والمساند، واستقبلنا فيه الأمير السديري، وهو شاب مهذب على غاية من اللطف والنبل والرقة ودقة الملاحظة.

فلما استقر بنا المقام ووجدنا بعض الراحة أحببت أن أقوم فأجول في القصر، فلما خرجت من البهو عرض لي أحد العبيد (وهم كُثر في القصر) فقال لي: من هنا. فتبعته وأنا لا أدري إلى أين يسير بي، حتى انتهى إلى باب فأشار إليه. فدخلت، فإذا أنا في حمام ما ظننت أني ألقى مثله في دمشق! له ظاهر وباطن وفيه الماء البارد والحار والرشاش (الدوش) والمناشف معلقة والصابون مهيأ، فدَهِشت وفرحت فرحاً ما أفرح مثله لو أُعطيت مئة دينار (مع أني لم أرَها قط ولم تَحتَوِها يدي إلى الساعة التي أكتب فيها هذه الكلمة)!

فعدت فاستخرجت من حقيبتي ثوباً نظيفاً، ولم أرضَ لثيابي التي كانت عليّ إلا بيت النار. أحرقتها والله، ودخلت الحمام وأنا أنظر إلى الباب أخشى أن ينزل عليّ مَن يشاطرني هذه النعمة أو ينغصها علي فلا أهنأ بها. وأقبلت أصبّ على جسمي من الماء الحار فأحس له -بعد هذا التعب- بما تحس الأرض اليابسة هطل عليها المطر. حتى إذا انتهيت عدت إلى أصحابي بوجه متورد

وثياب نظيفة، فجُنَّ جنونهم عجباً ودهشة، ولكن وجود الأمير أمسك ألسنتهم عن السؤال. فلما جلست أفضيت إلى جاري بالأمر، فتسلل من مكانه إلى الحمام. وما زالوا يذهبون واحداً بعد واحد حتى اغتسلوا جميعاً. وكان إعداد الحمام أول ما شهدنا من لطف أمير المدينة السديري وتهذيبه.

فلما انتهَوا (وكان الهزيع الأخير من الليل) دُعينا إلى المائدة، وكان فيها الخروف المعهود برأسه، ولكن حوله ألواناً من الخُضَر كالفاصولياء والباذنجان والبندورة (الطماطم) موضوعة في أطباق صغار، وعلى المائدة الملاعق لمن شاء، فجلس الأمير وجلسنا وأكلنا أكل من لا يخشى البَشَم[(١)]!

ثم صلّينا الفجر ونمنا إلى قريب الظهر، فقمنا نرى البلد، فإذا الدار التي نزلناها مستشفى كبير كان العثمانيون قد أقاموه عندما مُدَّ الخط الحجازي، وأمامه رحبة واسعة جداً، وتقابله من آخر الرحبة المحطة العظيمة، وبينهما على يسار من يقف على باب المستشفى ويستقبل المحطة بساتين النخيل تتخللها البلدة، وهي ستون بيتاً فيها مسجد كمسجد القريات وفيها قصر الإمارة. والبساتين تُسقَى من عيون ثلاث بارك الله فيها إكراماً لنبيه صلى الله عليه وسلم، على ما هو مقرر في كتب المغازي.

هذه هي تبوك، ومن حولها الصحراء.

* * *

---

(١) البشم هو التُّخَمَة (كذا لفظها، بتحريك الخاء)، وهي الشِّبَع الزائد حتى ما يطيق المرءُ الطعامَ ولا يشتهيه (مجاهد).



محطة تبوك سنة ١٩٠٩

ذهبنا نزور الأمير في قصره الزيارة الرسمية، فدخلنا منزلاً صغيراً جدرانه من الطين لا يختلف عن منازل القرى الصغيرة من قرى الشام، فصَعِدنا درجاً ضيقاً ملتوياً إلى رَدْهة صغيرة تطل على أرض الدار، ولها درابزين من خشب عادي ليس فيه زخرفة ولم يَعْلُهُ صِبغ، ثم ولجنا غرفة ضيقة لم تكد تسعنا، في صدرها مكتب صغير وليس فيها إلا مقاعد من الخشب. وكان الأمير وراء مكتبه، فنهض لاستقبالنا بلطفه الذي وصفت.

وكنت قد أبصرت على الدرج وفي أرض الدار وفي الردهة العالية عدداً عديداً من العبيد، فعجبت من كثرتهم ولم أدرِ ما عملهم.

فلما قال الأمير بصوت منخفض: قهوة. سمعت العبد الذي يقوم على رأسه يقول بصوت أرفع: قهوة، فيقول الذي على الباب: قهوة، فيصرخ الذي في الردهة: قهوة، فينقلها الذي على

الدرج ثم الذين في أرض الدار حتى يبلغ الصوت صانع القهوة. وكانت تلك عادتهم ولكنا لم نعرفها، فما راعنا ونحن نسلم على الأمير ونتحدث إلا ستون قهوة، قهوة، هوه، هوه، وه، وه... تخرج متعاقبة متلاحقة كأنها طلقات مدفع رشاش، خرجت كلها في ثلاث وأربعين ثانية، فارتعبنا ولم نعرف ما الحكاية، وفعلَت المفاجأة بنا فعلها، فمِنّا من أسرع يطلب الباب يريد الفرار، ومنا من صرخ، ومنا من سقط على الأرض، ومنا من وضع يده على سلاحه! والأمير يضحك قد راقته هذه الدعابة.

وليس كثيراً أن نحمل في سبيل القهوة هذا الفزع، فإن للقهوة عند العرب اليوم من الشأن ما يقل معه كل تعب يُنال من أجلها، ولها عندهم قواعد وقوانين لا مَعدل عنها ولا ترخّص فيها. فمن قوانينها أن البن يُدَق بالهاوَن[1] دقاً حتى يسمعه الضِّيفان فيُهرَعوا إليها، ولا يجوز أن يُطحن طحناً لأن ذلك من اللؤم. وأنهم يتخذون لها أواني كثيرة، فيصبون القهوة من إناء إلى آخر ليصفّوها ويرققوها، ويسمون كل «دَلّة» من هذه «الدِّلال» باسم، فهذه العروسة وهذه الأم... ولقد رأيت عند أمير تبوك أكثر من عشر أَوَان (دِلال) كلها مملوءة، والساقي يحبها حباً شديداً ويراها في معدلة أولاده!

وهم يخلطونها بحَبّ الهيل، ويضعون قطعة من الليف في فم الدلة تقوم مقام المِصفاة، فإذا نَضِجت القهوة قام الساقي فأخذ الإناء باليسرى وقدم الفناجين باليمنى، ويرون تقديمها باليسرى

---

(١) الهاون من عامي الشام الفصيح.

-كما يفعل الشاميون- إهانة للضيف قد تجر إلى سفك الدم والعياذ بالله تعالى! فيأخذ الضيف الفنجان بيمينه فيشربه ويدفعه إليه، فلا يزال يصب فيه حتى يهزه الضيف ثلاث هزات علامة على أنه قد اكتفى. ولا يصبّون في كل مرة إلا رشفة واحدة لا تكاد تستر قعر الفنجان، وعندهم أن هذا من الإكرام، وإذا ملأ الساقي فنجان أحدهم كان ذلك احتقاراً له. ويبدأ الساقي ممّن على يمينه ثم يعطي من يليه، وإذا هو تخطى واحداً فقد أهانه إهانة بالغة لا يصبر عليها إذا كان شريفاً. وإذا اكتفى الضيف ولم يأخذ الفنجان بعد أن يصبه الساقي وجب على الساقي أن يشربه هو أو يريقه على الأرض، ولو كان على الأرض بساط قيّم أو سَجّاد ثمين، ولا يدفعه إلى الذي بعده!

هذا جانب من قوانين القهوة. وللقهوة عند العرب شأن كبير، فقد يستغني البدوي عن الطعام والماء ولكنه لا يستغني عن القهوة ولا يعدل بها شيئاً، وقد يميل عن الطريق مسيرة يوم ليشربها. وقد حدّثنا أستاذنا شكري الشربجي (وقد كان على رأس فرقة عسكرية من العرب أيام الملك حسين) أنه افتقد جنده في ساعة حرجة فلم يجدهم، فلما عادوا سألهم، فخبّروه بأنهم ذهبوا ليشربوا القهوة، فقال: في مثل هذه الساعة تهتمون بالقهوة؟ قالوا: والله يا الْبيك نتقهوى ولو كان في خشم الأسد!

وللعرب بالقهوة اهتمام عظيم، حتى إنهم -من اهتمامهم بها- نحتوا من اسمها فعلاً هو «تَقَهْوى يَتَقَهوى تَقَهْوياً»، وتوسعوا في معنى هذا الفعل حتى شمل الشاهي والطعام، فهم يقولون: "اقْلُط اتْقَهوى" أي تفضل اشرب القهوة أو اشرب الشاهي أو كُلْ،

وقد يقولون: "اتقهوى شاهي".

هذه هي القهوة، وهي لذيذة نافعة لا يقوم مقامها شيء في إراحة الجسم بعد التعب الشديد والسير في الصحراء تحت الشمس المحرقة، وقد جربنا ذلك بأنفسنا. أما الشاهي (أعني النجدي منه) فسُمٌّ ناقع يشرب فيه شاربه المرض والحمى، ذلك أنهم يأخذون الشاي الأحمر فيغلونه على النار ثم يغلونه حتى يصير أسود مثل دم الغزال (على حد تعبيرهم) ويشربون منه كؤوساً كثيرة. ولو أنك كنت في ضيافة أمير أو شيخ من مشايخ البدو لم تمرّ عليك دقيقتان لا يقدَّم لك فيهما قهوة أو شاهي، ولا تفتأ تسمع الأمير أو الشيخ يصفق وينادي: قهوة، شاهي، شاهي، قهوة... فتصور مجلساً على هذا الحال يمتد ساعتين أو ثلاثاً.

تلك هي القهوة وذلك مبلغ غرامهم بها.

❊ ❊ ❊

إلى أرض النبوّة (٧)

من تبوك إلى المدينة

نشرت سنة ١٩٤٠*

كان أجدادنا الشاميون إذا دخلوا تبوك أخذوا -كما يزعم ابن بطوطة- أسلحتهم وجرَّدوا سيوفهم فضربوا بها النخيل، يقولون: هكذا دخلها رسول الله ﷺ! هؤلاء فهموا السنّة كَفَهْم الشيخ الدمشقي الذي خرج مرة من باب الجامع يمشي في الأسواق حافياً ومن ورائه تلامذته يحملون نعالهم بأيديهم نشراً للسنّة! أمّا نحن فلم نكن قد تعلمنا هذه البطولة «الدنكشوتية»، فدخلنا تبوك كما يدخل عامة إخواننا من بني آدم بلداً من البلدان، فلم نضرب النخل البريء بسيوفنا وإنما ضربنا بأكفّنا في قِصاع الرز واللحم التي كان يكرمنا بها أمير البلد.

ولبثنا في تبوك يومين، أَنِسْنا في اليوم الأول واطمأنّنا وتفيأنا

* سقطت هذه الحلقة من كل الطبعات السابقة ولم تظهر في أي كتاب من كتب علي الطنطاوي من قبل، وقد عثرت عليها في «الرسالة»، فإني حَرَصت على مراجعة كل أعدادها لسنة ١٩٣٥ وسنة ١٩٤٠، وهما السنتان اللتان نشر فيهما جدي رحمه الله أخبار الرحلة. وقد نُشرت هذه المقالة في العدد ٣٧٤ الصادر يوم ١٩٤٠/٩/٢ (مجاهد).

ظلال الأمن والدعة بعدما صَلِينا بشمس الصحراء أياماً اكتوينا فيها بنار الجوع والعطش والخوف والتعب، فأحببنا تبوك، وتمنينا لو أقمنا فيها الدهر فما فارقناها وعشنا في كنف أميرها المهذب الكريم العمرَ كله، ننعم بيُمن نقيبته وخصب مائدته.

ولكن لم يأتِ اليوم الثاني حتى مللناها، فقد جُلنا بأنحاء البلدة، ورأينا نخيلها الذي كان يقطعه أجدادنا الأبطال بأسيافهم، فلم يُبقوا منه إلا بمقدار بستان صغير من بساتين البصرة! وزرنا قصر الأمير المَبنيّ بالآجُرّ المَطليّ بالطين، ودخلنا المسجد الذي فُرش بالرمل حتى ليغوص فيه أنف الساجد ويدخل في خياشيمه! ووقفنا على المحطة الخالية الخاوية، فبكينا فيها «السكة» التي أنشأناها بأموالنا ثم خربناها بأيدينا وأيدي القوم الذين أثاروها بيننا جاهلية جهلاء، فكان لهم ثمارها وكان أن حرقَتنا نارها... رأينا ذلك كله، فما ثَواؤنا في تبوك وعلامَ نقيم فيها؟ ألنأكل على مائدة الأمير ونثقل عليه؟

وتهيأنا للرحيل لنقطع النصف الثاني من الطريق، وهو النصف الصعب المتعب الذي وصف ابنُ بطوطة ومَن كان قبله ومَن جاء بعده صعوبتَه وهَوله. وسرنا متوكلين على الله.

قال ابن بطوطة: "يرحل الركب من تبوك ويَجِدّون السير ليلاً ونهاراً خوفاً من هذه البرّية، وفي وسطها الوادي الأخيضر، كأنه وادي جهنم أعاذنا الله منها. وأصاب الحجاجَ به في بعض السنين مشقةٌ بسبب ريح السَّموم التي تهب، فانتشفت المياه وانتهت شَربة الماء إلى ألف دينار ومات مشتريها وبائعها، وكُتب ذلك

في صخر الوادي. ومن هناك ينزلون بِركة المعظَّم، وهي ضخمة، نسبتها إلى الملك المعظم من أولاد أيوب، ويجتمع بها ماء المطر في بعض السنين، وربما جف في بعضها".

أما نحن فلم نخشَ تلك البرية خشيةَ البطّوطي، بل وجدناها هيّنة بالنسبة لما مَرَّ علينا قبل تبوك، ولم نعرف شدتها وقسوتها حتى ضربنا فيها أياماً فأدركنا أن ابن بطوطة كان صادقاً!

ولقد كنا خرجنا من دمشق بشيء عظيم من الزاد وبمئتي صفيحة من البنزين، فنَفِد كله قبل تبوك، فجدّدناه فيها وحملنا ما استطعنا حمله من الماء، وصحبنا دليلاً جديداً اسمه محمد الأعرج، طويلاً مخيفاً شيطاناً من شياطين البادية، خَبَّرونا أن له عند الإمام عبد العزيز منزلة دانية، وودعنا الدليل الأول، صلبي الذي حدثتكم عنه من قبل.

❊ ❊ ❊



قلعة وبركة المعظم سنة ١٩٠٩

وخرجنا من تبوك، فمشينا سبعين كيلاً لم نجد فيها ما نتحدث عنه أو نشكو منه، فقد كانت الأرض متماسكة شديدة درجَت عليها السيارة بسهولة، وكل ما وجدناه فيها من الصعاب ثلاثة شِعاب رملية لا يتجاوز عرض الواحد منها كيلاً ونصف كيل، ورياح شديدة خبّرنا الدليل أنها لا تكاد تنقطع من ذلك المكان.

ثم بلغنا أوائل الجبال فدخلنا وادياً متسعاً فيه تلال من الرمال، فلم نسر فيه إلا قليلاً حتى كثرت فيه الصخور وازداد ارتفاع الجبال من حولنا، وكانت الصخور هَرِمة بالية مؤلفة من صحائف رقيقة كصحائف الكتاب تتفتت من مَسِّ الأيدي، والوادي ممتلئ بفُتاتها. ثم ظهرت في الوادي تلال من الرمل الأحمر الناعم المتموج لها منظر أخّاذ، واستمرت هذه المشاهد من حولنا مسيرة ثلاثين كيلاً. ثم عرضت لنا جبال فيها الصخر الأسود تخالطه بقع حمراء، وصلنا بعدها إلى أرض مستوية تشبه «بُسَيطة» التي مررنا عليها في طريقنا إلى تبوك. ثم أمسى علينا المساء في بقعة اسمها «ساح الغزوان»، فبتنا فيها، وبينها وبين تبوك ١٤٤ كيلاً سجلها راقم السيارة (الكيلومتراج). ومعنى «ساح الغزوان» عندهم ميدان المعركة.

نزلنا نشهد الشمس وهي تجر ذيلها الذهبي على الوهاد والنجاد ثم تتوارى وراء الأفق البعيد، فجلسنا نمتع الطرف بمحاسن المساء في الصحراء ونريح النفس إلى سكونها وصفائها، حتى إذا لَفَّ الكونَ الظلامُ أوقدنا النار وأشعلنا المصابيح وفرشنا الفرش.

وكنا في أول الرحلة ننصب سرادقاً نبيت فيه، فصرنا ننام تحت السماء، بين أحدنا والآخر أكثر من عشرين متراً، لا نخاف وحشاً ولا نخشى لصاً، فقد أَمَّنَ الله الجزيرة بابن سعود حتى صار أمنُها حديثَ الناس وانعقد عليه إجماع مَن أَمَّ الحجاز أو جال في بواديها. ولقد ترك أصحابنا التجار (وقد كانوا يسيرون على إثرنا، بيننا وبينهم مسيرة ثلاثة أيام) سيارة مترعة بالثياب والطعام وكل ما يرغب فيه البدوي ويسيل لتصوره لعابه، ثم رجعوا إليها بعد شهر فما وجدوا شعرة منها أزيحت من مكانها على كثرة مَن مَرَّ بها من أعراب!

وما أذكر أننا خفنا أو ارتعنا إلا ليلة واحدة نزلنا فيها على طرف واد، وكانت ليلة حالكة السواد، فما شعرت إلا الدليل محمد الأعرج يجرّ بيدي، فتبعته حتى ابتعدنا عن الرفقة، فأشار إلى جهة رأيت فيها كمثل المصباحين، فارتعت ودنوت منه فقلت: ما هذا؟ فقال غيرَ مكترث ولا مبال: هذا نَمِر! فنظرت إليه فإذا هو ساكن الطائر هادئ الجوارح كأنه حين يقول "نمر" يقول "كلب" أو "قط"!

ولم أكن رأيت نمراً من قبل إلّا في حديقة الجيزة بالقاهرة، فخفت والله وشعرت من الفزع كأن العقال طار عن رأسي ورجع. وما أنا بالجبان ولا الرعديد، ولقد عرَضَت لي الضَّبع[1] مرة فما رأيت فيها كبير شيء، أما نمر في البادية في الليل لا يُرى منه إلا

(١) تُلفَظ كلمة الضبع بضم الباء أو بسكونها، كلاهما فصيح، وهي كلمة مؤنثة (مجاهد).

عينان كأنهما جمرتان فلا، إن هذا مخيف![1]

أما الأعرج فما كان منه إلا أن مَدَّ بندقيته وأطلق رصاصها على عيني النمر، فأخطأهما وانتقل ضوءهما المرعب إلى جهة أخرى، فعاد فأطلق ناره فأخطأه، وابتعد النمر. فالتفَتَ الأعرج ليعود، فقلت: ويلك! ماذا تصنع؟ قال: وماذا تريد أن أصنع؟ لقد ذهب. قلت: أفلا أوقظ الركب؟ قال: لا، بل نَمْ أنت أيضاً. وتركني الخبيث وذهب فنام وأنا أسمع غطيطه. ومرَّتْ عليّ ليلةٌ أين منها ليلة النابغة؟[2] كاد يقتلني النعاس، وكلما غفوت توهمت

---

(١) فائدة في السياق: الحيَوان الذي يتحدث عنه المؤلف هنا هو النَّمِر المبقَّع، وهو ليس السِّنَّور المخطط الذي يدعوه العامة نمراً. ذاك اسمه "البَبْر" (بفتح الباء الأولى وسكون الثانية، والجمع بُبُور) وهو أضخم السِّنَّوريات وأقواها. وليست الجزيرة العربية من مَواطنه المألوفة، بل هي تمتد عبر أراضي آسيا الوسطى والجنوبية، بخلاف النمر الذي عُرف في الجزيرة العربية وبلاد الشام منذ قرون طويلة.
وقد سُمِّي النمر نمراً بسبب البقع التي تكسو جسمه (وهي بقع سوداء كبيرة تتوسطها بقع صغيرة برتقالية داكنة)، فالنُّمرة في الأصل هي البقعة من أي لون كانت؛ في القاموس: "النَّمِر سَبُع معروف، سُمِّي للنُّمَر التي فيه". وإن شئت فقل "نِمْر" كما تلفظه العامة، فهو صحيح، واللغة الأولى أعلى. أما السِّنَّور المنقَّط الذي كان شائعاً في جبال الشام قديماً وانقرض الآن فهو الفهد (مجاهد).

(٢) النابغة الذبياني، والأبيات من بائيَّته التي يقول فيها:

كِليني لِهَمٍّ يا أُمَيمةُ ناصِبِ ... وليلٍ أُقاسيه بطيءِ الكواكبِ
تَطاولَ حتى قلت: ليس بمُنقَضٍ ... وليس الذي يَرعَى النجومَ بآيِبِ

(مجاهد).

النمر يحملني بين أسنانه كما تحمل الهرة الفأرة، فأفيق مضطرباً أنظر حواليّ وأنا أتعوذ، حتى طلع الفجر وما أدري كيف طلع!

هذه هي ليلة الخوف عندي، فمَن سخر من خوفي فأنا أسأل الله أن يريه نمراً في المنام لا في اليقظة، لينظر ماذا يكون من أمره.

* * *

قمنا -على عادتنا- في الغَلَس فشهدنا طلوع الفجر ونحن نعد الطعام ونستعد للرحيل. ولقد كنا نسمع بالفجر سماعاً ونقرأ صفته في الكتب ونعلم أن في الدنيا فجراً كاذباً وفجراً صادقاً، ولكنا لم نره عِياناً ونعرف صادقَه وكاذِبَه إلا في الصحراء.

صلينا وتركنا «ساح الغزوان» قبل أن تطل الشمس على الدنيا متوجهين إلى الجنوب، فلم نَسِرْ إلا قليلاً حتى كثرت من حولنا الهضاب، فكنا نوالي الصعود والهبوط، واستمر ذلك نحو تسعة أكيال. ثم انقطعت الهضاب وابتدأت القُور[١]، وهي كالجبال الصغيرة ولكنها مؤلفة من الصخر الأسود، وربما كانت القارَة صخرة

---

(١) جمع قارة، وهي الجُبَيل (الجبل الصغير) المنقطع عن الجبال. وفي الصورة قارة قرب الحِجْر (مجاهد).



واحدة عظيمة أشبه شيء بالمخروط الناقص عند أهل الهندسة.

وكانت تلك القُور صخوراً مطبقة هرمة، فكنا ندور بالسيارات فيما بينها ونمشي خلالها. وامتدت بنا ستة أكيال، ثم انتهينا إلى سهل مبسوط كالكفّ سرنا فيه كيلين، ثم عادت الهضاب والقُور تتخللها أراضٍ منبسطة، وامتد بنا ذلك عشرة أكيال، ثم عرضت لنا حجارة كبيرة ملأت الأرض ولقيت منها السيارات بلاء وشدة. ثم أخذنا بالصعود، نرتقي سفوحاً وعرة صعبة، إلى أن غبنا بين جبلين عاليين صخرهما من ذلك الصخر المطبَّق الهرم الذي يتفتت، فسرنا خمسة أكيال فانتهينا إلى بقعة قال الدليل إنها ملتقى طريق الجوف (أي دُومة الجندل) بطريق المدينة.

خلَّفنا طريقَ الدومة عن شِمالنا وواليْنا الصعود خمسة وثلاثين كيلاً أخرى، التقينا بعدها بالخط الحديدي الحجازي، ووقفنا قبالة محطة خشم صنعاء، وهي قائمة وحدها في البادية وقد نُزعت منها أبوابها وشبابيكها ولم يبقَ منها إلا جدرانها، مائلة تستبكي من كان له قلب وكان في قلبه إيمان. وماذا لَعمري يجدي البكاء؟

* * *

محطة خشم صنعاء



في طريق المدينة

نشرت سنة ١٩٣٥*

لفح وجهَه نسيمُ الهواء البارد، فَهَمَّ بأن يقوم إلى النافذة فيغلقها ويعود إلى سريره، ثم تخاذل واسترخى ولبث مستلقياً، فسمع أصواتاً غريبة خُيِّل إليه أنها أصوات الوحوش أو أحاديث الجنّ، فجمد من الخوف وحدّق فيما حوله، فرأى كأنما هو نائم

* في مجلة «الرسالة» العدد ٩٧ الصادر بتاريخ ١٩٣٥/٥/١٣، ولم يكن في رأسها عنوان «إلى أرض النبوة» كما هو في المقالات التي سبقتها في الكتاب (وقد نُشرَت كلها بعد هذه المقالة بخمس سنين) فأضفتها ورقّمتها هي وما بعدها بالترقيم المناسب.
ولمّا نشرها جدي في «الرسالة» كتب لها مقدمة قال فيها: "كتبت هذه الكلمة في خَوْر حمار، وهو الممر الوحيد في جبال المزيلقة، لا بد للمسافر من دمشق إلى المدينة من اجتيازه، بتنا فيه ليلة الجمعة لثمان مَضَينَ من المحرّم ١٣٥٤ (١٢ نَيسان ١٩٣٥) مع الوفد الذي خرج من دمشق يوم الأحد لأربع بقين من ذي الحجة ١٣٥٣ لفتح طريق للسيارات بين دمشق والمدينة، يرأسه الشيخ ياسين الروّاف المعتمد السابق للحكومة الحجازية في الشام، وهو صاحب هذا المشروع وإليه يعود الفضل فيه". ولم تظهر هذه المقدمة في طبعات الكتاب السابقة، إلا أنني وجدتها مفيدة فأثبتُّها في هذه الحاشية (مجاهد).

في أرض الشارع وعلى جانبيه أبنية فخمة عالية مربّعة ومستديرة، والوحوش تطل عليه من أعاليها تصرخ صراخاً مرعباً. فاستعاذ بالله من هذا الحلم، وتقلّب في فراشه وألقى بيده على طرف السرير، فأحس كأنْ قد وخزته إبرة أو كأنّ حية لدغته! فقفز مذعوراً، وإذا هي الحقيقة لا الحلُم، وإذا حيالَ يدِهِ نبتٌ من نبت الصحراء قصير شائك يقال له «القَتاد»، كانت تُضرَب به الأمثال. وإذا هو في البادية في «خَوْر حمار»[1]، وإذا الرحلة تمتد به ثلاثة عشر يوماً، وهو لا يزال دون «العُلا»، ولا يزال بينه وبين المدينة جبال وصحارى تسير فيها السيارة أياماً وليالي.

فجلس يذكر ما رأى في هذه الرحلة من ألوان العذاب وأشكال الخوف، وما مرّ به من مشاقّ وصعاب أبصر فيها الموت عياناً ويئس من النجاة. وذكر أنهم طالما تمنّوا الموت لِمَا وجدوا من العناء، وأنهم طالما سلكوا من شِعاب تقوم فيها السيارة وتقعد، ولا تنجو من شدة إلّا إلى أشدّ منها، وربما ساروا في رمال كانت تغوص فيها السيارة إلى المِرقاة[2]، فيدفعونها دفعاً ويمدّون لها الخشب على الأرض مَدّاً، وطالما صَعِدوا بها جبالاً يُعجز صعودُها الماشي على رجليه، فكانوا يَجُرّون السيارةَ بالحبال، وطالما هبطوا أودية لا يهبطها ممثلو الروايات الأميركية[3]! وأنهم

---

(١) الخور كل أرض منخفضة بين مرتَفَعين (مجاهد).

(٢) هي الدرجة التي تكون على جانب السيارة بحذاء أسفل الباب ليرتقي عليها الركاب، وتظهر في صورة السيارة في الصفحة ٢٤ (مجاهد).

(٣) يقصد الأفلام. وكان يسمّي الفِلْم الروائي رواية، وهي تسمية مُلبِسة، فليته سمّاه فِلْماً فحسب (مجاهد).

ساروا ألفاً وستمئة كيلٍ في أرض لم تطأها قط سيّارة منذ خلق الله الدنيا (إلا سيارة صالح بن عبد الواحد، أمير القريات، التي سار بها من القريات إلى المدينة). وأنهم سلكوا بين تبوك والعُلا مسلكاً في جبال المُطّلع، ساروا فيه بالسيارة من ضَحْوة اليوم إلى عصر الغد فلم يقطعوا من الطريق خمسة عشر كيلاً، وكانوا يدورون فيه كما دار بنو إسرائيل في التيه، يمشون ما يمشون ثم يعودون من حيث جاؤوا.

* * *

وجبال المطلع جبال عظيمة غريبة الشكل، ليست سلاسل، ولكنها آكام عالية وجبال منفردة سامقة الذرى محدّدة القمم، تشبه ذراها رؤوس المآذن وهامَ البروج. لها منظر جميل فتّان، فيه هيبة وعليه جلال، وهي منثورة نثراً، تفصل ما بينها مضايق وطرق صخرية ملتوية متشابهة حار فيها الدليل.



وكان معهم دليل حاذق، شيطان من شياطين العرب يقال له محمد الأعرج، من مشايخ بني عطية، وهو أعرج طويل له عينا ذئب، حاد الذكاء ضيّق الصدر مخيف، كانوا يتهيّبون سؤاله، فداروا في تلك المسالك حتى نَفِد منهم الصبر وأدركهم الإياس، فصعد الدليل قُنَّة أكَمة[1]، فنظر يميناً ونظر شِمالاً ثم صاح: "لا إله إلا الله". وتلك عادتهم، إذا أبصروا وادياً أو رأوا سهلاً أو طلع عليهم جبل تشهدوا. ثم نزل يظلع، وقادهم في طريق ملتوية حتى جاوز بهم المطلع وأشرف بهم على السهل الفسيح.

وكان عليهم أن يهبطوا السهل ليخترقوا جبل الأقرع، وهو قبالتهم، فنظروا فلم يجدوا مَهبِطاً، وكانوا على رأس جدار قائم من الصخر ارتفاعه أكثر من ستين متراً والنزول منه خطر محقق، ولكن الرجوع موت أكيد، فإذا هم رجعوا وضلّوا نفد ما معهم من ماء فهلكوا -لا محالةَ- عطشاً. فاستخاروا الله، ونزلوا نزولاً ما نظنّ سيارة نزلته منذ كانت السيارات؛ تتدحرج من تحتهم الحجارة إلى قرارة المنحدر فيكون لها قرقعة مخيفة، والسيارة كأنما هي من الانحدار قائمة على مُقَدَّمِها، والركاب شاخصة أبصارهم، ينظرون عن أيمانهم وعن شمائلهم لا يدرون من أين يأتيهم الموت، وقد تابوا واستغفروا واستودعوا الله أولادهم وأموالهم.

مرَّت عليهم ربعُ ساعة أهون منها رِباط سنة في جبهة الحرب، ثم وفق الله فبلغوا السهل وهم يَشهدون وينتبهون كمن صحا من

---

(١) رأس الأكَمة، وقُنّة كل شيء أعلاه (مجاهد).

حلم مروّع!

وكانت الشمس قد غابت والليل قد ارتفع، فنزلوا للمبيت يستعدّون لوادي الأقرع، وكانوا -على رغم ما لقوا- يسمعون من الدليل أنه هيّن بجنب خَور حمار، وأن العناء والبلاء إنما هما في خور حمار، فكانوا يرون خور الحمار هذا في أحلامهم ويبصرونه فاتحاً فاه لابتلاعهم، ويرون حيال رأسه حجراً مكتوباً فيه: "هنا مات الوفد الأول الذي ذهب لفتح طريق السيارات"!

وتلقَّوا من الغد وادي الأقرع، فلما ولجوه ذكروا بالخير جبال المطلع ووجدوها حيال نار الأقرع جنة النعيم! والوادي عريض فسيح ولكنه وعر، كله صخور عظيمة ورمال خطيرة، إذا نجت السيارة من رملة صدمتها صخرة، وإن خلصت من الصخر غاصت في الرمل، فداروا فيه كما يدور الحمار في السانية (الناعورة)، وكان سيرهم سيرَ السواني سفراً لا ينقطع! ثم فتق لهم التفكير وجه الحيلة، فأجمعوا الرأي على أن يركبوا السكة بالسيارات. وعجبوا من أنفسهم: كيف حملوا هذا العناء كله ولم يهتدوا إلى هذا الرأي؟

وكانت السكة عالية تمشي فوق الوَعْرة كأنها الصراط ممدوداً فوق جهنم، فأمضَوا ساعتين في ارتقائها، ثم لما ركبوها تعذر المسير عليها. فعجبوا من أنفسهم كيف ارتكبوا هذه الحماقة، ولم يعلموا أن السيارة لا تمشي على سكة القطار! وأنفقوا ساعتين أخريين في النزول عنها، حتى إذا نزلت جلسوا على الأرض وقد طحن الجهد أجسامهم وملأ اليأس نفوسهم، وانقطع أملهم من كل شيء إلا من الله، وضلّ مَن يدعون إلا إيّاه، فأقبلوا على

الله بالدعاء والاستغفار، وذاقوا من حلاوة الإيمان وبَرْد اليقين ما اطمأنّت به نفوسهم وارتاحت له ضمائرهم، ثم لم يلبثوا أن استجاب الله دعاءهم وجاءهم منه الفرج، وسمعوا هتاف الجند الذين بعث بهم أمير العُلا بأمر الملك عبد العزيز لمعونتهم وخدمتهم.

* * *

جلس يفكر في هذا كله فرآه هيّناً إذا قيس بخَوْر حمار. وذكر كيف أمضوا نهاراً بطوله يستعدون لدخول الخور، فلما أقبلوا عليه رأوا مدخله كالشارع العظيم، على جانبيه صخرتان كبيرتان مستويتان قائمتان كالبنيان، كأنما قد بنتهما يد بنّاء حاذق بميزان الزئبق والشاقول، وفي وسطه جدار من الصخر عرضه ستة أمتار، يشبه في شكله سفينة عظيمة لم تنزل بعدُ إلى البحر، له مقدَّمها



وجوانبها. وقد قدر أصحابنا علوّ هذه الصخور من مئة متر إلى مئة وخمسين متراً، فامتلأت نفوسهم رهبة وخشوعاً. وأحسب لو رأى هذا الممرَّ سياحُ الأمريكان لحملوا في سبيل رؤيته عناء السفر إلى البادية مهما شقّ وطال. وأرض هذا المضيق رملية حمراء يغوص فيها الماشي إلى الركبة، لها شكل متموج جميل يشبه شكل البحر، يَلَذُّ المرءُ أن يلقيَ بنفسه عليها فيشعر كأنما يلقي بنفسه على فراش حلو ناعم أو ينام على سطح الماء!

وذكر كيف انقضى النهار وانقضى الغد ولم يجاوزوا نصف المضيق. ثم رفع رأسه، وكان الفجر قد انبلج وبدت طلائع النهار، فرأى هذه الصخور الشاهقة المستوية وهذه الشقوق التي تُحدث فيما بينها مثلَ الأزقة، يملأ مرآها النفس خشوعاً. وذكر كيف بذلوا جهدهم واستعانوا بعشرين من الجنود الأقوياء، ثم لم يقطعوا في يومين أكثر من كيلين من هذا المضيق! وخالط نفسَه الضيقُ والملل من طول هذه الرحلة وعنائها، وما قاسى فيها من التعب والجوع والعطش والنعاس، وما عانى من سوء الصحبة وقبح الأخلاق، وخاف أن تتعطل السيارة أو يضلوا الطريق، أو تمسكهم وعرة فينفَد الماء ويموت عطشاً.

وفكر: أيبلغ المدينة أم يهلك من دونها؟ وهاجه تصوّر المدينة وأحيا في نفسه الأمل، فرأى القبة الخضراء وهي طالعة عليه من وراء الأفق البعيد، وطار به إلى الملأ الأعلى تخيُّلُه الوقوفَ بين يدي رسول الله ﷺ وصلاته في الروضة، وقيامُه من بعدُ أمام الكعبة وشربُه من ماء زمزم وسعيُه بين الصفا والمروة، وشهودُه هذه الأماكن التي وُلد فيها الإسلام وعاش فيها محمد

عليه الصلاة والسلام، وكانت مهبِط الوحي ومطلع شمس النبوة ومعقد الآمال من نفس كل مسلم.

واستغرق في تفكيره، فلم ينبهه إلا صوت مؤذّن القوم يرنّ في هذا الوادي الساكن: "الله أكبر، الله أكبر... لا إله إلا الله"، فترددُ نداءه هذه الصخورُ الشمّ، وتمدّ الإبل أعناقَها مُصيخة هادئة. فقام إلى الصلاة وقد امّحى الخوف من نفسه، وصَغُرت عليه البادية وهانت عليه مشاقّها، وتضاءلت هذه الجبال القائمة حتى كأنما دُكّت بالأرض، وكأنما طُويت له الغبراء، فلم يعد مُلقًى في البادية على بعد ألف وستمئة كيل من منزله في دمشق كحبّة من الرمل أو هو أهون على الحياة منها، لأنها إن طارت بها ريح أو حملها سيل باقية كما كانت، لا تموت ولا تندثر، وهو يموت من أجل رغيف من الخبز وكأس من الماء.

بل لقد أحسّ كأنما هو في منزله. ولِمَ لا، وما يناله في البادية إلا ما قد كُتب عليه، ولا ينال في منزله إلا ما كُتب له؟ وإذا كان يأمَن على نفسه اللصوص والأعْراب وينام في عُرض الصحراء كما ينام في أرض غرفته، لا يمنعه باب ولا يحميه حارس، ولا يخالط نفسَه خوف ولا جزع لأنه في حمى ابن السعود وأرضه، أفلا يأمَن من كان في حمى مَن ابنُ سعود عبدٌ من عباده؟

* * *

وكان القوم قد هَبّوا فأقبلوا يصنعون الشاي والقهوة. وجلستُ حيال صخرة أكتب هذه الكلمة للرسالة لأبعث بها مع جندي من البدو إلى بريد العلا، ولست أدري: أنخرج من هذه

البادية فنقرؤها، أم تبتلعنا هذه الصحراء التي ابتلعت دولاً وأمماً وجيوشاً؟

وسيقرأ هذا الفصلَ قرّاءُ «الرسالة» وهم في دورهم ومساكنهم، لا يدرون ما الصحراء ولا يعرفون منها إلا ذِكْرَها في الكتب ووصفها في الأشعار، فيحسبونها تسلية أو خيالاً، وما هي بالتسلية ولا بالخيال ولكنه مقام بين الموت والحياة.

اللهم سلّم[1].

* * *

(١) نشر علي الطنطاوي رحمه الله هذه المقالة في كتابه المبكر «في بلاد العرب»، وفي آخرها: "بادية الحجاز، خور حمار (قرب مدائن صالح) نيسان ١٩٣٥" (مجاهد)

إلى أرض النبوة (٩)

حياة البادية

نشرت سنة ١٩٣٥*

أفاق سَحَراً (ولا يبدو السَّحَر على أتَمّه إلا في البادية، فلا ليل في الجلال كَلَيلها، ولا صبح في الجمال كصبحها، ولا نهار في الشدّة كنهارها) فجلس ينظر إلى هذه الصحراء التي تمتد من حوله، يغيب أولها في بياض الفجر المُقبل وآخرُها في سواد الليل المُدْبر، وهي ساكنة سكون الموت واسعة سعة السماء، فأحسّ في نفسه بشيء لم يحسّ به قط، فقال: "لا إله إلا الله"! فخرجت من أعماق قلبه.

وأيّ امرئ تُلقيه الأيام في البادية، فيرى ليلها ونهارها وشمسها ورمالها، ثم لا يكون أشدَّ الناس بالله إيماناً وعليه اتكالاً، وهو يرى أبداً من جلال المخلوق ما يخشع منه قلبه لجلال الخالق؟ وكيف يكفر به وهو يعلم أنه ليس بينه وبين أن

* في مجلة «الرسالة» العدد ١٢٨ الصادر بتاريخ ١٩٣٥/١٢/١٦ (٢٠ رمضان ١٣٥٤)، وفي آخرها: "كتبت هذه الكلمة في البادية، شمال المدينة المنورة، ١٧ نيسان ١٩٣٥" (مجاهد).

يموت عطشاً أو يهلك جوعاً إلا أن يحيد عن طريقه ذراعاً أو ينحرف عن وجهته شبراً؟ كيف يكفر بالذي لا يرجو النجاة إلا منه، ولا قوّةَ له إلا به، وليس له مَن يدعوه إلّا إياه؟

وكانت تلك صبيحة اليوم السابع عشر من أيام البادية. فطَفِق يذكر هذه الأيام وينظر ما أفاده فيها، فإذا هو قد عرف من خبر العرب في سبعة عشر يوماً ما لم يعرفه في سبع عشرة سنة يقرأ فيها أشعار العرب ويتلو أخبار العرب ويدرس لغة العرب وتاريخ العرب، وإذا هو قد سافر ألفاً وثلاثمئة سنة في الزمان لا ألفاً وثلاثمئة كيلٍ على الأرض، وسلك الطريق الذي سلكه الغُزاة الأوّلون، فعلِم أن سِرّ قوة العربي الأول الذي عمل ما لم تعمله الجن ولا تقوى عليه المَرَدة -حتى بنى للحضارة هذا الصرح العظيم فأوَت إليه وتفيأت ظلاله- إنما هو حياة الصحراء، وأن سرّ عجز العربي الأخير -حتى نام عن هذا الصرح وأباح العدوَّ حِماه- إنما هو بعدنا عن هذه الصحراء.

هذه الصحراء التي لا يعيش فيها الجبان العاجز، لأن الحياة فيها بين عينَي الأسد، لا ينالها إلا شجاع مقدام أخو غَمَرات، صبّار على النكبات ضحّاك في المُلمّات، وإلا ابن الشمس صديق الرمال حليف الجوع والعطش، ذو إرادة لا تنثني وهمة لا تُطاوَل وعزيمة لا تُفَلّ. ولا يعيش فيها المريض، لأنها لم تُخلَق مستشفى للمرضى ولكنّها خُلقت ميداناً للأبطال. ومن أين يأتي البدويَّ المرضُ ما دام لا يؤتى من قِبَل معدته، والمعدةُ بيت الداء؟ ولا يعيش فيها الفقير لأن أهلها كلهم أغنياء. وهل الغِنى إلا أن تنال كل ما تطلب؟ وهل يطلب البدوي إلا ماء له وكلأ لمواشيه؟ فإذا

أمْحَلت الدارُ أَمَّ غيرها:

وفي الأرض منأىً للكريم عن الأذى
وفيهـا لِمَنْ خـاف القِلى[1] مُتَحَّولُ

ولا يعيش فيها المنافق المتملّق الخدّاع الذي يلبَس صوف الحمل على جلد الذئب، لأن الصحراء منبسطة مستوية متكشفة، ظاهرها كباطنها، وليس فيها سقوف ولا جدران ولا مغارات ولا سراديب. وكذلك نفس العربي، ما في قلبه على لسانه، فإن عاداك فعداوة الشريف، يستقبلك بالشر ولا يستدبرك به، ويحمل إليك الموت على شفرة السيف لا يقدمه في كأس من الذهب قد خلط فيها السمّ بالدسم، وإن صافاك وآخاك فأُخُوّة الشريف، يفديك بنفسه وماله ولا يرغب عنك حتى ترغب عنه. وإذا أنت أنكرت من العرب جفاء في الطبع أو خشونة في المقال فلن تنكر منهم -عَوْضُ[2]- تلوّناً ولا تملقاً، ولا تنكر منهم لين الحيّة ولا لطف المستعمر... على أن الجفاء ليس من شأن العرب ولا هو في جميعهم، وإن فيهم لَلطفاً وإن فيهم لَظَرَفاً وإن لهم لأحلاماً.

* * *

(١) القِلى هو البغض والهَجْر، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿ما ودّعك ربُّك وما قَلَى﴾. والرواية المشهورة في البيت هي "مُتعَزَّل" كما أثبتها الزمخشري في شرحه على لامية العرب (مجاهد).

(٢) عَوْضُ معناه الأبد، وهو للمستقبل من الزمان كما أن قَطّ للماضي من الزمان، لأنك تقول عَوضُ لا أفارقك، تريد لا أفارقك أبداً، كما تقول قطّ ما فارقتك (مجاهد).

وطفق يذكر كيف كان يتبرّم بهذه الأشعار التي تندب الديار وتبكي الأطلال ويستثقلها ويراها كأنها الدُّمى، فيها جمال وليس فيها روح. فلمّا كانت أول ليلة قضاها وأصحابه في البادية، وحط الركب في قاع «الدغيلة»[1]، فوقفت السيارات الخمس، ووُضعت الأحمال ونُصبت الخيام، وأوقدت النيران ورُفعت القدور، وبُسطت البسُط ومُدّت الفرش، وكَمَل المجلس حتى قام الرادّ (الراديو) بين الشّيح والقَيْصوم يردّ عليهم أغاني عبد الوهاب وأم كلثوم، فتأتي بميوعتها وخنوثتها كأنها بساط شراب بُسِط في المحراب!



ثم كان الصباح فنادى منادي الرحيل، فما هي حتى طُويت الخيام ولُفَّت البسط وشُدّت الأحمال، فإذا كل شيء كأنه حلم أو كأنه صفحة طُوِيَت، ولم يبقَ إلا النُّؤيُ المهدَّم[2] وإلا موقد

(١) بعد الأزرق، قرب الحدود بين شرقيّ الأردن والحجاز، وقد قضينا فيه ليلة الثلاثاء ٢ نيسان ١٩٣٥ في رحلتنا إلى الحجاز.

(٢) النُّؤي: المجرى الذي يُحفَر حول الخيمة لوقايتها من السيل (مجاهد).

* الصورة العليا ليست من صور الرحلة الأصلية، وقد اخترتها للمناسبة.

النار، فامتلأت نفسه حزناً، وانطلق لسانه يترجم عن أصدق عاطفة وأعمق شعور بكلمة النابغة التي كان قد استثقلها وعَدَّها من القول المعاد والكلام الفارغ:

عُوجوا فَحَيّوا لِنُعْمٍ دِمْنَةَ الدّارِ[١]

وانطلق «يستوقف» إخوانَه لحظة يحيّي فيها هذه البقعةَ التي ترك فيها ليلة من حياته وطائفة من ذكرياته وقطعة من نفسه. ثم عاد فسخر منهم، كيف يقفون على أحجار قد سوّدَتها النارُ وحفرة حفروها حول الخيمة خشيةَ الأمطار:

ماذا تُحَيّون من نُؤْيٍ وأحجارِ؟

ويجد القاعَ بعد أن تقوّضت الخيام وطُويت البسط وضاع المكان الذي سَوّاه لنومه وأعده لجلوسه:

أقـوى وأقفرَ من نُـعْـمٍ وغيَّـرَهُ
هُوجُ الرّياح بِهَابي التُّرْبِ مَوّارِ[٢]

ويطول به الوقوف، وأصحابُه يستحثونه والسيارات «تصرخ» مستعجلة، فيمشي وهو يفكر في هذا القاع: هل يحفظ هذه الذكريات؟ ويسأل هذا القاع: هل يذكر أبداً هذه الليلةَ التي قضاها

---

(١) دِمْنَة الدار آثارها وبقاياها التي تدل عليها، والأبيات للنابغة الذُّبْياني (مجاهد).

(٢) أقْوَت الدار خَلَت، وهُوج الرياح شديدُها، والهابي من التراب هو ما ارتفع ودَقَّ منه، والريح المَوّارة هي المضطربة التي تثير التراب والغبار (مجاهد).

فيه والعواطف التي استودعه إياها؟ فلا يسمع مجيباً، ولا يجد إلا أحجار الموقد، وإلا هذا الثُّمام[1] الضعيف الليّن الذي جمعوا منه فأوقدوا به النار واتخذوه فراشاً، فينشد قول النابغة:

وقفتُ فيها -سَراةَ اليوم- أسألُها
عن آل نُعْم أَمُـوْنـاً عُبْرَ أسفارِ[2]
فاستَعجَمَت دارُ نُـعْـمٍ ما تُكلّمُنا
والدّارُ -لو كلّمَتنـا- ذاتُ أخبارِ
فـمـا وجدتُ بهـا شيئـاً أَلوذُ به
إلا الـثُّـمـامَ وإلا مَـوْقِـدَ الـنّـارِ

وتعدو به السيارة وهو لاهٍ عمّا حوله، يتمثل الشاعر وقد يَمّم شطر الديار فلم يجد بها سائلاً ولا مجيباً:

نـادَيتُ: أين أحبَّتي؟ فأُجِبْتُ: أين أحبَّتي؟!

وجعل يذكر كيف فهم في تلك الساعة قصيدة النابغة ونفَذ

---

(١) الثمام نوع من النبات. والعرب تقول للشيء الذي لا يَعسُر تَناوُله: هو على طَرَف الثُّمام، وذلك أن الثُّمامَ لا يَطول فيَشُقّ تناوُله (مجاهد).

(٢) سَراة اليوم وسراة النهار هو وقت ارتفاعه ووسطه، والأَمون هي الراحلة المأمونة في السفر، لا تعثر ولا تفتر. والعبر (مثلثة العين) القوة والقدرة، يقال: جملٌ عُبْرُ (أو عِبرُ أو عَبرُ) سَفَر أو عبرُ أسفار: قويّ عليها، ورجل عبرٌ للعمل: صالح له. يريد أنه وقفَ (بمعنى أوقف) في ذلك الوقت من النهار راحلتَه (الأمون) وراح يسأل الدار، دار نُعْم، فاستعجمت الدار (كما سيأتي في البيت الذي بعده) فلا تكلمه ولا تخبره، ولو نطقت لجادَت بالأخبار (مجاهد).

إلى روحها، وقد كان يتلوها ويدرّسها ويشرحها، فلا يفهم منها إلا كلماتها وجُمَلها وعَروضها وإعرابها. وجعل يذكر ما حفظ من أشعار الدّيار، فيبصر فيه جمالاً لم يبصره من قبل، فيعلم أنْ قد كان منه في ليل مظلم لا يرى فيه إلا سواداً، فطلعت عليه تلك الساعةُ بدراً أراه أن وراء الظلام دنيا واسعةً وفتنةً وجمالاً وروضة وأنهاراً.

وجعل يذكر كيف كان يقرأ أمثال العرب فلا يفهم من قولهم «أنْ تَرِدَ الماءَ بماءٍ أكيَسُ» إلا أن ذلك أحزم، فلما خرجوا من القاع وأقبلوا على ماء «الهزيم» الذي طالما وصفوه لهم وحبّبوه إليهم، وجدوه بئراً مُنتنة خبيثة تقتل مَن يشمّها، فكيف بمن يشرب منها؟ فعلم أن معنى «أكيس» أنك لا تشرب ماء خبيثاً فتمرض! فلما وردوا «ماء الفجر» بعد مسيرة يومين في الشِّعْب (لم تسر السيارة فيهما كيلَين متتابعين على أرض كالأرض، ولكنها كانت تعلو صخرة أو تهبط حفرة أو تغوص في رملة) لما وردوا الماء وجدوه جافاً، فعلم أن معنى «أكيَس» أنك لا تبقى بلا ماء فتموت![1]

* * *

ثم نظر فرأى الصبح قد انبثق، فأيقظ المؤذّن، وكان قوي

---

(١) في الكامل للمبرّد: "تأويله أن يمرّ الرجل بالماء فلا يحمل منه اتكالاً على ماء آخر يصير إليه، فيُقال له: إن تحمل معك ماءً أحزمُ لك، فإن أصبت ماء آخر لم يضرّك، وإن لم تحمل ولم تجد الماء عَطِبت". وهو مَثَلٌ يُضرب للآخذ بالاحتياط كما في «جمهرة الأمثال» للعسكري (مجاهد).

الحَنْجَرة حسن الصوت، فأذّن فزلزل البادية بـ«الله أكبر»، فلمّا قال «أشهد أن محمداً رسول الله» لم يتمالك صاحبُنا نفسَه أن تضطرب وقلبَه أن يخفق وعينَه أن تدمع، فهذا آخر يوم من أيام البادية، لم يبقَ بيننا وبين المدينة إلا نصف مرحلة. فهل يُكتَب لنا أن ندخل من «باب السلام» ونقوم أمام «الحجرة» ونقول: السلام عليك يا رسول الله؟

* * *

إلى أرض النبوّة (١٠)

على باب السلام

نشرت سنة ١٩٣٦*

مضت ساعة كاملة ونحن نعالج السيارة لنخرجها من الرمل، نرفعها طوراً بالآلة الرافعة وطوراً بأيدينا، ونزيح الرمال من طريقها ثم نمدّ لها ألواحاً من الخشب لتمشي عليها، ونجرّها بالحبال وندفعها بالأيدي، حتى إذا سال منا العرق ونال منا التعب مشت على الألواح، حتى إذا وصلت إلى نهايتها عادت فغاصت في الرمل إلى الأبواب! فأيسنا وبلغ منا الجهد، وهَدّنا الجوع والتعب والحرّ والعطش، فألقينا أنفسنا على الرمل صامتين مطرقين حيارَى قانطين.

وتلفَّتُّ فلم أرَ إلّا الرمال المحرقة تمتد إلى حيث لا يدرك البصر، متشابهة المناظر متماثلة المشاهد:

في مَهْمَهٍ تشابهَتْ أرجاؤه   كأنّ لـونَ أرضه سمـاؤه

* في مجلة «الرسالة» العدد ١٤٦ الصادر بتاريخ ١٩٣٦/٤/٢٠، وعنوانها في الرسالة «ثنيّة الوداع»، وما أثبتّه هنا هو العنوان الذي اختاره المؤلف لهذا الفصل في الكتاب المطبوع (مجاهد).

فرحت أفكر في هذه الأيام العشرين وما قاسينا فيها من ألوان المكاره، وأتصور الغدَ الرهيب الذي ينفد فيه ماؤنا وزادنا ويلفحنا فيه سَموم الحجاز وشمسه المحرقة، فأرتجف من الرعب!

وجعلت أُحِدّ النظر في هذا الأفق الرحيب لعلي أرى قرية أو خياماً فلا أرى إلا لمع السراب، ولا أبصر إلا هذه الجبال التي طلعت علينا أمس، فاستبشرنا بها وابتهجنا وظَنَنّاها قريبة منا، فسرنا مئة وعشرين كيلاً وهي قِيد أبصارنا[1]، تلوح لنا من بعيد كأنها بحر معلَّق حيال الأفق ضائع بين السماء والأرض، لم تَضِحْ ولم تقترب.

فشققت هذا السكون وصحت بالدليل (محمد العطوي): يا محمد، إيش تكون هذه الجبال؟ فقال: هذه -يا خوي- جبال المدينة، وحِنّا (نحن) إن شاء الله الظهر فيها.

قلت: ما تقول؟! ووثبت وثبة تطاير منها اليأس والخمول عن عاتقي، وأحسست كأنْ قد صُبَّ في أعصابي عزم أمة وقوة جيش، وظننت أني لو أردت السحاب لَنِلته ولو غالبت الأُسْد لغلبتها ولو قبضت على الصخر لفتته، وجعلت أقفز وأصرخ، لا أعي ما أنا فاعل، فقد استخَفّني الفرح وسرَّني من هذه الكلمة أكثر ما يسرني أن يقال لي: "أنت أمير المؤمنين"! وصحت بأصحابي فقاموا كالأسود.

---

(١) تُلفَظ كما نلفظ كلمة «عيد»، بكسر القاف لا بفتحها كما يصنع عامة الناس. والقِيد هو المقدار من الشيء، أما القَيد (بالفتح) فالحبل ونحوه (مجاهد).

عالجنا السيارات حتى أخرجناها من الرمل، ومِلْنا بها عن هذه الكثبان حتى ألقيناها عن أيماننا، وانتهينا إلى أرض شديدة درجت عليها السيارات، فاستندت إلى النافذة وأطلقت نفسي تطير في سماء الأماني، فلم أدع صورة للمدينة إلا تصورتها وأقمتها أمام عيني وأفضت عليها ما أستطيع من الجمال والجلال، فلا أطمئن إليها ولا أجدها إلا دون ما في نفسي. ولم يكن يربطني بالأرض إلا صوت الدليل وهو يهتف بالسائق: سِرْ يميناً، مِلْ شمالاً، لُجْ بين هذين التلّين، دَعْ هذه القارَة على اليمين، احترس من هذا الشِّعب، تنكبْ هذه الرملة... ثم يعود السكون.

سرنا أربعين كيلاً أخرى ولا تزال هذه الجبال تلوح في الأفق كأنها خيال حلم بعيد، يشعّ منها نور غريب، يومض من وراء القفر كما يومض الأمل المشرق في ظلمة اليأس. وكنا قد شارفنا سكة الحديد فتخطيناها مستعبِرين، ودخلنا في أودية ما لها آخر، غابت عنّا فيها الجبال التي كنا نراها فنستأنس بمرآها، وقاسينا فيها الشدائد من التواء الأرض وكثرة الأحجار وتشابه المسالك. ولم يكن فينا مَن ينبس، إلا أن يعرض لنا جبل أو شِعْب فأسأل الدليل عن اسمه لأكتبه في دفتري (الذي سُرق مني في آخر الرحلة) ثم أرجع إلى صمتي الطويل.

فلمّا زال النهار صاح بي الدليل: هِيه، أنت يالْكاتب، اكتب: هذا أُحُد.

فصحت: إذن وصلنا؟

فقال: أما قلتُ لك الظهر؟ هذا أحد. بقي نصف ساعة.

* * *


صورة حديثة لجبل أحد

لم يكن يدري الدليل الأعرابي أيّ ذكريات انبعثت في نفسي حين قال "هذا أحد" وأيّ عالم تجلى لعينيّ. رأيت المعركة قائمة والمسلمين ظافرين قد منحهم الله أكتاف العدو، ورأيت الرُّماة إذ يزولون عن أماكنهم يبتدرون الغنائم، وخالداً حين يرتدّ بخيله على هؤلاء الذين عصوا أمر الرسول وغَرّتهم الدنيا. ورأيت النبي ﷺ ثابتاً مثل أحد، وحوله صحابته الغُرّ الميامين يذبّون عن الدين ويحمون حمى النبوة.

ثم أبصرت هنداً قائمة على جثة سيد الشهداء حمزة، وكان قد أكل في بدر كبدها[1] فأرادت أن تأكل كبده، فشقّت عنها

(١) كناية عن قتل أبيها عُتبة وعمها شيبة يوم بدر، والمشهور أن الذي قتلهما هو حمزة رضي الله عنه، على أن ابن هشام يروي أن ثلاثةً اشتركوا في قتل أبيها عتبة بن ربيعة، هم حمزة وعلي وعُبَيدة بن الحارث (مجاهد).



فاستخرجتها فلاكتها، فلما وجدت في فيها صلادة الصّوان لفظتها. وأبصرتُ النبي ﷺ واقفاً عليه يبكي، فلما رأى ما مُثِّل به شهق -بأبي هو وأمي- ولم يكن منظرٌ أوجعَ لقلبه منه، ثم قال: "رحمك الله يا عم، فلقد كنتَ وَصولاً للرحم فَعولاً للخيرات، فوالله لئن أظفرني الله بالقوم لأمثِّلنَّ بسبعين منهم". فما برح حتى هبط عليه الوحي، فقام يتلو قول الله جل وعز: ﴿وإنْ عَاقَبْتُم فعاقِبوا بمِثْلِ ما عُوقِبْتُم به، ولَئِنْ صَبَرْتُم لَهُوَ خَيْرٌ للصّابِرين﴾، فانصرف صلى الله عليه وسلم وقد صبر وعفا.

ورَنّ في أذني صوت أبي سفيان يقول: "اُعْلُ هُبَل"، فتلفَّتُّ فما رأيت هُبَل ولا شيعة هُبَل، وإذا هو قد درج مع من درج، لم يبقَ إلا الله الأعلى الأجلّ. ثم سمعت صوت أبي سفيان يرنّ في أذني مرة ثانية، يخرج من هناك، من أرض الشام التي فتحها لهم سيد العالم، قوياً شديداً ينادي في المعركة الحمراء بصوت سمعه كل من في اليرموك: "يا نصر الله اقترِبْ، الثباتَ الثبات يا معشر المسلمين". فثبتوا، وجاءهم النصر وملكوا سوريا من أقصاها إلى أقصاها، فهي لهم ولأبنائهم إلى يوم القيامة.

ورأيت مئات من مثل هذه الصور، فأحسست كأنّما انتقلتُ إلى العهد الأول، أشهدُ هبوط الوحي وأرى جلال النبوة وعزة الإسلام.

ونظرت فإذا أُحُد لا يزال بعيداً، يعترض هذا الوادي الذي نسير فيه، مشرقاً بهيّاً تومض عُروقه المختلفة الألوان، من الأخضر البهي إلى الأحمر المشرق إلى الأزرق اللامع، فتمتزج هذه الألوان وتختلط، فيكون لها في العين أبهى منظر وفي القلب أسمى شعور. فازداد بي الشوق، فأقبلت أَحتَثّ السائق وأستعجله، أودّ لو تُطوى له الأرض طياً أو يطير بنا إلى المدينة طيراناً، فلا أرى السيارة تَريم مكانها[1]، وأجد أحداً لا يزال بعيداً، فأعود فأستحث السائق.

وما لي لا أسرع إلى أحد وأحبه وقد قال رسول الله ﷺ: «أُحُد جبلٌ يحبّنا ونحبه»؟[2] وما لي لا أزداد شوقاً إلى المدينة وليس بيني وبينها إلا ربع ساعة؟

وأعظمُ ما يكون الشوقُ يوماً
إذا دنت الخيـامُ من الخيـام

* * *

ولمّا خرجنا من الوادي وانتهينا إلى الفضاء الرحب رأينا وجهَ أُحُد وعلى سفحه النخيل والبساتين، ورأينا سَلْعاً، وهو جبل عال أسود يقوم حيال أحد فيحجب المدينة وراءه، فلا يبدو منها إلا جانب الحَرّة وطرف النخيل، فذكرت قول محمد بن عبد الملك وقد ورد بغداد فحَنّ إلى المدينة:

---

(١) أي لا تفارق مكانها (مجاهد).
(٢) أخرجه الشيخان في الصحيحين (مجاهد).



ألا ليت شِعْري هل أبيتنّ ليلةً
بِسَلْعٍ ولم تُغلَق عليّ دُروب
وهـل أُحُـدٌ بـادٍ لـنـا وكـأنـه
حِصانٌ أمام المُقْرَبات جَنيبُ(١)
يَخُبّ السّرابُ الضَّحْلُ بيني وبينه
فـيبدو لـعيني تـارةً ويَـغـيبُ
فـإنّ شفـائي نظـرةٌ إنْ نظرتُها
إلـى أحُـدٍ والـحرَّتـان قـريـبُ
وإني لأرعى النجمَ حتى كأنّني
على كل نجمٍ في السّماء رَقيبُ
وأشتـاقُ للبرق اليمانيِّ إنْ بـدا
وأزداد شـوقـاً إن تَهُـبَّ جَنوبُ

(١) الجَنيب: الغريب. والمُقْرَبات من الخيل: ما قُرِّب منها وكُرِّم (مجاهد).

وكان علينا أرطال من الغبار والأوساخ، فاستحيينا من رسول الله ﷺ أن ندخل مدينته ونسلّم عليه ونحن على مثل هذه الحال. وكانت البساتين والحيطان قريبة منا، فسرنا إليها نخبّ في الرمل، فلمّا دنَونا من أحدها سمعت غناء موقَّعاً على ناي كأشجى وأطرب ما سمعت من الغناء، فتعجبت، ثم ذكرت أن أهل المدينة -مُذْ كانوا- أطربُ الناس وأبصرهم بالغناء.

وهممت بالدخول، ثم أحجمت وقلت: لعل المغني امرأة، فلقد كان الذي سمعت صوتاً طرياً رقيقاً لا يكون إلا لامرأة أو غلام، ثم انفرج الباب فإذا المغني عبد أسود كالليل، وإذا الذي حسبته ناياً ناعورة يديرها جمل، لها مثل صوت النواعير في حَماة لكنّ صوتها أرقّ وأحلى، وإذا هذا السور (الذي تلطمه الصحراء برمالها كما تضرب الأواذيّ صخرةَ الشاطئ) قد عرّش على جانبه الآخر الياسمينُ وأزهر عليه الفُلّ وظلّلَتْه الأشجار وحنا عليه النخيل.

ورأينا الماء يهبط على الساقية كأنه ذوب اللّجَين ثم يجري فيها طافياً عذباً متكسراً، فجُنِنّا برؤية الماء الجاري، ولم نكن قد رأيناه منذ عشرين يوماً إلا مرة واحدة في العُلا. واقتحمنا الباب وأقبلنا على الماء نغمس فيه أيدينا وأرجلنا ونضرب به وجوهنا، ثم لا نشبع منه ولا ننصرف عنه، حتى شممنا رائحة الحياة، فاستلقينا على الأرض ننظر إلى الصحراء الهائلة التي أفلتنا منها وضُرب بيننا وبينها بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبَله العذاب.

اغتسلنا ولبسنا ثياباً بيضاً نظافاً وتطيّبنا، ثم ركبنا في السيارات إلى المدينة، فلم نقطع سَلعاً حتى بدت لنا المدينة

كصفحة الكف، يحفّ بها النخيل وتكتنفها الحِرار، وتقوم في وسطها القبة الخضراء التي يثوي تحتها جسد النبي الحبيب محمد ﷺ. وتكشّفت لنا دُنيا كلها خير وحقيقة وجمال، وعالم كله مجد وفضيلة وجلال. من هنا خرج الجند الثلاثمئة إلى بدر، فدكّوا صرح الاستبداد والجهالة ورفعوا منار الحرية والعلم، أقاموه على جماجم الشهداء وسقوه هاتيك الدماء، فأضاء نورُه الجزيرةَ كلها، ثم قطع الرمل فأضاء الشام والعراق، ثم قطع البحر فأضاء الهند وإسبانيا، فاهتدى به الناس إلى طريق الكمال الإنساني.

وكنا قد بلغنا هذا المضيق الصخري بين هضبتَي سلع، فنظرت في خريطة للمدينة كانت معي وقلت للدليل: أما هذا ذِباب؟ قال: بلى والله، فما يدريك أنت؟ قلت: أما هذا مسجد الراية؟ قال: بلى. قلت: إذن فهذه هي ثَنيّة الوداع!

وخفق قلبي خَفَقاناً شديداً، وخالطني شعور بالهيبة من دخول المدينة والسلام على رسول الله ﷺ، على ما في نفسي من الفرح والسرور! وجعلت أتأمل المدينة وقد دنونا منها، حتى لقد كدنا نصير بين بيوتها، وأحدّق إلى القبة وتحتها أفضل مَن مشى على الأرض، وقد شخص بصري وكدت لا أرى ما كان حولي لفرط ما أحس من جَيَشان العواطف في نفسي، حتى غامت المشاهد في عينيّ وتداخلت كأنها صورة يضطرب بها الماء، وأحسست كأني قد خرجت من نفسي وانفصلت عن حاضري، وذهبت أعيش في عالم طلق لا أثر فيه لقيود الزمان والمكان، فسمعت أصواتاً آتية من بعيد، من بعيد، وسمعتها تزداد وتَقْوى حتى تبيّنتُ فيها قرع الطبل، ووعيت أصوات الولائد يضرِبْنَ



بالدفوف وينشدن:

طلع البدر علينا من «ثَنِيّات الوداع»
وجب الشكرُ علينا ما دعا لله داع[1]

ورأيت المدينة قد سالت بأهلها، فملأ الناس الحرّة وسدّوا الطرق وغطى النساء السطوح، ولم يبق في المدينة أحدٌ إلا خرج لاستقبال المصطفى من ولد آدم، وهو قادم ليس معه -صلى الله عليه وسلم- إلّا الصدّيق الأعظم.

ثم سار وسارت وراءه هذه الجموع إلى القرية التي لبثت قروناً ضائعة بين رمال الصحراء لا يدري بها التاريخ، لم تسمع

(١) انظر الحاشية ص٢٦٢ في هذا الكتاب (مجاهد).

بها القسطنطينية ولم تعلم بوجودها روما، فجاء هذا الرجل ليهزّها وينفخ فيها روح الحياة ويجعلها أم الدنيا وعاصمة الأرض! إلى المعشر اليمانيين الذين جعلوا بأسهم بينهم، فلم تمتدّ عيونهم إلى أبعد من هذه الحِرار ولم يطمعوا من المجد بأكثر من أن يسحق بعضهم بعضاً، لينشئهم بالقرآن خلقاً آخر، ويسلّمهم مفاتيح الأرض، ويضع في أيديهم القلم الذي يكتبون به أعظم تاريخ للبطولة والعلم والعدالة. فأطاعوا ولبّوا، ثم مَشَوا إلى القادسية واليرموك، ثم أصبحوا سادة العالم!

ورأيت الأنصار يستبقون إلى إنزاله صلى الله عليه وسلم والتشرّف به ويصيحون به: هَلُمّ يا رسول الله إلى القوة والمنعة. فيقول: "خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة". ويدعها تمشي وقد أرخى لها زمامها ما يحركها، وهي لا تنظر يميناً ولا شمالاً، حتى أتت دار بني مالك النجار فبركت عند باب المسجد، ثم سارت وبركت في مبركها الأول، فنزل عنها صلى الله عليه وسلم وقال: ها هنا المنزل إن شاء الله. وكان المسجد مِرْبَداً[١] لغلامين يتيمين في المدينة، فاشتراه صلى الله عليه وسلم وانطلق يحمل الأحجار بيده الكريمة ليضع أسس أكبر جامعة بثّت الهدى في الأرض.

* * *

ونظرت فإذا السيارات أمام باب السلام، فأشرأبَّت الأعناق

(١) المِربَد هو موضع تجفيف التمر، وهو أيضاً مَحبِس الإبل وموقفها، وبه سُمّي المربد الشهير في البصرة، كان سوقاً للإبل يجتمع فيه الشعراء (مجاهد).

وبرقت الأبصار، ودمعت العيون وخفقت القلوب وتعالى الهتاف. ونزلنا ندخل مسجد الرسول ﷺ، وكانت حال لا سبيل إلى وصفها قط. اللهمّ اجعل لنا إلى تلك البقاع التي شرّفتَها بمحمد معاداً.

* * *



باب السلام في المسجد النبوي قبل نحو مئة عام

في البقيع

نشرت سنة ١٩٣٥*

خرجنا إليه في صُفرة الطَّفَل[١]، وقد سَكَرت الريحُ وسجا المساء[٢]، وكان اليوم رَوْحاً[٣]، فما تجاوزنا أزقّة المدينة الضيقة الملتوية وبدا لنا سور البقيع الهائل (الذي أقاموه في وجه مدينة الموت كيلا تبتلع مدينةَ الحياة) حتى هَبَّت الرياح لَواقح، فأنشأت سحاباً ما لبث أن اكفهَرّ وتطخطخ[٤] وعَمّ السماء، فأظلمت الأرض واسودّت وعادت كئيبة تملأ النفس غماً.

وكنا قد بلغنا البقيع فرأيته موحشاً مظلماً رهيباً: "قاتِم الأعماق

---

* نشرت في مجلة «الرسالة» العدد ١٠٣ الصادر بتاريخ ١٩٣٥/٦/٢٤ (مجاهد).

(١) الطفَل هو آخر وقت النهار قبل غروب الشمس، وهو أيضاً أول الوقت بعد طلوعها (مجاهد).

(٢) سَكَرت الريح: فترت وسكنت. والسَّجو أيضاً السكون، يقال: سجا الليل والبحر وسَجَت الريح (مجاهد).

(٣) اليوم الروح هو طيّب الريح. والرَّوْح أيضاً النسيم الرقيق (مجاهد).

(٤) السحاب تكون فيه ثغرات ثم يتطخطخ، أي ينضم بعضه إلى بعض فيصير رقعة واحدة متصلة (مجاهد).

خاوي المُخْتَرَقْ"[1]. وشممت منه رائحة الموت، فتهيبت دخوله في هذه الأمسية وأزمعت العودة، ولكن صاحبي أصرَّ عليّ وشجعني، ثم أخذ بيدي فإذا أنا وراء السور، وإذا ساحة فسيحة ممتدة الجوانب مظلمة الأرجاء، ساكنة سكون الموت، ليس فيها بناء ولا قبة ولا تابوت، كأنما لم يُسمح لبشر أن ينصب في حرم الموت معالم الحياة أو يدنس دار البقاء بشارات الفناء. فشددت على ذراع صاحبي وجعلت أدنو منه لِمَا أجد من الوحشة وأحس من الجزع، وما عهدتني من قبل أعرف الخوف أو أدري ما الجزع!

فسار بي يقودني، حتى هبط بي غَوراً عميقاً حال بيني وبين الفضاء، وحجب عني السور الذي كنت أراه فآنس برؤيته وأذكر أنها لا تزال وراءه دنيا حافلة بالنور والجمال والحياة، فلم أعد أرى شيئاً، وامَّحَت من خيالي كل صورة وطارت من رأسي كل

---

(١) مطلع الأرجوزة المشهورة لرُؤبة بن العَجّاج، وهي من عيون الشعر وفيها من غريب اللغة ما يجعلها من أعسره على الفهم. في «التذكرة الحمدونية» (٨١/٢) أن أبا مسلم الخراساني استنشد عروةَ هذه القصيدة، فلما وصل إلى قوله: "تَرمي الجَلاميدَ بجُلمودٍ مِدَقْ" قال: قاتلك الله لشدّ ما استصلبتَ الحافر! ثم قال: حسبك، أنا ذلك الجلمود المدق. قال: وجيء بمنديل فيه مال فوُضع بين يدي، فقال أبو مسلم: يا رؤبة، إنك أتيتنا والأموال مَشفوفة (يقال: اشتفّ ما في الإناء وشَفَّه إذا أتى عليه) وإن لك إلينا لعودةً وعلينا مُعَوَّلاً والدهرُ مستتِب، فلا تجعل بيننا وبينك الأسِدَّة. قال رؤبة: "فأخذت المنديل منه، وتالله ما رأيت أعجمياً أفصح منه، وما ظننت أن أحداً يعرف هذا الكلام غيري وغير أبي" (مجاهد).

فكرة، إلا فكرة الفناء وصورة الموت، وأحسست وأنا أهبطه أني هابط إلى قبر، وخُيِّل إليّ أن أشباح الموتى ترقص من حولي وتدنو مني وتمسني وتهم بعناقي، فتقف كل شعرة في جسمي، ويزداد قلبي خفقاناً، وتتخاذل ركبتاي حتى أهمّ بالسقوط، ويطنّ في أذني صوت رهيب مستطيل يلقي في رُوعي[1] أنه نشيد الفناء. وكان كل ما يحفّ بي مخيفاً رائعاً، فالقبور والظلام الشامل، والسكون العميق، والسماء التي لا تَطرف فيها من النجم عين، والمكان الذي لا تبلغه نسمة من نسمات الحياة، وجلال الموت... كل أولئك كان يخيفني ويصب في قلبي الوحشة والفزع! ثم صاحت بومة على سور المقبرة، فاستمسكت بصاحبي وقلت: عُدْ وَيحك!

قال: كيف أعود وقد بدأت الزيارة؟ هذا قبر عثمان.

وكأن ذكر عثمان قد رَجَع إليّ نفسي، فنظرت فلم أجد قبراً ولا شيئاً يشبه القبر، وإنما وجدت حجارة صغيرة قد صُففت على وجه الأرض وفُرشت من حولها رمال حمراء ناعمة كحوض أُعِدّ لتزرع فيه الورود، فقلت: أتهزأ بي يا هذا؟

قال: لا والله، ولكني أقول الحق: هذا قبر عثمان.

قلت: يا للعجب! أتحرثون موضع قبر عثمان أمير المؤمنين لتزرعوا فيه الورود؟

---

(١) كذا هي بالضم، ويلحن فيها أكثر الناس فيلفظونها بالفتح، وهي بالفتح الرعب والفزع، وبالضم القلب أو النفس، تقول: وقع في رُوعي كذا، أي في نفسي أو قلبي أو فكري (مجاهد).

قال: أي ورود؟ كل القبور هكذا.

قلت: لعلك أخطأت القبر. اذهب فاقرأ اسمه.

قال: قد طُمِسَت الأسماء فما عليه من اسم، ولكن ثق أنه هو. أعرفه من هذه الغضاة!

وأشار إلى غضاة قريبة منه لا أدري كيف دخلت حرم الموت، فأنستُ بها، وذكّرتني دنيا مليئة بالصور مترعة بالحياة نفت عني بعض ما أنا فيه من الغربة والجزع، فقلت: وكيف تعرف غيرَه من القبور؟

قال: ما أعرف إلا قبوراً قليلة، وقد كنت أعرف قبر مالك فاختلط عليّ ونسيته، ولكن يعرفه إذا شئت العم حَمَدْ، خادم المقبرة، وبعض الشيوخ من أهل المدينة.

* * *

وانقطع الحديث، فقد استشرى البرق وائتلق، ورعدت السماء، ثم هطلت بمطر بُعاق[1]، قشر وجه الأرض وجعل فيها بِرَكاً وأنهاراً، فلم نجد شيئاً يعصمنا من الماء نأوي إليه إلا هذه الغضاة، وما تكاد تعصمنا.

والمطر في الحجاز أعجب شيء رأيته، فبينا الشمس طالعة والأرض متسعّرة واليوم خَدِر عصيب، إذا السماء قد تلبدت

---

(١) البُعاق هو المطر المفاجئ الشديد، وكذلك هو مطر مكة والمدينة، ولا يكادون يعرفونه في بلاد الشام (مجاهد).

بالغيوم ودوّت بالرعد، والأمطار قد نزلت كأفواه القِرَب، واليوم قد عاد قُرّاً بارداً. ثم لا تلبث أن تنجلي السحب وتصحو السماء، فتنظر فإذا الأرض قد بُدّلت غيرَ الأرض، وإذا السيول قد جرفت البيوت وخرَّبت الطرق، وطمست المعالم كما يُطمَس سطر سال عليه الماء.

ولقد ظنناها سحابة صيف، ولكنها لم تنقشع، ولم تزدد الأمطار إلا شدّة وتَهطالاً، ولم يزدد الرعد إلا قعقعة وقصيفاً، حتى كأن الدنيا مجنونة عاودتها نوبتها، فهي تصرخ وتمزق ثوبها بيدها وتشقّ حَنجَرتها بصراخها! بَيْد أني لم أكن أحفِل البرد ولا المطر، ولم أكن أذكر الخوف ولا الجزع، ولم أكن أفكر إلا في هؤلاء الأبطال الذين فتحوا الدنيا وملكوا العالم ثم ضنّوا عليهم بقبر يُعرف أو اسم يُقرأ!


صورة نادرة للبقيع قبل الهدم
(في الربع الأول من القرن العشرين)

أفكر في هؤلاء العظماء: كم انحنت تحت أقدامهم هام الجلاميد الصمّ حتى وطئوها! كم استكانت لهم هذه الرمال الهائلة حتى قطعوها! كم دانت لهم البادية المهلكة حتى جابوها، ليخرجوا منها فاتحين إلى أرض الرياض والعيون فيبلّغوها رسالة الصحراء وينشروا فيها دين الصحراء!

لقد انتصروا على البادية المهلكة والشمس المحرقة، والجوع القاتل والعطش المميت، والعدوّ الجبار والجيش الجرار، ثم انتصر عليهم البقيع فإذا هم مستقرون في أحشائه، وإذا هم قد ناموا فيه إلى الأبد، فلن يذهبوا إلى الحرم ليقيموا الصلاة، ولن يمتطوا ظهور جيادهم ليمشوا إلى الجهاد، ولن يحملوا الراية الإسلامية لينصبوها على أقصى العالم، بل هم لا يرون طلعة الشمس ولا يبصرون صفحة القمر ولا يسيرون على وجه الأرض.

انتصرتَ -أيها البقيع- فما وفيت ولا أنصفت! جاءك الأبطال الذين فتحوا الدنيا ونشروا راية العدل على الأرض وأضاؤوا طريق الهدى للناس ليستريحوا في أرجائك ويناموا في حماك، فحرمتهم قبراً يُعرَف لهم وحجراً تُكتَب عليه أسماؤهم. ما نريد منك أن تنقش على قبورهم آيات التبجيل والثناء، فإن لهم من أسمائهم الكبيرة غُنْية عن كل تبجيل وثناء[1]، لكنا نريد ألّا تُنسى هذه الأسماء.

سيموت الشيوخ الذين يعرفون هذه القبور، أفيرضيك -أيها

(١) ولا نريد أن تُقام لهم هذه «المقامات» التي تُرتكَب عندها أنواع المعاصي ويؤتى فيها المنكر، بل نحن من أشد الناس لهذا إنكاراً.

البقيع- أن يأتي الجيل الجديد فيفتش عن هذه القبور فلا يجدها، فيقول: هاتوا المعول، هاتوا الأحجار... ابنوا هنا ملعباً فإنا لا نجد في المدينة خيراً من هذه الساحة، إنها لا تُترَك سُدى! ثم بينما هم يتقاذفون الكرة إذا بهم يخطئون فيتقاذفون واحدة من هذه الجماجم؟!

أنسيت -أيها البقيع- أن كل مسلم يحس أنه يملك في هؤلاء الأبطال ملكاً، وأن هذا الرفات ليس من حقك وحدك، ولكنه حق لكل مسلم وُلد أو يولد إلى يوم القيامة، وأنك إن طمست هذه الأسماء حتى يجهلها المسلمون أسأت إلى كل المسلمين؟ أنسيت أن أضيافك عظماء البشر؟ أفتستحق العظمة هذا الإهمال الشائن وهذا النسيان المخزي، أم ذنبهم أنهم لم يكونوا من الفرنجة ولا من الإنكليز؟ أفيكون «البانثيون»[١] لأبنائه أوفى منك لأبنائك أيها البقيع؟

إنه لم ينقص من مجدهم أنها لم تشيَّد لهم القبور ولم تُنقَش أسماؤهم على صفائح الحجر، حسبهم أنهم شيدوا مجداً وبَنَوا أمة وكتبوا تاريخاً، فإذا نسي التاريخ أبطاله ومنشئيه فقِدْماً نسي التاريخ الأبطال![٢] وهل ذكر التاريخ أولئك الجنود الذين سقوا الأرض بدمائهم حتى أنبتت مجد نابليون فاقتطفه؟ هل ذكر أولئك

---

(١) البانثيون (Pantheon) في باريس هو مقبرة عظماء فرنسا، بُني في عهد الملك لويس الخامس عشر أواسط القرن الثامن عشر، وهو غير البانثيون الروماني في روما (مجاهد).

(٢) القِدْم (بكسر فسكون) اسم من القِدَم جُعل من أسماء الزمان، يُقال: قِدْماً كان كذا وكذا. يريد: في الزمن القديم نُسي الأبطال (مجاهد).

القُصّاص الذين أهدوا إلى شكسبير قصصهم الرائعة فرواها؟ هل ذكر أولئك الملاحين الذين غامروا بأرواحهم حتى أوصلوا كولومب إلى الساحل الجديد وأمسكوا بيده حتى نزل إليه؟ ماذا كان نابليون وشكسبير وكولومب لولا أولئك الأبطال المجهولون الذين نسيهم التاريخ؟

لا بأس أيها البقيع، فإن البطل الحق هو الذي لا يعرفه أحد!

* * *

وازداد الرعد قَرْقَرة وهَزيماً، وعقّ البرق وتَكَلَّح[1]، وأغدقت السماء وجادت، وعصفت الريح وأعجَّت، وجُنَّت الدنيا جنونَها، فنظرتُ فإذا السيل قد جرف قبر عثمان فلم يبقَ له من أثر! فقلت: أطبقي يا سماء وتشققي يا أرض وتصدعي يا جبال... إن مَن ملكوا العالم لا يجدون القبور!

* * *

(١) هزيم الرعد صوته، وعَقّ البرقُ عَقّاً انشق، وتكلّح البرقُ تكلُّحاً: تتابع، أو أنه دوام البرق زماناً واستسرارُه في الغمام (مجاهد).

من المدينة إلى مكة

من مذكراتي سنة ١٩٣٥

الأحد ٢٨ نيسان ١٩٣٥

صلينا المغرب في الحرم وقمنا في الروضة مقاماً نسينا فيه الدنيا وما فيها، ونظرنا إليها كمَن يطل عليها من نجم بعيد فيراها كذرّة صغيرة تائهة في الفضاء. ثم خرجنا من المسجد من باب السلام نسير في هذه الأسواق الضيقة المزدحمة بالحجاج، لا نتنبه إلى شيء فيها لأننا تركنا قلوبنا في الحرم، حتى جاوزنا الأسواق إلى شارع العنبرية الفسيح، حيث يقيم الأمير (وقد نزلنا أنا والشيخ ياسين الرواف ضيوفاً عليه دون سائر الإخوان) فوجدناه جالساً على الباب، فودّعَنا وشيّعَنا إلى باب العنبرية. "وكانت المدينة



باب العنبرية



ضمن السور، لا يُدخَل إليها إلا من هذه الأبواب التي تُغلَق ليلاً، فلا تُفتَح لأحد إلا إنْ ذكر اسمَه وأثبت شخصيته".[١]

وسلكنا على وادي العقيق، فذكرنا العقيق وأهل العقيق وشربنا من بئر عروة. وكان الليل قد أرخى على الأرض ستائره، فلم نعد نبصر ممّا حولنا شيئاً، فسكتنا فلم يكن يُسمَع إلا صوت السيارة وكلمة من أحدنا، تشق هذا السكون ثم تمضي فيعود الليل ساكناً هادئاً. وكان لكل واحد منا شاغل من عواطف نفسه عن الكلام، فقد ودّعْنا القبر والروضة ومررنا على العقيق واستقبلنا الصحراء، فهاج في نفوسنا وداعُ الروضة وذكرى العقيق وجلالُ الصحراء كثيراً من العواطف والذِّكَر.

(١) ما بين هذه القُوَيسات (في هذه المقالة) إضافة بخط يد المؤلف على نسخته من الطبعة الأولى، تاريخ كتابتها نحو سنة ١٩٧٠ (مجاهد).

ثم لاحت لنا أضواء باهتة من جانب الأفق، ثم دنونا منها فإذا هي «عِشَش» صغيرة مبنية من سعف النخل، فيها كراسي مستطيلة من القش تُتَّخَذ مقاعدَ للجلوس وسرراً للنوم، وفيها الشاي والقهوة، حتى إنها تسمى «شايْخانات»، أي أمكنة الشاي، وهي مبثوثة على الطريق بين المدينة ومكة. فسألنا عن المكان: ما اسمه؟ فقالوا: إنه «آبار علي»، وهو محل الإحرام.

فتوضأنا، ثم نزعنا ثيابنا ولبسنا ثياب الإحرام، ولم يبقَ بيننا من فرق، ولم يعد يمتاز واحد عن الآخر، وتحققت بيننا المساواة التي تسعى لها الحضارة ويطلبها الناس فلا يَصلون إليها، كما



بقيت الشايخانات شائعة لوقت طويل، وهي تظهر هنا في صورة التُقطت بعد الرحلة بثلاثة عقود (المكان مجهول).

تتحقق بين مئات الألوف من الحجاج الذين يَؤُمّون البيت كل سنة، وفيهم الملك والسُّوقة، والغني والفقير، والكبير والصغير، فإذا دخلوا أرض الحرم صاروا سواء أمام الناس كما هم سواء أمام الله، ولم يبق في نفس الكبير كِبر ولا في نفس الصغير ذِلّة، وانهزم المال ولم يبقَ له عمل في المفاضلة بين الناس، وبقي العمل للفضيلة وحدها، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى[١].

وركبنا بعدُ السيارات، فكنا نرى في الطريق الأربعةَ أو الخمسة من الرجال ماشين على الإبل من مكة إلى المدينة أو من المدينة إلى مكة، وترى الرجل الواحد يمشي منفرداً في ظلام الليل في طرق لا يعرفها وأرض لا يألفها، والمرأة الواحدة تمشي منفردة لا يعتدي عليها أحد ولا تخشى إلّا الله. حتى إذا بلغنا موضعاً يقال له «المساجيد» رأينا أبنية بيضاً جديدة فيها فندق للمسافرين ومركز للشرطة، ففتشوا تذكرة المرور، ثم اجتزنا المساجيد نسير في أودية ملتوية إلى بئر ابن حصانة.

وكانت الساعة الثانية صباحاً وقد خارت قوانا من النعاس، فنمنا فيها بلباس الإحرام على كراسي القش المستطيلة، وقد وجدت في هذه النومة لذة لا أجدها على سرر الديباج والحرير! ثم استيقظنا بعد ساعتين لنستأنف المسير.

* * *

(١) ذلك قبل أن يتحول الحج -على أيدي طائفة من السماسرة- إلى تجارة جعلت ما بين حج الفقير وحج الغني كما بين الأرض والسماء، والشكوى إلى الله (مجاهد).

الإثنين ٢٩ نيسان ١٩٣٥

جلسنا نشرب الشاي فحفّ بنا أكثر من خمسين سائلاً، من طفل صغير وامرأة عجوز ورجل شاب وآخر شيخ، كلهم يطلب حسنة، ولم نتخلص منهم إلا بشق الأنفس! وكنا كلما سرنا كيلاً أو كيلين وجدنا الصبيان والنساء يلحقون بنا يَشتدّون ولهم صياح عجيب: سلامات، حاجي سلامات، يا بويا، يا بابا، يا بلي[١]... يقولونها في سرعة عجيبة وأصوات عالية. هؤلاء الأعراب الذين كانوا أيام الأتراك وما بعدها مَفزَع الحجاج ومثار الخوف وكانوا يفسدون الأرض ويهلكون الحرث والنسل، أصبحوا اليوم يسألون الناس ولا يجرؤون أن يمدوا إليهم يداً بغير السؤال، فسبحان مغيّر الأحوال!

ووجدنا عجباً من حجاج الهنود؛ يسير الواحد منهم منفرداً حافياً يحرق الرمل قدميه، لا يحمل شيئاً من زاد أو ماء، يسأل عن المدينة وبينه وبين المدينة ثلاثمئة كيل لا يقطعها الماشي في أسبوع! فكنا نحمل من نستطيع حمله حتى نبلغه «شايخانة» نلقيه فيها. وقد نزل الحجاج في هذه الشايخانات واصطفت إبلهم صفاً واحداً مادّةً أعناقَها، ومن ورائها مراكب (شقادف) الحجاج مصفوفة على الأرض، وهي أشبه ما تكون بسُرُر من الخشب عليها الكِلَل[٢]، توضع على البعير واحدة من هنا وأخرى من هناك،

---

(١) انظر صفحة ١٥٩ في هذا الكتاب (مجاهد).

(٢) واحدتها كِلّة، وهي ستر رقيق يشبه ما ندعوه اليوم «الناموسية» التي يُتوقَّى بها من البعوض (مجاهد).

فيجلس فيها الحاج ومن حوله الأرائك والوسائد. وفيها الأبيض والأحمر والأخضر، ولها -وهي مصطفة- منظر عجيب."أما السيارات فكانت قليلة جداً، وأظن أنه لم يكن في الحج كله في تلك الأيام مئتا سيارة!"



وبلغنا رابغ في الساعة الرابعة غروبية[1]. ورابغ إمارة صغيرة فيها قصر للأمير ومن حولها نخل وبيوت وعشش، فاسترحنا فيها ساعة وشربنا القهوة عند الأمير، ثم سرنا إلى جدة فبلغناها في الساعة الثامنة[2]. وكانت الطريق من رابغ سهلة هَيّنة مستوية إلا

---

(١) بقي التوقيت الغروبي في السعودية حتى أواخر الستينيات الميلادية (على التقريب، ولا أحقق بدقة) وكانوا قبل ذلك يعيدون ضبط الساعات كل يوم، فإذا غربت الشمس ضبطوها على الثانية عشرة. فالساعة الرابعة الغروبية المذكورة هنا هي الرابعة بعد الغروب، وقد بلغ الركب رابغ في أواخر نيسان حين تغرب الشمس فيها قريباً من السابعة مساء، أي أنهم بلغوها في نحو الحادية عشرة ليلاً بتوقيتنا الزوالي الحالي (مجاهد).

(٢) أي في نحو الثالثة فجراً بالتوقيت الزوالي (مجاهد).

بعض رملات، وكان هواء البحر يهبّ علينا رطباً ونحن عُرْي إلا من ثياب الإحرام والنعاس غالب على أجفاننا، فكنا نغفو قليلاً، ثم تضطرب السيارة أو تعرض لها حفرة فنفيق فزعين، حتى وضح لنا البحر والمراكب ماخرة فيه، وقيل: هذه جُدّة(١).

ولجدة -ككل مدن الحجاز- سور ولها أبواب، "باب مكة وباب شريف والباب الجديد"، ووراء السور شارع عريض نظيف ومنازل جديدة للأمير وللقناصل. فاسترحنا ساعتين في دار الأمير (وكان في مكة)، وشربنا القهوة، وزرنا السيد محمد نصيف، وهو وجه جدة وله مكتبة عامرة ومن لم يزره فكأنه لم يزر جدة.

ثم ركبنا من جدّة، وكانت الطريق معبدة ولكنها مخرّبة في بعض المواضع. والطريق من جدة إلى مكة لا تبلغ الثمانين كيلاً، فكنا نسرع فيها، حتى إذا بلغنا «العلمين»(٢) قيل: هذا أول الحرم. ثم بدت لنا مكة من فم الوادي، بيوتها مرتفعة ضيقة كناطحات السحاب. وكانت الشمس جانحة للغياب، فدخلنا من باب جَرْوَل. وجرول أودية متسعة تلتقي في الوادي الذي يؤدي إلى الحرم، وهي نَزِهَة جميلة فيها بيوت عالية رفيعة، منها ما هو بستّ طبقات أو بسبع، تمتاز برواشنها(٣)، فسرنا بثياب الإحرام حتى بلغنا الحرم.

---

(١) الأصوب لفظها بضم الجيم، وهي كذلك عند ياقوت وفي اللسان وسائر معاجم العربية (مجاهد).

(٢) إشارة الحرم على جانبَي الطريق شرق الشُّمَيسي (مجاهد).

(٣) الرَّوْشَن شبّاكٌ عريض من الخشب المزخرف المزوّق.



والناس قلّما ينظرون في مكة إلى زيّ أحد، لأنها ملتقى الأمم ومعرض الأزياء ومجمع الشعوب.

وشعور المسلم حين يصل إلى باب المسجد الحرام وتبدو له الكعبة لأول مرة لا يمكن أن يصفه قلم كاتب ولا لسان أديب.

* * *

في جدة ومكة*

هل تريدون أن تروا جدّة كما رأيتها أول مرة؟ هل تعرفون باب مكة؟ تصوّروه باباً حقيقياً يُفتَح نهاراً ويُغلق ليلاً، وباب شريف والباب الجديد، ثم صِلوا بين الأبواب بسور متصل: هذه جدة كلها. وكان موضع وزارة الخارجية تلّاً يقتعد الناس جوانبه عند كل عشيّة، وليس بعده شيء من العمارات إلّا طائفة من البيوت القديمة على ساحل البحر. وكانت الرُّوَيْس قرية، ولست واثقاً من

* لم يكن هذا الفصل في طبعات الكتاب السابقة، وقد أخذته من بعض حلقات «الذكريات» لأتمّم به أخبار الرحلة، وحذفت ما لا يتعلق بها. ومادته الأصلية مع الفروع والاستطرادات في الجزء الثالث، الحلقات ٧٨-٨٠ (مجاهد).


جدة القديمة داخل السور

هذا الذي أقول فالصورة قد بهتت لطول العهد بها، خمسون سنة ليست شهوراً معدودات، ثم إني لم أُقِم يومئذ في جدّة إلا أياماً قضيناها في دار الشيخ محمد نصيف رحمه الله.

لمّا انقضت أيامنا في جدة وعزمنا على التوجه إلى البلد الأمين ودَّعْنا الشيخ ومشينا إلى باب مكة بسياراتنا. وكان وصولنا إلى الباب في المساء، فسألَنا الجندُ ونظروا في أوراقنا وفتحوا لنا الباب، فخرجنا من باب مكة إلى أرض خلاء ما فيها بنيان قائم ولا



باب مكة من الخارج

طريق مشقوق، صحراء كالتي كنّا نمشي فيها قبل أن نصل جدة، أذكر أن في مواضع منها «مشروع» طريق. حتى إذا وصلنا «بَحْرَة»[(١)]

(١) قرية قريبة من «وادي فاطمة» (الذي كان يُسمّى قديماً «مَرّ الظّهران»)، كانت في وسط الطريق القديم بين مكة وجدة، فلما أنشؤوا الطريق الجديد صار يمرّ بحذائها ولا يمرّ بها (مجاهد).

تَشهّدنا وألقينا بأنفسنا على المقاعد الطويلة المصنوعة من القشّ المَضْفور، وهي لا تريح بل تكسر الظهر، وكانوا يسمّونها «الشايخانات». والخانة هي المنزل، فهي محطة لشرب الشاي.

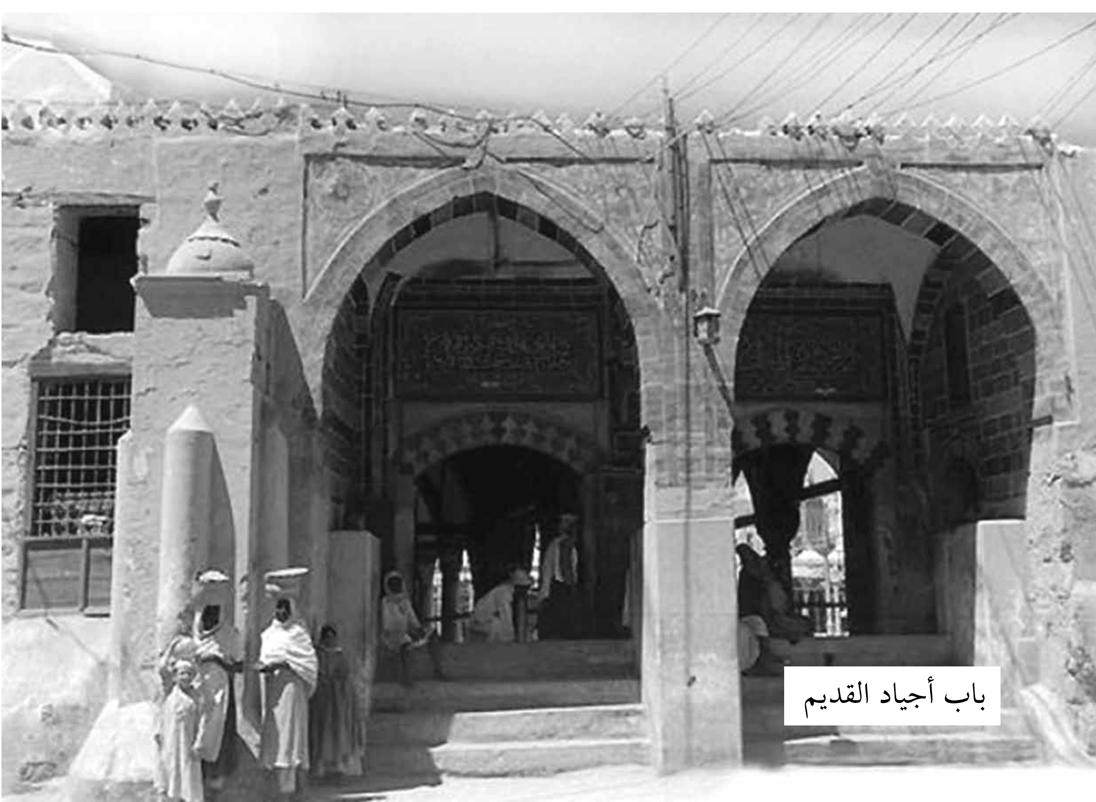
وليس البلاء فيما قبل بحرة بل فيما بعدها، في الشُّمَيْسي وبعد الشميسي بقليل. إنكم تمرّون بها الآن بسياراتكم المكيَّفة المريحة المسرعة (على الطريق القديم) فلا تلتفتون إلى تلال واطئة من الرمل الناعم المتموّج، أو تنتبهون إليها للإعجاب بمنظرها وبنعومتها وبأنها تشبه أمواج البحر إذا تجمّدَت. كان علينا أن نسير بسياراتنا فوق هذه التلال، فجرِّبوا أن تسيروا فوقها عشرين متراً. إن الأقدام لا تثبت عليها، فكيف بدواليب سيارات عادية من طراز ١٩٣٤ مع ثقلها؟ هل تصدقون أنه قد خرج معنا أناس يركبون الحمير، فسبقت السيارةُ الحمارةَ بساعة واحدة فقط؟!

* * *

كان أول ما رأيت من مكة بقايا «البيبان» (أي الأبواب)، ثم الثكنة (القشلة)، كانت هي نهاية البلدة للخارج منها وأولها للقادم عليها، ما كانت «الزاهر» ولا «الزهراء» ولا كان شيء من هذه الأحياء، كانت كلها أرضاً خلاء. ثم تمرّ في طرق ملتوية حتى تصل إلى الحرم، ما كان شارع المنصور ولا شارع الستين ولا شارع الحفاير. وكانت مكة تنتهي من الجهة الأخرى عند مسجد الجنّ عند عمارة البريد، وكانت صخرة «كُداء» المطلة على مقبرة «المُعَلّى» قائمة كاملة ما قُطعت ليمرّ فيها شارع الحُجون إلى العُتَيْبَة، ولا كانت العتيبة.

ما بعد عمارة البريد، أعني موضعها لا ذاتها، إلّا مَقاهٍ بلدية. أما الجامعة وحيّ العزيزية وما قام الآن بعده من أحياء فلم يكن منها شيء إلّا «حَوْض البَقَر»، وهو حوض يسيل إليه الماء من قناة العين على يسار الخارج من مكة على سفح الجبل، وكان ماؤها سبيلاً يسقي منه الرعاة مواشيهم. هذه هي مكة كلها.

كان الحرم كما كان المسجد النبوي، وكما كان (ولا يزال) الجامع الأموي، محجوباً بالبيوت تستره وتحيط به، فمَن أراد أن يخرج من أحد الأبواب ليدخل من الآخر لفّ ودار ومشى في حارات، إلّا «باب أجْياد»، كان أمامه شارع لعله كان يومئذ أكبر شوارع مكة (مع أن عرضه لا يتجاوز ستة أمتار كما أذكر)، وكان يقابله بناء صغير من طبقتين له باب عريض إلى جانبَيه نافذتان وفي الطبقة الثانية مثل ذلك، تمتدّ أمامها شرفة (بلكون)، وكان هذا



باب أجياد القديم

مركز الشرطة، فإن استقبلتَه ومشيت إلى اليسار مررت بأسواق وشوارع صغيرة قليلة تشقّ الأسواق، حتى تصل إلى صخرات ظاهرة هُنّ أصل جبل، فوقها قوس عريض. هذه «المَرْوَة»، يقابلها من جهة الحرم صخرات مثلها، هذا «الصَّفَا». وكانا جبلَين صغيرَين أكلهما الناس، والناس يأكلون كل شيء، حتى الصخر





قطّعوه وجعلوه حجارة بنوا بها مساكنهم! وبين الصفا والمروة كان «المَسعى»، تختلط فيه جماعات الحُجّاج والمعتمرين بالسائرين وبالبائعين والشارين، وكانوا يسعون في وَقْدة الحرّ تحت الشمس، فبنى لهم الملك عبد العزيز مظلة تظلّل الطريق قائمة من الجانبَين على أعمدة من الحديد.

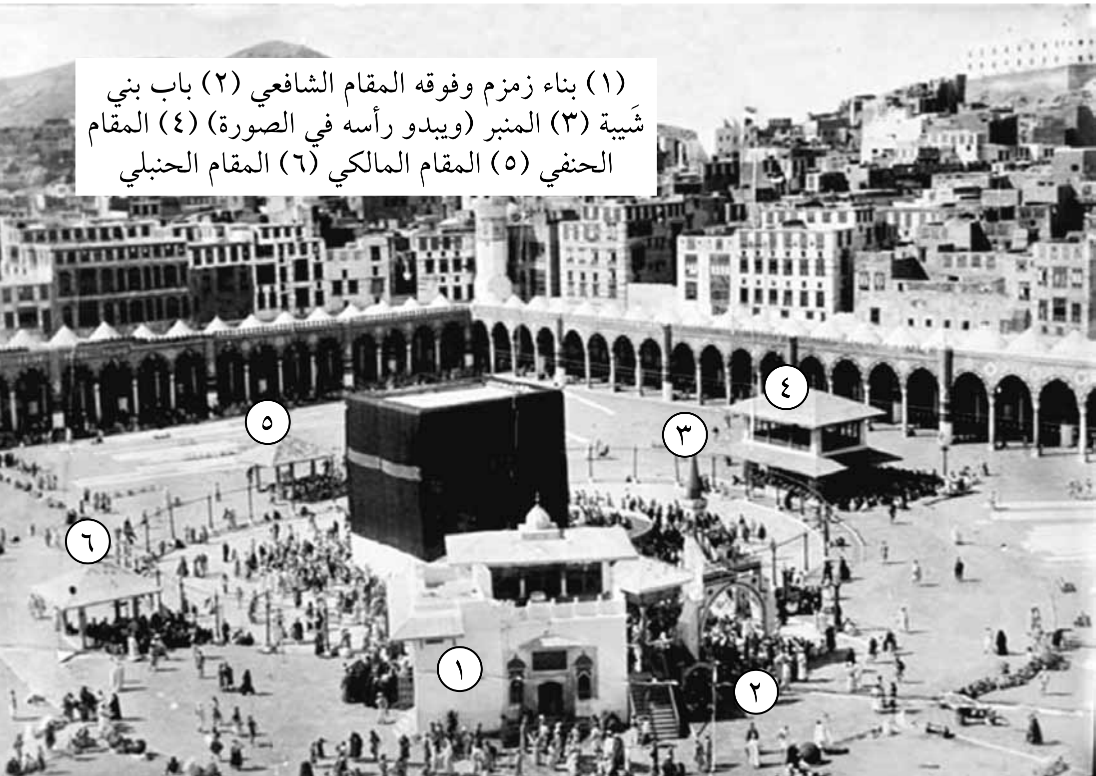
* * *



المسعى القديم كما كان
وقت كتابة هذا الفصل

وأصررنا على أن ندخل الحرم من باب السلام، فدارت بنا السيارات في الطريق حتى بلغناه، وأذكر أنه كان إلى جنبه حنفيّات للوضوء أو ما يشبه هذا. ألم أقل لكم إنه لم يبقَ في ذهني إلّا بقايا من الصورة؟

وإذا شئتم أن تتصوروا كيف كان الحرم فخذوا البناء القديم، وهو باقٍ ظاهر. وكان المطاف حول الكعبة ضيّقاً تُحيط به أعمدة من المعدن تدور من حوله، وكان أمام باب الكعبة مقام إبراهيم، وكان بناء صغيراً، والمنبر، وباب بني شَيبة (قوس قائمة وسط الحرم) إلى جنبه بناء زمزم، وأظن أن المؤذّنين كانوا يقومون فيه للتبليغ. وحول الكعبة مقامات أئمة المذاهب الأربعة، لا أذكر منها إلا مقام الحنفية، وكان مقابل ميزاب الرحمة، كنت أصعد إلى طبقته الثانية فأصلي بجوار المؤذنين وأرى الكعبة وأشاهد



(١) بناء زمزم وفوقه المقام الشافعي (٢) باب بني شَيبة (٣) المنبر (ويبدو رأسه في الصورة) (٤) المقام الحنفي (٥) المقام المالكي (٦) المقام الحنبلي



مقام الحنفية مقابل الميزاب

المصلين والطائفين. وكانت عند أبواب الحرم مدارس أو مساجد صغيرة يصلي الناس فيها، والمحكمة في الجهة الشمالية ، ولم أعُدْ أدري أين كانت. وعند باب السلام مكتبات كثيرة اجتمعتُ فيها بطائفة من أفاضل العلماء والأدباء.

هذا هو الوصف الخارجي للحرم، أما الشعور الذي كان في نفسي وما أحسست به لما رأيت الكعبة أول مرة فشيء يَجِلّ عن الوصف ويضيق عنه الكلام، ولقد قرأت مرة تقريظاً لقصّة يقول صاحبه (ولعله إميل فاكيه الفرنسي): "إني لا أتمنى إلّا أن أنساها لأستمتع بقراءتها من جديد". لقد كتبت كثيراً أحاول تصوير ذلك الشعور، فما حملَت أزهى الصور التي جئت بها إلا كوباً من بحر ممّا شعرت به. وأحسست مثل ذلك أو بأكثر منه لمّا رأيت المدينة

بعد اختراقنا الصحراء، لمّا قال لنا الدليل: اكتب يا الْكاتب، هذا أُحُد.

لقد دخل تحت يدي في حياتي أشياء كثيرة ثمينة وعزيزة، وأضعت في مساربها أشياء كثيرة جميلة وغالية، وما ملكت شيئاً ثم خسرته كان أكبرَ قدراً وكان فَقدُه أعظمَ خسراً من ذلك الشعور عندما تكحّلَت عيناي بمرأى مثوى الرسول ﷺ في المدينة والكعبة في مكة.

وأنا لا أفرّق بين الحرمَين، وأنا أعلم أن مكة أفضل وأن ثواب الصلاة في حرمها أجزل، ولكن لا أدري لماذا أجد أُنسَ النفسِ في المدينة. ألأن المدينة مرتبطة بعزّ الإسلام؟ ألأن الفتوح انطلقت منها فكانت عاصمة الدنيا؟ ألأنها وَلدت دمشق المسلمة



لقطة للصحن من الجهة الشامية (الشمالية)، ويبدو طرف حِجر إسماعيل يمين الصورة، وإلى يساره مقام إبراهيم، وأمام المقام المنبر وخلفه مبنى زمزم، ويظهر طرف باب بني شيبة يسار المنبر، وخلفه منارة باب علي.

وبغداد والقاهرة وخرجت منها الرايات التي ظلّلَت ثلث المسكون يومئذ من الأرض في ثلث قرن، فاقترن اسمها بالنصر والمجد والظفر؟ أم لأن لنا -أهل الشام- صلة قديمة بأهل المدينة من أيام الحرب الأولى، حين هاجر أكثر أهلها إلينا فعرفناهم وعرفونا وأحببناهم وأحبّونا، وأخذنا بعض عاداتهم وتعبيراتهم في كلامهم وأخذوا منّا؟ أم الأمر كما كان يقول أحد مشايخنا: التجلّي في مكة تجلّي جلال وفي المدينة تجلّي جمال؟

* * *

قابلنا أولَ قدومنا الأمير فيصل (وكان نائب الملك) في دار كبيرة أو قصر أظن أنه في «الغَزّة» مقابل عمارة البنك العربي، وكان في غرفة صغيرة في صدر بهو واسع.

ثم كان لقاؤنا بالملك عبد العزيز، وكان ينزل في بيت السقّاف، هكذا كانوا يسمّون القصر الذي ينزل فيه. وما هو بالقصر الفخم، ما هو إلّا بيت واسع مثل بيوت أوساط الناس.

دخلنا مجلس الملك فقام لنا. وكان يقوم للداخل، وذلك قبل أن يثقل عليه ألم رُكبته ويتخذ الكرسي ذا الدواليب الذي أهداه إليه روزفلت. وجعلنا نحضر مجلسه كل يوم فلحظت أن له مقعداً خاصاً به، لا يختلف عن بقية المقاعد لكن لا يقعد عليه غيره. ورأيت أولاده صفاً عن يمينه، على ترتيب أعمارهم، ورأيتهم إن جاء أمير منهم تنحّى له من هو أصغر منه ولو بأسبوع حتى يأخذ مكانه بحسب عمره.

وكان يدخل عليه من الناس من شاء، وكان أهل البادية

يدعونه باسمه: "والله يا عبد العزيز كان كذا"... ولا عجب، فهذه هي سنّة العرب، ما كانوا يقولون "يا فخامة أمير المؤمنين" بل "يا عمر"، بل كان الأعرابي يدخل مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم فيسأل: أيّكم محمد؟

كانوا يعرضون شكاواهم فيقضي فيها، وربما قال للشاكي: رُح للشرع. أي أنه يأمره بمراجعة القاضي. ثم يقوم ونقوم معه إلى الطعام، على سماط مبسوط على الأرض. والطعام الأصلي الرز واللحم، ولكنّ على المائدة ألواناً من الطّبيخ، وليس للمائدة مُصطلَح (أي بروتوكول)، فمن شبع قام وقعد غيره مكانه، ولكني وجدت الملك لا يقوم حتى يحسّ أنهم شبعوا جميعاً. وكان من عجيب أمر الملك أنه أوتي بَسطة في الجسم، فهو طويل عريض المنكبَين إن مشى مع الناس ظهر كأنه راكب وهم مُشاة، وكان أكله -مع ذلك- قليلاً جداً، لا أعلم كيف كان يكفيه هذا الأكل القليل!

* * *

أنزلونا لمّا جئنا مكة في دار كبيرة أُعدّت للضيافة، كانت قائمة إلى عهد قريب جداً في أجياد بين عمارتَي الأشراف والكعكي (ولم يكن يومئذ عمارة الكعكي ولا الأشراف). كان مديرَها رجل من مصر فاضل جداً رضيّ الخلق حسن السيرة اسمه السيد عبد السلام غالي، ولم يكن يدَع شيئاً يقدر عليه فيه راحة لنا إلّا قدّمه إلينا.

ولم تكن في مكة يومئذ كهرباء، كانت الكهرباء في الحرم

فقط، مصابيح كهربائية (لَمْبات) صغيرة تستمدّ نورها من محرّك (موتور) أحسب أن أحد مسلمي الهند أهداه إليه. ولم يكن بعد هذه الدار إلّا حيّ «بئر بليلة»، وبعد ذلك الجبل: جدار من الصخر.

كان من المشاهد المألوفة وقتها (سنة ١٣٥٣) أن أسمع الأذان فأرى البياعين يتركون دكاكينهم مفتوحة، يضعون في مدخل الدكان كرسياً أو يجعلون فوق البضاعة عصاً، حتى إن الصرّافين وأمامهم أكوام الريالات وأنواع العملات يتركونها أو يغطّونها بقطعة من القماش ويذهبون إلى المسجد، فلا يمسّ ما تركوا أحد ولا يخطر على بال أحد أن يمسّه. ولم تكن ترى وقت إقامة الصلاة أحداً يمشي في الطريق، كان الناس كلهم في المساجد. أمّا سبب هذا الأمان العجيب فهو إقامة حدود الله وتنفيذ شرعه.

وزرت في مكة الشيخ يوسف ياسين في جريدة «أم القرى»، وكان المشرف عليها. وأذكر أن مطبعتها كانت تُدار باليد، إذ لم تكن في مكة -كما قلت- كهرباء. وممّن زرت في مكة الشيخ عبد الله السليمان وزير المالية، بل الساعد الأيمن للملك عبد العزيز في أمور المال يوم كانت الموارد قليلة والخزانة غالباً فارغة، زرته في داره في مكة التي فيها الآن مكتبة الحرم، وكان البنّاؤون قد فرغوا يومذاك من بنائها، وكانت أجمل بناء جديد في مكة، ربما جاء الناس من خارج مكة ليروها. وكانت لها حديقة كبيرة، بستان واسع قعدنا فيه وشربنا الشاي، فيه من الزهر أنواع وألوان وفيه من كل فاكهة زوجان، من أبهى ما رأيت من البساتين.

وزرنا دائرة الصحة، وأول من قام بها جماعة من الأطباء السوريين منهم رئيسهم الدكتور حمودة والدكتور بشير الرومي (وهو من حارتنا في دمشق) والدكتور مدحت شيخ الأرض، وسمعت أن الملك عبد العزيز رحمه الله ضحك لمّا سمع اسمه وقال: مَن جعلك شيخ الأرض؟ الناس يتقاتلون على قطعة منها ثم لا يكادون يصلون إلى امتلاكها!

كانت أحياء مكة لمّا زرتها ثلاثة عشر حياً، سألت مَن لقينا من أهلها عنها وكتبت أسماءها هي: أَجْياد والشُّبَيْكة والباب والقشاشية والشاميّة والقَرارَة وسوق الليل والنّقَا وجَرْوَل وشِعب عامر والسّليمانية والمَعابدة والمَسْفَلة. وما زاد عليها فهو ممّا أُحدِثَ بعدُ، ومن هذه الأحياء ما هو كبير وما هو صغير.

* * *

في ساحة الإعدام

نشرت سنة ١٩٣٥*

سيقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض: هذه وحشية، هذه همجيّة، هذا لا يكون في القرن العشرين، قرن الحرية والنور؛ هذا يأباه فلاسفة العالم المتمدن، المسيو فلان والمستر علان والهِرْ جرمان والسنيور إيطاليان. ويقول الحق: هذا واجب، هذا حسن، هذا دواء القرن العشرين، قرن الاستعمار والاستعباد وإبادة الضعفاء واغتصاب الحريات؛ هذا ما أمر به الله وجاء به رسول الله ﷺ. فلينظر امرؤ مسلم: أيتبع أمر الله وسُنّة رسول الله ﷺ، أم يتبع رأي المسيووات والمساتير والهررة والسنانير؟

سمعت وأنا في مكة (آخر المحرم سنة ١٣٥٤) أن أمراً سيقع بعد صلاة الجمعة، فجعلت أراقب وأنتظر، لا أحب أن أسأل أحداً كيلا تفوتني لذة المفاجأة وروعة الحادث. ثم إن الرجل في الحرم كالسائح في أرض الله، لا يدري مَن يسأل ولا يعرف من يخاطب، فبينا هو في «الهند» يسمع لغة الهنود ويرى أزياء الهنود ويبصر عادات الهنود، إذ به ينتقل بعد خطوات إلى «نجد»، فإذا

* في مجلة «الرسالة» العدد ١١٧ الصادر بتاريخ ١٩٣٥/٩/٣٠.

هو بين النجديين وإذا كل شيء حوله عربي نجدي! ثم يخطو فإذا هو في «مصر» بين المصريين، يسمع حديث المصريين في لهجة مصر... فكأن الدنيا كلها قد استقرت في الحرم، تستظلّ بالبيت العتيق وتطوف به وتجثو خاشعة من حوله، فلا يحسّ الرجل وهو فيه بأن وراءه دنيا، أو أن ظاهرَ جدرانه حياً من الناس أو عامراً من الأرض.

حتى إذا قُضيت الصلاة وانفتل الإمام ابتدر الناس أبوابَ الحرم يَستَبِقون إلى شارع الحكومة (وهو في أسفل أجياد، يمتد من شمال الصفا حتى يجاور باب إبراهيم). فلم تكن إلا هُنيَّات


شارع أجياد

حتى امتلأ الشارع -على سعته- بالناس ولم يبقَ فيه موطئ قدم، فجعلت أزاحم الناس لأَخْلص إلى الساحة، فلا أتقدم خطوة. ومَن لي باختراق هذا السد الهائل من الأجساد واجتياز هذا الخِضَمّ من الناس؟ فأيست واحتسبت مصيبتي في فَوْت المشهد عند الله، وهممت بالعودة إلى الحرم، وإذا أنا بالشيخ يوسف ياسين. فتعلقت به وقلت: والله لا أدعك حتى تبلغ بي الساحة.

فاعتذر وتملص، فما نجا ولا تخلص. وكيف يتملص مني وقد كنت كالغريق وجد سفينة النجاة، أفيدعها بعدما وجدها؟ فأجاب على كره، وسار وأنا أتبعه، والبحر ينشقّ له كأن بيده عصا موسى! وما للناس لا يتفرقون من بين يديه حذرين خائفين وهو سكرتير الملك؟ حتى إذا بلغ بي درج القصر عاد لشأنه وتركني، فصعدت فلم أجد مكاناً أقف فيه، ووجدت الغرف كلها ملأى بالموظفين والمقرّبين والحاشية، فقادوني إلى غرفة فخمة أُعِدَّت للأمير فيصل، ابن الملك ونائبه على الحجاز، ولأهل بيت الملك.

* * *

وقفت في النافذة بين فتية من آل بيت الملك، وأطللت على الناس، وإذا هم أخلاط من كل جنس ولغة وزيّ، فمن رجل على رأسه عقال أسود على صِماد أحمر[١]، قد التحف بعباية رقيقة على ثوب أبيض، وقد حلق لحيته كلها إلا نقطة واحدة من العُثنون وهلالاً دقيقاً من تحتها، نما فيه صفّ واحد من الشعر كأنما هو مروحة تدلت على صدره، سنّةً يتبعونها ما أنزل الله بها من سلطان. وهذا هو النجدي.

ومن رجل يلبس ثوباً رقيقاً فوقه رداء قصير (جاكيتة) من قماش هفهاف، وعلى رأسه قُلَنسِية (طاقية) بيضاء، إذا مشى في الشمس تعمّم عليها بملحفة بثقل الفراش يتقي بها شمس مكة

(١) الصماد ما يوضع على الرأس دون العمامة أو العقال، ويدعوه النجديون «الشماغ».

الحادة المخيفة[1]، وهو حليق اللحية صغير الشاربين. وهذا هو الحجازي.

ومن رجل يلبس ثوباً متقن الصنع عليه عباءة جميلة شفافة وعلى رأسه عقال مذهب، أو يبلس بدل الثوب حلّة (بدلة) بيضاء، وهو حليق اللحية إلا قليلاً منها يبقيه بمثابة الدلالة على أنه مُلتَحٍ. وهذا هو السوري. وأكثر السوريين في الحجاز موظفون في الوظائف الفنية، وأقلهم تجار.

ومن رجل على رأسه عمامة ضخمة كعمائم السلاطين من آل عثمان (يوم كان لآل عثمان سلاطين وكان لسلاطينهم عمائم) وقد أرخى بين كتفيه عَذَبة طويلة، وله لحية كثّة مستديرة وشاربان طويلان، أما ثيابه فقميص تحته سراويل بيض تبلغ الكعبين. وهذا هو الهندي.

ومن شاب حليق الوجه كله (على الأسلوب الأمريكاني) مهفهف نظيف الثياب، قد ائتزر بمئزر (فوطة) لَفّها على خصره النحيل لفاً محكماً واجتزأ بها عن السراويلات، وارتدى عليها رداء قصيراً رقيقاً، وربما بلغ ثمن المئزر من هذه المآزر خمسة

(١) من أُصيب بضربة الشمس في مكة فقد أصيب بالموت المحقق، ومع ذلك فقد كان معنا في رحلتنا الكشفية إلى الحجاز شاب نجدي اسمه حبيب، ما رأيته سترَ رأسه في بادية ولا حضر. فقلت له: ويحك! ألا تخشى ضربة الشمس؟ فقال: والله لو وقفت الشمس هنا أربعين صباحاً (ونقر على صُدغَيه) ما خلصَتْ إلى داخل. فعلمت حينئذ كيف مشى أجدادنا لفتح العالم.

من الجنيهات أو أكثر. وهذا هو الطالب الجاوي، وما أكثرَ هؤلاء الطلاب في مكة. ومن عبد أسود جَعْد الشعر أفطس الأنف ضخم الشفة، عارٍ إلا من خرقة تستر عورته أو بعض عورته، وهذا هو الأفريقي الأسود. ومن ومن... أمم لا تُعَدّ ولا تحصى.

وكان القوم مختلفين في أزيائهم ولغاتهم وأجناسهم، ولكنهم تجمع بينهم هذه القبلة التي قطعوا السباسب وخاضوا البحار ليواجهوها ويتعلقوا بأستارها، وأكرِمْ بها من جامعة!

* * *

ثم أقبل الجند، وهم بثياب عربية قد تمنطقوا عليها بمناطق الرصاص، فاصطفوا من حول الساحة. ثم أقبل الأمير فيصل في موكبه، تحف به طائفة من عبيده الأمناء الأشداء الأوفياء، فصعد إلى الغرفة التي نحن فيها فجلس في شرفتها الكبرى.

ثم جيء بالرجل، وهو قصير كَزّ ساهم ما عليه إلا قميص واحد مشقوق الجيب. وكان أصفر قد دمع وامتُقِع[١] لونه وغاض من وجهه الدم، مجموعة يداه إلى قفاه، قد مات من قبل الممات، يقوده جندي آخذاً بتلابيبه، حتى إذا بلغ به الساحة خلّاه فهوى جاثياً على ركبتيه، فلبث لحظة يفتح عينيه من الجزع. ثم ارتدت إليه نفسُه بعد حين، فجعل يقلّب عينيه في الناس فيرى كل شيء من حوله ميتاً لا حياة فيه، فكأن الدنيا قد أظلمت في ناظريه حين يئس من الحياة، كبيت أُطفئ فيه المصباح في ليل داج.

(١) لا يُستعمل هذا الفعل في هذا المقام إلا مبنياً للمجهول (مجاهد).

وجعل ينظر إلى الشمس مشرقة، والجند جائين وذاهبين يُدلون بشاراتهم وسلاحهم، والقصر قائماً يحمل سطوة الحكومة وهيبة السلطان... ولكنه لا يبصر في ذلك كله إلا صوراً مطموسة تطلع عليه من خلال حلم عميق. ثم تضاءلت هذه الصور واختلطت، ولم يبقَ قِيدَ ناظريه إلا الكعبة يبصرها من باب الحرم، فجعل يحرك شفتيه بالتوبة والاستغفار ويشير بسبابته إشارة التوحيد، ثم أغمض عينيه وجرفه سيل من العواطف المتباينة، فغاب في ذهول عميق ولم يعد يفكر في شيء.

وجيء بالمجرم الآخر، وهو عبد أسود ضخم الجثة غليظ الشفتين كثير الشعر، كأنه غول هائل أو وحش مروع، وقد قيده الجند وجمعوا يديه إلى عنقه، وأقبلوا يمسك به ستة منهم، وهو يصاولهم ويقاومهم ويزمجر ويصرخ صراخاً شديداً، وهم يزبُرونه ويقرّعونه، حتى انتهوا به إلى الساحة، فاجتمعوا عليه فأضجعوه على سرير من الخشب وشدوه إليه شداً وثيقاً، وأقاموه بحيث يرى رفيقه ويبصر مقتله.

وكأن العبد قد جزع وأدركه الخوف والخور فسكت، وسكت الناس وعلقوا أنفاسهم وشخصوا بأبصارهم. وجعلت أطلّ من الشباك أبحث عن الجلّاد فلا أرى أحداً، وأفتّش عمّن يتلو حكم الإعدام فلا أجده، وأرى الأمير يشير بيده، فإذا عبد ضخم يبرز من بين الصفوف وبيده سيف صقيل مسلول، فيأتي الأعرابيَّ من ورائه وينخسه بالسيف، فينتبه ويمد عنقه مستطلعاً، فيهوي العبد بالسيف على قَذاله ثم يحزّ به الرأس حزاً، فلا تمضي ثوان إلا والرأس قد بُتر عن الجسد من القَذال إلى أعلى الصدر،

وطاح ثلاثة أمتار قبل أن تندّ من المقتول صرخة. ونفر الدم من عنقه كأنه نافورة، ومال الجسد قليلاً قليلاً حتى هوى، وهويت أنا قبل هُوِيِّهِ وكفّاي على عيني، ولم أعد أشعر بشيء.

ولما صحوت قيل: قد فاتك المشهد الهائل. قُطعت يد العبد ورجله من خلاف.

قلت: ويحكم! ماذا تقولون؟

قالوا: قُطعت يده ورجله. ألم تَتلُ قول الله عز وجل: ﴿إنّمَا جَزاءُ الذينَ يُحاربونَ اللهَ ورَسولَهُ ويَسْعَوْنَ في الأَرْضِ فساداً أن يُقَتَّلوا أو يُصَلَّبوا أو تُقطَّع أَيْديهِم وأَرْجُلُهم مِن خِلافٍ أو يُنْفَوا من الأرض﴾؟ أما إنه لولا هذا ما بلغتم أرض الحجاز سالمين، وما العهد السابق ببعيد، أفلا نستحيي بقتل واحد أو اثنين الناسَ جميعاً؟

قلت: بلى والله، صدق الله العظيم: ﴿ولَكُمْ في القِصاصِ حياةٌ﴾.

* * *

العودة*

الثلاثاء ٤ صفر ١٣٥٤ (١٩٣٥/٥/٨)

اشتدّ الحر في مكة وتسَعَّرت الأرض[١]، وتهيأت الحكومة للنقلة إلى الطائف، وتمّ العمل الذي جئنا من أجله، فلم يبقَ لنا في مكة مُقام.

فشُدَّت الرحال وأُعِدَّت «الركائب» وأخذ رجال الوفد يستعدون للمسير، فصلى العصرَ جماعةُ التجار وتوجهوا إلى جدّة، وصلّى المغربَ أصحاب الشركات وساروا، وبقينا نحن، الشيخ ياسين الرواف وأنا ومندوب شركة السيارات، وهو شاب مهذّب لطيف، فأقمنا في الحرم إلى العشاء.

---

* مقالة مفردة مخطوطة لم تُنشَر قبل اليوم، لا في جريدة ولا كتاب، عثرت عليها بين أوراق جدي -رحمه الله- فأثبتُّها في موضعها من الكتاب (مجاهد).

(١) في الأسبوع الأول من أيار؟! لا يعرف حَرَّ مكة مَن لم يُمضِ فيها تموز وآب. وقد أقام فيها جدي من بعد فعرف الفرق بين حَرّ أيار وحَرّ تموز، ولكنه لم يضجر من حَرِّها الشديد كما يصنع أكثر الناس (وأنا منهم) لأنه كان يصبر على الحر ولا يصبر على البرد (مجاهد).

والحرم المكي واسع جداً، مَن كان في طرف منه لا يميّز مَن كان في الطرف الآخر[1]، وهو مستطيل فيه أبواب لا تكاد تُحصى، يُنزَل إليه على درج، وعلى جوانبه كلها رواق فسيح يقوم على خمسة صفوف من الأساطين، يصلي فيه الناس إذا حميت الشمس وكان الحر.


الرواق العثماني القديم

(١) يقصد البناء العثماني القديم، وهو لا يكاد يُذكَر في جنب البناء الجديد، ولو قيل له يومَها أن الحرم سيتسع من بعدُ هذا الاتساع لعَدَّ ذلك ضرباً من الخيال! ثم عاش فرآه، عليه رحمة الله (مجاهد).

والحرم مكشوف تقوم في وسطه الكعبة حرسها الله، وهي عالية يبلغ ارتفاعها عشرين متراً، وقاعدتها مربعة تقريباً، طول ضلعين من أضلاعها عشرة أمتار وضلعين اثنا عشر، والضلع الأطول هو الذي بين الحجر الأسود والركن[1]، وهي مكسوَّة بالسواد إلا نطاقاً في وسطها عليه آيات من القرآن، وقاعدتها أحجار كبيرة ثُبتت فيها حِلَق من الحديد لتُربط فيها أستار الكعبة. أما الباب فإلى جهة الشرق، وهو عال صغير، والحجَر الأسود في الركن الذي عن يمينه، بعُلُوّ وجه الإنسان، مثبَّت في الجدار وسط إطار من معدن أبيض. وبين الحجَر والباب «الملتزَم»، حيث يقف الناس متعلّقين بأستار الكعبة يدعون.

وفي شمالها الحِجْر، وهو نصف دائرة عليها جدار من الرخام إلى نصف القامة، مفتوح من طرفَيه، وهو من الكعبة، يُطاف بها من وراء الجدار، ويصلي الناس فيه. وأمام باب الكعبة «مقام إبراهيم»، وهو مصلى كالمحراب يتّسع لاثني عشر رجلاً، يقوم في شرق الكعبة أمام الباب، وعن يمينه المنبر عالياً، ومن ورائه قوس أشبه بالباب الكبير إلا أنها ليست في جدار، كتب عليها ﴿مَن دخله كان آمناً﴾[2]، ومن الباب إلى الكعبة نصف قطر الدائرة المبلطة بالرخام التي تسمى «الصحن»، وفيها المَطاف

---

(١) يقصد الجهة الجنوبية من الكعبة، بين الركنين اليمانيَّين (مجاهد).

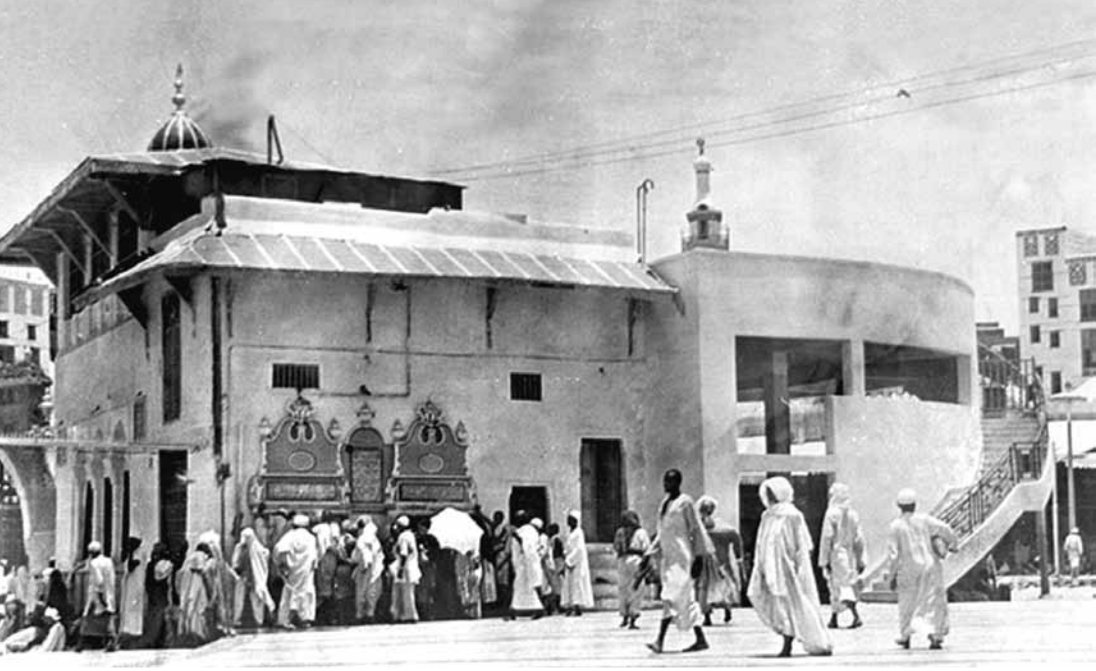
(٢) انظر الصورتين ص١٣٥ وص١٣٥ في هذا الكتاب. وقد أزيل باب بني شيبة وأزيل المنبر والمقام وأزيل مبنى زمزم وأزيلت المقامات الأربعة التي كانت قبل ذلك، فلم يبقَ من آثارها كلها إلا صور يتداولها الناس (مجاهد).

(وكان الصحن هو المسجد القديم في العهد الأول) وبقية أرض الحرم من البحص الأسود إلا طرقاً مرصوفة[1].



وإلى جانب المقام بئر زمزم، وهو في غرفة مبنية له فُوَّهَة متسعة يقوم عليها أبداً مَن ينضح منه ويصب في ساقية تحمل الماء إلى حوض أنشئ عليه سبيل، وللسبيل أبواب صغيرة تدخل فيها اليد قد عُلِّقت فيها كؤوس، يغرف الرجل فيها فيشرب أو يغسل وجهه. وإذا لم يذهب إلى الماء يأتي الماء إليه، يدور به صبية ورجال في جرار صغيرة ومعهم طاسات صغيرة، يصبّون للرجل

(١) أتذكره تماماً من زيارة مكة الأولى سنة ١٩٦٦ ميلادية، وكنا نفرش فوقه البسط ونصلي عليه، ولم يكن مريحاً في القعود والسجود (انظر الصورة في الأعلى) (مجاهد).



كأساً ويهيئون له أخرى[1]، ويمر عليك في الساعة الواحدة خمسة منهم يقدمون لك الماء جميعاً، وعليك أن تشرب لأنه ماء مبارك، ولا تستطيع أن تفهمهم أنك شربت عشر طاسات وأن معدتك لا تتسع لأكثر منها!

* * *

طفنا طواف الوداع وفي قلوبنا -لجلال الموقف وروعة الوداع وخشية أن يكون آخر العهد بالحرم- أسى وخشوع. ثم خرجنا نجتاز الأسواق المزدحمة والبنايات العالية التي تشبه بكثرتها وارتفاعها ناطحات السحاب في أميركا، لأن مكة ضيقة الرقعة، تقوم في أودية (شِعاب) متفرعة، فاضطُرَّ ساكنوها إلى التعالي

(١) أدركتهم لمّا زرت مكة أول مرة سنة ١٩٦٦، فلما رجعت بعد عشر سنين (وبقيت في المملكة من يومئذ) لم أجد لهم أي أثر (مجاهد).

في البنيان، حتى قلّما تلقى داراً بثلاث طبقات، لكن بخمس وست، ويضعون لها «رواشن» جميلة من الخشب المحفور. وفي مكة قصور فخمة أضخمها قصر الشريف عبد المطلب، ولكنه مهمل، وأجملها قصر النيابة الذي يقيم فيه الآن الأمير فيصل، وقد كان من قبل قصر الملك حسين بن علي[1].



قصر الحكم بالغزّة

ولمكة سور له أبواب، لا يُدخَل أو يُخرج إلا منها، وهي تُغلَق ليلاً فلا تُفتَح إلا بإذن. فلما بلغنا باب جَرْوَل فتحوه لنا، فخرجنا من مكة نستقبل جدّة. والطريق بينهما معبدة تقريباً، أنفقت عليها الحكومة أموالاً طائلة، لكن فيها أماكن كأنما لم تمسسها يد بشر (وسبب ذلك سيمرّ بك قريباً[2]) وطول هذه الطريق نحو من سبعين كيلاً تقطعها السيارة في ساعتين، فيها

(١) قصر الحكم بحارة الغزّة، بناه إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا حاكم مصر سنة ١٢٢٨هـ، وقد هُدم بعد كتابة هذه المقالة بخمس عشرة سنة (مجاهد).

(٢) انظر صفحة ١٥٩ (مجاهد).

ثلاث محطات في كل محطة منها مركز للجند فيه هاتف وقهاوي (شايخانات)، أولها -من جهة مكة- محطة «الشُّمَيسي»، وهي الحديبية التي كانت فيها المعاهدة والبَيعة المشهورة، ثم «بَحْرَة»، وهي منتصف الطريق، و«أم السَّلَم»، وقد بِتْنَا فيها لأن جو جدّة رطب ثقيل والمبيت في الصحراء جميل، لا يعرفه إلا من جرَّبَه، ينام الإنسان ثلاث ساعات فيفيق نشيطاً قوياً كأنما نام الليل كله.

الأربعاء ٥ صفر ١٣٥٤ (١٩٣٥/٥/٩)

قمنا من الفجر فصلينا وركبنا إلى جدّة.

وعلى رغم أن الفندق في جدة مُطِلٌّ على البحر مُعَدَّة فيه وسائل الراحة فإننا لم نسترح وكاد يقتلنا الحرّ، فأعددنا عدة الرحيل، وشيَّعْنا مَن نزل في البحر من وفد التجار[1]، أما من كان يريد الإبحار من وفدنا وفارقَنا في مكة ساخطاً فقد ظهر أنه كان يتشهّى كما تتشهى الأطفال وأنه لا يستطيع أن يدفع أجرة البحر،

(١) يريد أنهم يعودون إلى الشام بحراً بدلاً من السفر عبر الصحراء، ولعل السفن تنقلهم إلى العقبة أو إلى ضُباء ثم يكملون بَرّاً، لا أعلم. ولم يرد ذكر وفد التجار في الرحلة إلا في هذا الفصل وفي موضع واحد في طريق القدوم (انظر صفحة ٧٩)، ويبدو من الوصف أنه خرج من دمشق ركبان، ركب السيارات الخمس التي كان فيها الشيخ ياسين الرواف وعلي الطنطاوي والوجهاء، وهو «فريق استكشاف الطريق»، وركب آخر غادر دمشق بعده بأيام، هو ركب التجار المذكور (مجاهد).

فمرّغ أنفه بالتراب وعاد إلينا راضياً بحكم الله!

وسافر إخواننا أصحاب الشركات، وسافر التجار، ثم سرنا نحن في آخرهم، فكان خروجنا من جدة مع الغياب والناس يتنزهون خارج السور، يمشون على الشاطئ أو يجلسون في القهاوي يدخنون النارجيلة. وهي هنا فظيعة عالية لها أنبوب ضخم طوله خمسة أمتار بلا مبالغة! وهي تدور على الحاضرين، فيمتص كل واحد خمس دقائق ثم يدفعها إلى غيره!

سرنا إلى رابغ فبِتنا في قهوة فيها إلى الصباح. ورابغ إمارة صغيرة فيها نخيل وبيوت قليلة، والطريق من جدّة إليها سهل مستو لم نلق فيه مصاعبَ تُذكَر.

الخميس ٦ صفر ١٣٥٤ (١٠/٥/١٩٣٥)

تركنا رابغ منذ الصباح ودخلنا في أراضي حرب. وقبائل حرب هذه كانت آفةَ البر، عجز عنها الأتراك والأشراف ولم يستطيعوا أن يحموا أنفسهم من شرّهم حتى يحموا الحجاج، فخلوا بينها وبينهم، فذاق الحجاج منها الأمرَّين! وسل عنها -إن شئت- مَن كان يحجّ من طريق البر أو اقرأ حديثها في تاريخ مكة المكرمة. فأصبحت الآن مقلَّمةً أظافرُها مكسورةً شوكتُها، وأصبح الحاجّ يمشي وحده ليلاً ونهاراً وهو آمن، وما أكثرَ من رأيناه من الهنود والسودان يمشي وحده من مكة إلى المدينة ما معه إلا ركوة وسفرة وعصا.

وإنما بقي من الأعراب هناك أنهم كلما رأوا السيارة وثب

إليها أولادهم (وهم عري لا يلبسون إلا سروالاً قصيراً أو إزاراً صغيراً مكان السروال) يسألون حسنة، يَعْدون وهم يصيحون بإلحاح عجيب وسرعة هائلة: يابا، يا بويا، يا بلي، يا بابا (بحسب ما يقدّرون من لغتك، هندي أو جاوي أو عربي)... وبينما أنت لا ترى حولك أحداً ولا تلمح بيتاً تراهم يخرجون بالعشرات كأنما قد نبعوا من الأرض!

سرنا إلى الظهر للغداء في محطة تسمى «آبار ابن حصانة»، فأكلنا فيها واسترحنا إلى العصر، ثم مضينا. وكان الحر قوياً شديداً يُعجز السيارات وهي حديد فضلاً عن الناس. والطريق من آبار ابن حصانة تدخل في أودية ومضائق صخرية قد تضيق حتى ما يتجاوز عرضها عشرة أمتار، وفيها كان البدو يَقفون الحجّاجَ ويسلبونهم، فجاوزناها بسلام، لم نَرَ فيها إلا صبيان "يابا ويابويا" ينبعون من الأرض، لا ينقطعون أبداً مسافة مئة وخمسين كيلاً أو أكثر!

حتى بلغنا «المساجيد»، وهي محطة فيها نقطة عسكرية جلسنا فيها ساعة، فغيَّمَت السماء ولمع البرق ودَوَّى الرعد، فلم نسر إلّا قليلاً حتى هطلت السماء وتفتحت أبوابها واشتد البرد وعاد الشتاء! ثم اعترض طريقَنا سيل هائل يمشي كالنهر العظيم له هدير، فوقفنا ساعتين أو أكثر حتى خَفَّ فقطعناه، فإذا الطريق كلها قد خربت ولم يبقَ لها أثر، فعلمنا لماذا رأينا في طريق جدة أماكن مخربة.

أما جمال الصحراء ومنظر الرمال الحمر بعد المطر فليس يبلغه الوصف، وقد سرنا نحسّ -على رغم البرد- بنشوة غريبة، حتى بِتنا في آبار علي (ذي الحُلَيفة) على دقائق من المدينة.



الجمعة ٧ صفر ١٣٥٤ (١١/٥/١٩٣٥)

دخلنا المدينة فسلمنا على الأمير وأكلنا عنده، ثم توجهنا إلى الحرم فدخلناه من باب السلام، وهو في يمين المسجد بجانب جدار القبلة. والحرم أصغر من الأموي، قائم على أعمدة حمراء متقاربة، ولكن فيه سرّاً وله معاني لا تحسّها في مسجد مكة ولا في الأموي. وقد كان قبل ذهابنا إلى مكة غاصاً بالحجاج من هنود وفرس وحبش، فخلا الآن، فذهبنا نصلي في «الروضة»، وهي بين المنبر والحجرة الشريفة وفيها محراب رسول الله ﷺ، إلا أنه قد تغير موضعه فأزيح قريباً من ذراع إلى اليسار. ومكان مصلّاه ﷺ عند دعامة المحراب اليمنى، أما الحجرة الشريفة فمحاطة بشبك من النحاس، فيها كوّة حيال قبره ﷺ وكوة حيال قبر أبي بكر وكوة حيال قبر عمر، فإذا دخلنا لم نجد إلا جداراً على ستار كُتبت فيه آيات من القرآن، ولا سبيل إلى الدخول في هذا الجدار لأنه مبني ليس فيه باب ولا يرى القبرَ أحد.

ونزلنا في بلاد ابن عمران. و«البلاد» في العرف هنا هي الدارة الكبيرة، وبلاد ابن عمران هذه قصر جميل خارج المدينة في طرف الحرة اليسرى (حرة الوبرة) في محلة النقا[1]، فيه صحن واسع في وسطه بركة كبركة التكية السليمانية، يجري إليها الماء صافياً غزيراً من بئر يُستخرَج ماؤها بموتور قوي، وحول الدار حديقة قَلَّ أن ترى مثلها في الشام، فيها النخيل والرمان والمشمش والتين والليمون، وكله مثمر، وفيها ورد أحمر وزنبق، ولا تسكت الشحارير والعصافير لحظة عن التغريد فيها، يجري فيها الماء كما يجري في الشام.

ولكنا لم نكد ننصرف من صلاة الجمعة حتى هطلت الأمطار غزيرة وبرد الجو، فتلففنا وجلسنا في الشرفة نستمتع بمنظر من أجمل المناظر، وأمامنا القبة الخضراء التي تستهوي النفوس بجلالها وجمالها، والمآذن العالية وحولنا الحديقة الغناء الرائعة، وقد هبَّت منها بعد المطر ريح حلوة منعشة.

(١) وادي النقا مستفيضٌ ذكرُه في الأشعار.



السبت ٨ صفر ١٣٥٤ (١٢/٥/١٩٣٥)

لم يزل المطر هاطلاً إلى الظهر، ثم انقطع وشاع في البلد أنْ قد سال وادي العقيق، فخرج الناس وخرجنا معهم. وهذا الوادي هو أشهر وادٍ في كتب الأدب، وكان فيه ثلاثون قصراً لم يبقَ منها إلا أنقاض فخمة لقصر سعيد بن العاص، وكانت فيه آبار ورياض لم يبقَ منها إلا بئر عروة وبئر رُومَة وحديقة سلطانة.

خرجنا إلى العقيق، وكأنّ كل شيء قد انتعش بالمطر وعاش فأصبح للكون معنى من معاني الجمال لم يكن له من قبل. والوادي عريض يزيد عرضه عن مئة متر، تربته رملية حمراء. ثم عدنا إلى المدينة من طريق مدرَّجة في الحرة، وهي ثَنيّة الوداع الواردة في الأبيات المشهورة التي استُقبل بها النبي ﷺ.

* * *

من المدينة إلى تبوك

من مذكرات الرحلة
كُتبت سنة ١٩٣٥ ولم تنشر

في هذه الصفحات وصف للطريق، أرضه ومشاهده وما فيه من نبات وأشجار، وتحديد المسافات بالأكيال بعدّاد السيارة. وربما مَلّ منه القارئ الذي يبتغي التسلية، أما من أراد الوقوف على طبيعة الصحراء وعوارضها وأسمائها بلغة أهلها اليوم فسوف يرى فيه وثيقة منقطعة النظير.

خرجنا من المدينة مع الغياب، فوصلنا بعد ستة أكيال إلى بئر عثمان، وكانت آخر العمران، فبتنا فيها. وأصبحنا يوم الأربعاء (١٥ مايس[١] ١٩٣٥) فاستقبلنا الصحراء، فسرنا بين جبال واطية لا يتجاوز عرضها مئة متر، ثم اتسع الوادي وانكشفت البادية.

---

(١) «مايِس» هو أيّار، كذلك كان يسمّيه آباؤنا، وقد قَلّ استعمال هذا الاسم اليوم أو اندثر. ولعله مأخوذ من الاسم الأجنبي (ماي)، وهو مايو عند المصريين. وأيار هو الاسم العربي لهذا الشهر وبه يُعرف في بلاد الشام والعراق، وهو مستفيض في أشعار العرب كقول المعري: "تشتاق أيّارَ نفوسُ الورى" (مجاهد).

وكان الوادي ممتلئاً بالحجارة التي وجدنا أكبر المشقة في إمرار السيارة عليها، فلما خرجنا منه قَلَّت الحجارة وسهل الطريق. وما كان ثَمّة مِن طريق، بل كنا نمشي في عُرض البادية. وبدت لنا أشجار السَّمُر[1]، وهو شجر شوكي يشبه المشمش لولا أنه مسطّح



من أعلاه، له منظر الشمسية. وأشجار الحَرْمَل، وهو مستدير طويل الورق علوه نحو نصف ذراع، والبدو يدخّنون به مَن يصاب بالجدري يداوونه به. وأشجار السَّلَم، وهو شجر شوكي كبير.

وكنا نمشي إلى جنب سكة الحديد، فلما قطعنا خمسة وعشرين كيلاً وصلنا إلى وادي الجفرة، وفيه أشجار كثيرة من الرِّمْث والطَّرَفة. وسرنا بعده في بَحْصة ناعمة سهلة كأنها طريق بيروت، وكانت الأرض على مدى البصر مغطاة بشوك صغير اسمه العَراد، علوه نحو نصف ذراع، وهو يخضَرّ في الربيع

(١) واحدته سَمُرة.

وييبَس في الصيف، والرِّمْث على الضد منه، وهم يجنّبون الإبل الدنوّ منه لأنها إن أكلته أسهلَها ومشى بطنها.

واستمر هذا المشهد إلى وادي بُواط (ويبعد عن المدينة تسعة وثلاثين كيلومتراً). وهو مسيل وعر، تعطلت فيه إحدى سياراتنا فوقفنا ساعة ننتظرها، فأحسسنا كأن السيارة تلتهب من الحرارة التهاباً. وليس في الصحراء إلا الشمس المحرقة، فتصدعت منّا الرؤوس ومالت، وكنا ننام في أماكننا، فلا نكاد نغفو حتى يوقظنا الصداع، فنجلس فيَقلينا الحر! ثم وجدنا بعد اللُّتَيّا والتي جسراً تمر عليه السكة قد جاز فيه السيل منذ ليال فجمع إلى الظل رطوبة الرمل، فأحسسنا أنْ قد وجدنا فيه جنّة من جِنان الأرض، واستلقينا فيه على الأرض ندنو بآنافنا من الرمال -كما تفعل الإبل- حتى استروَحْنا.



وعدنا نسير، تعترضنا شِعاب قليلة ثم تعود الأرض سهلة. ورأينا نبت المَرْخ، وورقه يشبه ورق القمح، وهو بعلو قامة الإنسان، تُصنَع منه الحبال المتينة وأليافُه أقوى من ألياف القُنَّب، وكان العرب يتخذونه قديماً زناداً يقدحون به النار، والعَرْعَر وهو شجر يشبه المِشْمِش شديد الاخضرار.

وأمسى علينا المساء في محطة البوير فبتنا فيها (وهي على بعد خمسة وتسعين كيلاً من المدينة). والمحطة ستّ عمارات كبيرة من الحجر الأسود مبنية سنة ١٣٢٦هـ، وهي خالية خاوية، وأمامها الخط صدئ موحش والحافلات محطمة مكسورة، يبكي قلبُ مَن يراها مرتين: مرة لما آل إليه أمر هذا الخط الذي بُني بأموال المسلمين وبأيديهم، ومرة لأنه هُدم بأيدي المسلمين. وجعلت أتذكر هذه العمارات لمّا كانت فيها الحياة وكان يزدحم عليها الحجاج ذاهبين وآيبين، والبدو من حولها بائعين ومرتزقين، والدنيا قد زحفت إليها، فآضت الآن في سكون القفر ووحشة المقبرة، ما فيها دَيّار ولا نافخ نار.



محطة البوير ويبدو خلفها جبل الفحلتين

وكانت ليلة قمراء وكانت نسائم الليل رَخِيّة منعشة. ولا يعدل نهارَ الصحراء في شدته إلا ليلُها في لينه، فاستلقيت بعد هذا التعب أنعم بالراحة بعد الجهد والنسيم العليل بعد الشمس المحرقة، ولكن النعمة لم تتم، فلقد رأيت ما جعلني أثب وثباً وأقفز مبتعداً؛ رأيت عقرباً. وقتلتها، فما مَرّت لحظةٌ حتى رأيت أخرى، وثالثة ورابعة، وتاسعة وعاشرة... وإذا الأرض كلها عقارب! فطار نومي، وطويت بساطي وعباءتي فحملتها فدخلت المحطة، وصعدت إلى سطحها أبتعد عن العقارب، فإذا المحطة ممتلئة بالعقارب، وإذا هي تخرج منها. فبقيت حائراً لا أدري ماذا أصنع، ورأيت القوم كلهم ناموا وأنا باق وحدي، فهدّني التعب، فاضطجعت، وأحسست بشيء يمسّ رجلي فأشعلت عود كبريت (ولم يكن معنا مصباح كهربائي) فلم أجد شيئاً، وأخذني النوم، فما شعرت إلا والدليل يوقظني لصلاة الصبح.

الخميس ١٦ مايس ١٩٣٥

لمّا أضاء النهار نظرت، فإذا نحن في أرض مستوية أرضُها بحصةٌ سوداء، يحيط بها نبت من نبات الصحراء اسمه الرمث، تحف بها جبال لها ذُرى حادة كثيرة، وفي أعلاها صخرة تشبه البناء يسمونها «اصطبل عنتر» يزعمون أن عنتر القصة كان يربط فرسه بها! كأنه لا يليق بمقام عنتر أن يتخذ مربطاً لفرسه إلا هذه الصخرة المعلقة بين السماء والأرض[1].

(١) اسمه عند الجغرافيين القدماء جبل الفَحْلَتَين، وما زال هذا الاسم معروفاً إلى اليوم (انظر الصورة في الصفحة المقابلة) (مجاهد).

ومشينا مع طلوع الشمس، نغنم برد الصباح لنقطع فيه ما لا نستطيع قطعه في التهاب الظهيرة، ومررنا بشعاب كثيرة ولكنها سهلة، كانت السيارة تجتازها من غير أن ننزل فنجرّها. ووصلنا إلى محطة «أبو النَّعَم» بعد مسيرة خمسة وعشرين كيلاً، فوجدنا فيها بئراً عميقة حُفرت لما بُنِيت المحطة، ولم نجد حبلاً ولا مضخة فحِرنا كيف نصل إليها. وكان معنا دليل بدوي شيطان من شياطين البادية، فلما رأى حيرتنا ضحك منا، ونزع خفّه وعباءته وعلّق القرب بعنقه وهبط إليها، ولم يرضَ الخبيث أن يملأ قِرَبنا حتى اغتسل في ماء البئر وخبط الماء بعكره، وقد وجدنا الماء الذي أخرجه -مع ذلك كله- كأنه ماء الفيجة!

وسرنا بعد نصف كيل في رملة سوداء عجيبة، ولكن الأرض كانت حَزْماً، والحزم -بعُرف البدو- الأرضُ اليابسة التي لا تغوص فيها الرجل. أردنا بالتبكير السرعة ولكن الله أراد لنا البطء، فتعطلت سيارة ولبثنا في إصلاحها ست ساعات. وكانت الشمس في كبد السماء، وكنا نتمنى أن نجد ظلاً ولو بقَدْر ذراع فلا نجد، وإن دخلنا السيارة دخلنا فُرناً حامياً لا يمكن البقاء فيه دقيقة. وكان الهواء يهبّ سخناً كأنه خارج من تَنّور، ولم أجد -والله- وسيلة أستطيع فيها أن أتنفس هواء بارداً إلا بأن حفرت في الرمل نحو نصف متر وأدنيت أنفي من الأرض لأجد برودتها، فلا تلبث هذه البرودة حتى تجعلها الشمس جمرة تتلظى! وغسلنا العرق، ولم نعد نجد القدرة على الوقوف فضلاً عن الحركة.

ثم يسّر الله فمشت السيارات، ومررنا على حرّة تسمى حرة المقرح (على بعد ١٧٦ كيلاً من المدينة)، وأرضها ذات

حجارة سوداء كبيرة كالتي نستعملها في دمشق لتنظيف الأرجل في الحمّامات، مشينا فيها ثلاثة أكيال. وكان الدليل صَموتاً قليل الكلام، فوجدناه قد انطلق فجأة صائحاً مستبشراً يشير بأصبعه إلى الأمام، فنظرنا فلم نرَ شيئاً، فسألناه أن ما له؟ قال: الوادي.

فما مشينا كيلاً واحداً حتى رأينا مشهداً استخفَّنَا نحن أيضاً كما استخفّ الدليلَ، وحسبنا أنفسنا -لمّا رأيناه- في حلم. وجدنا «وادي هديّة» سائلاً، وهو واد كبيرٌ عليه أشجار الدَّوْم (وهو نخل جميل المنظر لا يثمر، له جذوع متعددة) فكان لمرأى هذا الماء الغزير الذي يسيل كنهر قوي عرضُه أكثر من عشرين ذراعاً بعد ظهيرة الصحراء المحرقة أثرٌ في نفوسنا لا يكاد يوصف. وتركنا السيارات لا نفكر في إجازتها السيلَ، وأقبلنا على الماء نشرب منه ونغمس فيه أيدينا ونضرب به وجوهنا، كمَن لم يرَ في حياته ماء. لقد جُنِنّا برؤية الماء، وما ظنّك بمن يتمنى كأساً من الماء فيلقى نهراً؟



وادي هدية (وهو بعرض هذا الجسر المقنطَر، والجسر من بقايا إنشاءات سكة حديد الحجاز)

و«شِعْب هدية» فسحة رملية متسعة حولها جبال صخرية سوداء أهرامية الشكل. وأرض الحجاز فيها غرائب الجبال وعجائبها، وقَلَّ أن ترى فيها جبالاً تشبه أخرى، بل كلما سرت بدت لك أشكالٌ جديدة من الجبال، فقد رأينا قبل هدية جبلاً عالياً ما هو إلا كومة أحجار بركانية سوداء -كالتي يستعملونها لرصف الطرق- ملصقٌ بعضُها ببعض.

وكنا قد لقينا الألاقي من هذا الشِّعب لمّا جزناه في قدومنا إلى المدينة، وشعب هدية مشهور يعرفه كل من أدرك الحج البري، عرضه ثلاثة أكيال ونصف، كلها رملة واحدة ناعمة ملساء، منها نحو كيل لا تثبت فيه قدم إنسان ولا جمل، فما بال دولاب السيارة بثقلها؟ وخضناه هذه المرة بالسيارات والماء يتطاير رَشاشه على وجوهنا ويدخل من نوافذ السيارة فيبلّ ثيابنا، ونحن من فرحتنا بالماء لا نبالي ما ابتلّ منا.



وادي الحَمْض، واسمه التاريخي «وادي إِضَم»، ورد ذكره في كتب السيرة وله وصف في كتب الجغرافيين القدماء

وأمسى علينا المساء وكنا في وادي الحَمْض، وهو واد طويل جداً يمتد من جبال الطائف إلى خيبر وينتهي إلى البحر، فبتنا فيه، على بعد مئتَي كيل من المدينة. وقد قطعنا في هذا اليوم مئة وسبعة أكيال.

الجمعة ١٧ مايس ١٩٣٥

سرنا من الغداة في أرض رخوة بين أشجار السّلَم، وهو من أكبر أشجار البادية، والسَّرْح، وهو أكبر منه، ومنه ما هو بمقدار الجوزة الكبيرة في الغوطة. ورأينا على الطريق -في موضع يقال له بَراقة، على ٢٠٥ أكيال من المدينة- قطاراً مقلوباً قد غطته الرمال، يظهر أن لورنس الإنكليزي هو الذي نسفه بمن كان فيه من الجنود المسلمين.



وكنا نسير بين جبال مسنَّنة الذُّرى جميلة المنظر، تبدو كأنها الأبراج الصغيرة أو التماثيل، تقوم صفاً وراء صف، مختلفة



الألوان والأشكال، الجبل الواحد عشرة ألوان أحمر وأصفر وأسود، وألوان لا أعرف لها اسماً ولا أملك لها وصفاً. ومررنا بالغضى[١] وهو يملأ البادية. وكانت تعترضنا سدود من الصخر، فكنا نجد ممرات للسيارات فيما بينها، ضيّقة كأنها الأزقة تمر وسط البيوت المتقاربة في البلد القديم! ورأينا جملاً ميتاً وعليه النسور والعِقبان[٢]، فلما اقتربت السيارة طارت ناشرةً أجنحتَها الواسعة، كأنها وهي فوقنا سرب من الطيارات.

وبلغنا الصُّورة (على بعد ٢٣٧ كيلاً من المدينة). وليست محطة من محطات القطار، ولكنها إحدى محطات طريق الحج القديم التي كانت تتسلسل على طول الطريق، في كل واحدة منها قلعة وبئر وبركة واسعة تُملأ قبل وصول الحجّاج. وكانت حماية كل قلعة منها لأسرة من أسر الشام المشهورة، يقيم واحد منها في

(١) واحدته: غَضاة (مجاهد).

(٢) بكسر العين، جمع عُقاب. والعقاب أنثى تذكّرها العامة (مجاهد).

القلعة طول السنة يحميها من عدوان البدو. ووجدنا البئر سليمة نظيفة وأمامها بركة مهدَّمة، فأنزلنا الدليل ليملأ القِرَب، ووصّيناه ألّا يغتسل إلا بعد أن يملأها لأننا لا نحب أن نشرب غُسالة جسده الجميل!



وسرنا، فوجدنا ضَبّاً بطول شبرين. فسألت الدليل عنه لأني لم أعرف ما هو، وإن كنت أحفظ اسمه وأعرف أنهم يقولون «أعقد من ذَنَب الضب». وأشرت إليه، فلما رآه قفز من السيارة كمثل قفزة القط رأى فأراً، فاحتوشه وجاء به في يده، فأوقد ناراً وذبحه وشواه وجعل يأكله، فأغمضنا عيوننا من بشاعة المنظر.

ودخلنا في واد ضيق صعب فيه شِعاب وحجارة، ثم اتسع من حولنا، ثم صرنا في فلاة واسعة. ووصلنا محطة «المشهد» (على بعد ٢٧٩ كيلاً من المدينة) فلم نقف عليها، وجزنا بعدها

بواد كله غضى، وهم يسمّونه «وادي الغضى»، رأيت فيه غضاة كالشجرة، مستديرة كأنها من أشجار الآس ولها مثل خضرتها وجمالها. ومررنا بمحطة «البدائع»، وهي محطة كبيرة على بعد ٣٠٤ أكيال من المدينة.


محطة البدائع

وكنا قد بتنا فيها في القدوم، وكان معنا الدليل محمد الأعرج الذي مَرَّ بكم خبره مع النمر[١].

كان هذا في القدوم، وقد مررنا بها الآن فلم نقف عليها، وكنا نمشي إلى جنب سكة الحديد، والجبال عن أيماننا وشمائلنا بأشكالها العجيبة كأن ذُراها القِباب والمآذن والتماثيل، من مكعّب ومستطيل وهرمي، وذرى على هيئة الحيوانات، لها ألوان عجيبة لا توصَف مِن تعدّدها وتموجها. وهذا هو «وادي القرى» الذي

(١) انظر صفحة ٧٩ من هذا الكتاب (مجاهد).



وادي القرى وجبال العلا

ملأ ذكره الأخبار وسارت به الأشعار.

وبلغنا «العُلا» بعد العصر. والعلا قرية صغيرة جميلة، تقوم في واد ضيق تحفّ به هذه الجبال الجميلة الممتعة ذات الأشكال الغريبة، ولون أكثرها أحمر مخضَرّ جميل. والوادي كوادي العين الخضراء[١] فيه العيون والسواقي والأشجار، وأمتع ما فيه هذه النواعير (السّواني) ذات الصوت الموسيقي الفاتن. ولقد حسبتها في سكون الليل ناياً أو آلة موسيقية، فسألت عنها فأخبروني أنها النواعير، وأن العوام من الوهابيين أرادوا منعها عند فتح الحجاز بحجة أنها من الطرب الممنوع!

وكنت أمشي في طريق البلد، وبين البلد والمحطة نحو من ساعة على الأقدام، وفي المحطة قصر الأمير ودوائر الحكومة، فسمعت صوتاً غريباً حلواً آلَفُه، ثم ذكرت أنه كصوت نواعير

(١) وهو الجزء الأدنى إلى دمشق من وادي بردى، وتقع العين الخضراء بين بَسِّيمَة وعين الفيجة على نحو عشرين كيلاً من دمشق (مجاهد).

حماة، فدخلت وإذا هي حديقة من أجمل الحدائق فيها سانية[1]. ووجدت في الحديقة عريشة رطبة حولها النخل والرمان والعنب والورد والنعنع، فأمضينا فيها أمسية لا تنسى.

وكنا قد أمضينا هذه الأيام الثلاثة لم ننم فيها أكثر من ساعات معدودات، وكنا نمضي ليلَنا مع الوحوش والعقارب ونهارَنا في الشمس المحرقة والرمل المستعر، وكان الصداع قد مزّق أصداغي، فكنت لا أتمنى في الدنيا شيئاً إلا أن أجد مكاناً هادئاً وفراشاً طرياً فأنام عشر ساعات. وسألت عن موضع المنام فقالوا: هيهات، إن الأمير يدعوكم إلى العشاء.

وكنت أعرف ما هذا العشاء؛ إنه ليلة بيضاء لا نوم فيها، لأن الإكرام عندهم أن يذبحوا لك الخروف، وأن تنتظر حتى يسلخوه ويصلحوه ويطبخوه ويقدموه، فتذهب في ذلك سِتُّ ساعات.

ودخل العبد بالشاي. ومن عاداتهم فيه أن يَصُفّوا الكؤوس في الصينية، شاياً أحمر وأخضر، يأخذ الضيف من أيّهما شاء، ثم يقف العبد بالإبريق، فمن شاء ثَنّى أو ثلّث. وكنت من الحاجة للشاي بعد هذا التعب وهذا النعاس كالأرض العَطشى في حاجتها إلى المطر، فشربت كأساً وثنّيت وثلّثت، وما زلت أستوقفه وهو يصبّ لي، حتى شربت ثلاث عشرة من هذه «الكاسات» الصغار جداً، فما كان من العبد إلا أن بَرْبَرَ وقال ما لم أفهم، وتركني وولّى! وما نمنا تلك الليلة حتى صلينا الفجر.

---

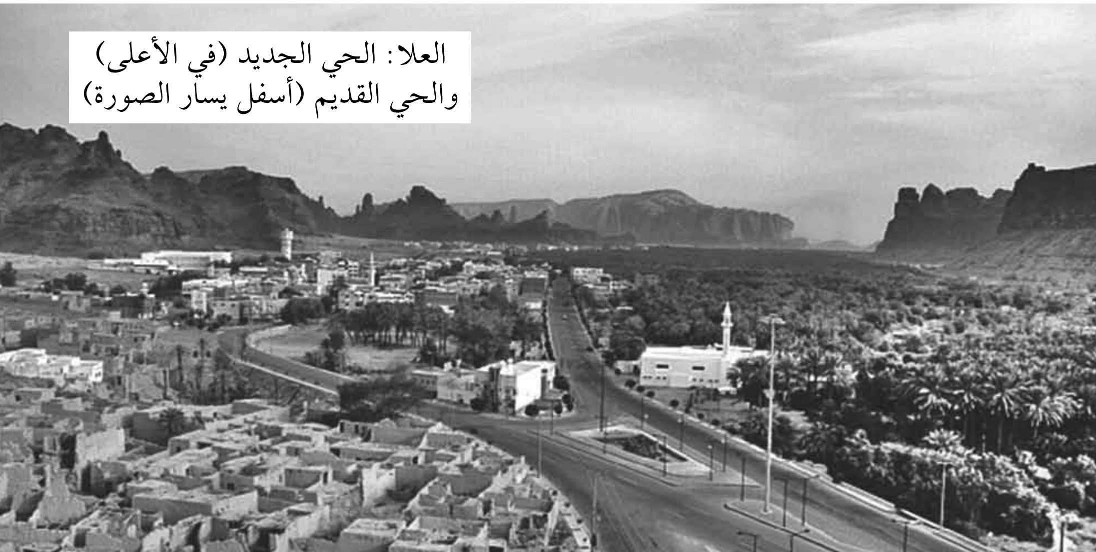
(١) السانية بئر أمامها وَهْدةٌ مستطيلة يروح فيها الجمل ويغدو، وعلى البئر قربتان صاعدة ونازلة.

السبت ١٨ مايس ١٩٣٥

أمضينا النهار نياماً، فلمّا صلينا العصر دعانا الأميرُ إلى الشاي في حديقته، فركبنا عربة صغيرة على السكة (طرزينة) من المحطة حيث يقيم الأمير إلى البلد، ندفعها بأيدينا، حتى إذا درجت وثبنا إليها، نتعب بها أكثر مما تُريحنا، كأنما نحن نحملها لا هي التي تحملنا. حتى إذا وصلنا الحديقة مسحت عيني، أحسب نفسي في منام! ظل ظليل ونسيم عليل وماءٌ جارٍ، ونخل ورمان وعنب وتين ومشمش وتفاح، وورد وفُلّ... فشربنا الشاي الأخضر بالنعنع، والمرطبات بالليمون الغض، ورجعنا ومع كلٍّ منّا صرّةٌ من الثمار وطاقة من الورد والفل.

الأحد ١٩ مايس ١٩٣٥

أمضينا صباح هذا اليوم نرى البلدة. وهي صغيرة وفيها حيّان، الحي الأعلى ويسمونه «الشقيق»، وهو من جهة الشام، والحي الأسفل ويسمونه «الحلف»، وهو من ناحية المدينة المنورة، والحيّ الأول قديم والثاني جديد. وفيها خمسة مساجد،



العلا: الحي الجديد (في الأعلى)
والحي القديم (أسفل يسار الصورة)

ومساجدها -كما رأينا من المساجد في تبوك والقريات- غرف سُقوفها من سعف النخل عليه الطين وأرضها من الرمل الناعم، وهم يرون أن هذه هي السنّة لا يجوز فيها غيرها! وفيها مدرسة ذات ثلاثة فصول، فيها ثلاثة معلمين ومئة وخمسون تلميذاً[1].

وفي العُلا من العيون والسواقي والحدائق والزروع ما يذكّر المرءَ بالغوطة ووادي بَرَدى، وفي جبالها -من جهة الشام- كتابات لم أستطع أن أقترب منها فأتبيّنها.

---

(١) هذا الوصف كله سنة ١٩٣٥.



ثم ودّعْنا الأميرَ ومشينا، فلما جاوزنا الوادي عادت الصحراء واختفت تلك الجِنان والحدائق، فذكرت قصة «المدينة المفقودة»، وحسبت أني كنت في حلم وصحوت منه. ثم تصايح أصحابنا: البِطّيخ، البِطّيخ! فنظرت فإذا البطيخ تمتد عروقه على الأرض ولكنه دون بطيخنا في الحجم، وهَمّوا بأن يقطفوا من ثمره، فضحك الدليل وقال لهم: هذا الحنظل!

ومررنا بشجر الأَثْل، وهو شجر عالٍ له ورق دقيق أخضر يشبه النبات الذي يسمّى في الشام «ورق الهواء». ووقفنا ساعة الأصيل في واد جميل كأنه امتداد لوادي العلا، في جوانبه كلها



هذا الأثل، تتحرك أوراقه الناعمة فتبعث بالنسيم الرخيّ كأنما هي مروحة في يد حبيب! وكان الليل قد أظلم، فبتنا في هذا الوادي.

الإثنين ٢٠ مايس ١٩٣٥

أصبحنا، فسرنا قليلاً فوصلنا مدائن صالح، وكنا قد ابتعدنا عن المدينة ٣٦٧ كيلاً بالسيارة.

كنت مرة مع جماعة في الشام، أكثرهم من الشيوخ المسنّين، فذكروا مدائن صالح، فروَوا ما يقول القُصّاص فيها من أنها مقلوبة قلباً، حتى إن أرض الدور فوق وسقفها تحت، محتجّين بقوله تعالى: ﴿فجعَلْنا عالِيَها سافِلَها﴾. فقلت لهم: إن الله قال: "فجعلنا عاليها سافلها"، أي هدمناها وسوّيناها بالأرض، ولم يقل: "فجعلنا سافلها عاليها"، وأنا قد زرتها فما رأيت فيها شيئاً مما



تقولون. قالوا: أنت وهابي لا تُصدَّق!

والذي رأيناه في مدائن صالح صخور منفردة كبيرة قد نُقِر فيها مثلُ الغرف، وقد زُيِّنَت واجهتها وجُعل للباب إطار مزيَّن بنقوش أكثرها على صورة دَرَج، وفوق الباب صورة نسر حوله كتابات لم نستطع تبيّنها لأننا لم نقف عليها إلا قليلاً، لنهي الرسول ﷺ عن طول الوقوف بها. ومن هذه الأبواب ما هو عظيم يزيد ارتفاعه على خمسة عشر متراً وفيه نقش دقيق، ومنه ما هو صغير سيّئ النقش.

والمحطة قريبة منها، وهي أكبر محطة على طريق السكة الحديدية، فيها كثير من الحافلات، وفيها ماء عذب، وحولها بساتين تُزرع فيها الخَضروات وينزل بالقرب منها الأعراب، ولما وصلنا إليها كنا قد مشينا منذ فارقنا المدينة ثلاثمئة وسبعة وستين كيلاً.

بعد المدائن بخمسة وعشرين كيلاً دخلنا في جبال الخور الصخرية الهائلة التي تقدّم وصفها. وهي شقّ في سلسلة الجبال


محطة مدائن صالح

التي تعترض الطريق بصخورها، ندخل فيه فلا يلبث أن يستدير ويمر وسط الجبل كأنه نفق، حتى ينفذ من الجهة الأخرى. وله فروع ثلاثة، أولها اسمه «مبرك الناقة»، وكان طريق الحج البرّي القديم عليه ومنه يمرّ القطار. والثاني «خور حمار»، وهو طريق السيارات، وهو أشدّها وأصعبها، والثالث هو «خور نعجة». وكلها مملوء بالرمل الناعم الدقيق، فلو حفرت فيه عشرين متراً لما وصلت إلى الأرض! ولو أنعمت النظر فيه لوجدته في حركة



دائمة، ينتقل من مكان إلى مكان بأيسر نسمة وأخفّها، لذلك كان في مبرك الناقة عمّال يزيحون الرمل عن الخط دائماً، فإن تركوه يومين غطّاه الرمل. وطول الخور أحد عشر كيلاً، ولكنا ما قطعناه حتى قطعنا فيه يوماً كاملاً (ويبعد أوله عن المدائن ثلاثة وعشرين كيلاً).

وقد بتنا في أوله نشتغل في إعداد السيارات لاجتيازه، نجمع لها الحشائش فنضعها تحتها ونمد تحت الحشائش الشريط والأخشاب، ثم لا نستطيع أن نجوز بها، لأن الخشب يغوص في الرمل والشريط يلتفّ على الدولاب، وما استرحنا حتى انتصف الليل وسقطنا من الإعياء.

الثلاثاء ٢١ مايس ١٩٣٥

لمّا أصبحنا نظرنا فإذا المشهد الذي نراه يستحق أن تُشَدّ إليه الرحال من آخر الأرض؛ أمامنا مدخل الخور وعلى جانبيه صخرتان قائمتان كناطحتَي سحاب، يزيد علوهما عن مئة متر، يبدو من خلالهما هذا الزُّقاق الضيق، ومن فرج الصخر من ورائنا يلوح السهل الذي خلّفناه تحف به هذه الذُّرى العجيبة الماثلة

الصورة في الصفحة اليمنى: ممر «مبرك الناقة»، وهو ممر مهيب يخترقه الطريقُ الصحراوي بين العلا وتبوك. وقد سلكت هذا الطريق عشرات المرات في العقود الأربعة الماضية مسافراً عبر الصحراء بين جُدّة وعَمّان، وطوّفتُ في هذه المدة ببلدان كثيرة في أربع قارات، فلم أرَ أجَلَّ وأجمل من تلك القطعة من الأرض بجبالها وصخورها العجيبة التي تكاد تكون من أعاجيب الدنيا الطبيعية بلا منازع (مجاهد).

كالتماثيل والبروج، ومن تحتنا رمل أبيض ناعم متموج، قد رسم النسيم على وجهه مثلَ موجات الماء على وجه البحيرة الساكنة، ومن حولنا من نبات الصحراء كل يانع مخْضَر.

فمن ذلك «الطَّرْف»، وله زهر أبيض كالقطن، وهم يتّخذونه حشواً للوسائد. إلى «الجَثْجاث»، وهو كالأقحوان له زهر أصفر، ولكن أغصانه أطول وزهره أكبر، وهو يعلو عن الأرض قريباً من ذراع. إلى «الخِرْوَع»، وورقه أخضر مستطيل. تقوم خلال تلك أشجار الطَّلْح، وهي أشجار كبيرة لها ورق دقيق جداً وشوك كثير.

ولولا أنه كان علينا العمل لإمرار السيارات، ولا تمرّ إلا بشق الأنفس، لكان يومُنا متعة وأنساً ونزهة ليس لها نظير. ورحنا نعمل، يشتغل فريق منا حتى يسيل منهم العرق ويبلغ منهم التعب، ثم يقعدون ويقوم آخرون.



وكان هؤلاء الأدلاء من البدو كلما أكلوا من طعامنا قالوا: أين هذا من الحنينة؟ لا شيء أطيب ولا أمرأ من الحنينة! فكنّا أبداً نشتهي هذه الحنينة وننتظر أن نذوقها، وهم يَعِدوننا ويمنّوننا، فلما لبثنا هذا اليوم في الخور أرادوا أن يكرمونا ويُنسونا ألم التعب بلذة الأكل، فأعدوا لنا الحنينة.

جاؤوا بالدقيق فعجنوه بالأيدي القذرة ذات الأظافر السود، وصبوا عليه السمن النِّيء ومزجوه به، ثم جاؤوا بالعجوة فعجنوها معه، فكانت الأكلة من ثلاثة أجزاء متساوية: جزء من الدقيق، وجزء من السمن، وجزء من العجوة. وانضمّ إليها جزء مثل ذلك من الرمل الذي طار إليها، وجزء من الشعر الذي نزل من رؤوسهم ومن لحاهم فيها!

وكنا نريد أن نفطر الصبح، فقالوا: لا، بل تصبرون حتى تأكلوا الحنينة على الريق. فصبرنا وصبرنا حتى اقترب الظهر ولم تنتهِ الحنينة. ثم جاءت، فأقبلوا عليها بأيديهم يكبكبون ويرمون في حلوقهم، وجئت لآكل فلم أستطع، فجاؤوني بملعقة لم تُغسَل من خمسة أشهر وثلاثة أيام، عليها أربعة وثلاثون غراماً من الأوساخ! فحاولت أن آكل بها فلم أقدر، فأخذت بين إصبعيّ شيئاً من هذه الآفة التي اسمها الحنينة، وأغمضت عيني ووضعتها في فمي، فغَثَتْ نفسي، فقمت فلفظتها بعيداً. وذهبت أفتش، فوجدت بعد التعب كسرة يابسة من الخبز وشيئاً من التمر، فأكلته وحمدت الله عليه وعلى النجاة من الحنينة!

ولما خلصنا من الخور كان أكثر النهار قد ولّى، فسرنا نستقبل الشام وقد خلّفنا بَواديَ الحجاز وراء الخور. وكان حولنا



رحلة الحجاز ١٩٣٠



الكتابة على الصورة بخط المؤلف

بيداء واسعة فيها رملات معدودة ما كنا نلقى في قطعها كبير عناء، وهضاب متفرقة، ومررنا بجبل عال في أعلاه صخرة مخروقة من فعل الرياح، يسمونه «أبو طاقة».

ووصلنا إلى جبل الأقرع الذي لقينا من شدائده في القدوم ما علم القارئ بعضاً منه، فلم نقترب منه، بل درنا حوله، حتى إذا ابتعدنا عنه ونجونا منه نزلنا للمبيت في أرض مستوية مرصوفة بحصى دقيق. كنا قد ابتعدنا عن المدينة ٤٣٥ كيلاً، وكان جبل المطلع أمامنا.

الأربعاء ٢٢ مايس ١٩٣٥

فررنا من «المطلع» مثلما فررنا من «الأقرع»، لأننا لم ننسَ ما جرّعَنا هو وأخوه في القدوم. ومشينا عشرين كيلاً فوصلنا إلى «البريكة»، وهي إحدى محطات الحج البري القديم، وكانت



قلعة البريكة قبل التهديم، وتسمى أيضاً قلعة «الدار الحمراء».

قلعتها مهدمة وبركتها مخربة وبئرها جافة، فلم نقف عليها.

ومررنا بخشم صنعاء[1]، وكنا نمشي بجنب السكة وكانت من حولنا أشجار الطلح، ثم صار مسيرنا في شبه واد بين جبلين، ذكَرْنا به وادي بردى بعد «التكيّة». ووقفنا قليلاً في محطة صنعاء، وهي من محطات السكة، وأخذنا نهبط بعدها حتى انتهينا إلى فلاة فسيحة، ثم دخلنا بين جبال هرمة أحجارها رخوة، كأنها ألواح رقيقة تتفتت من وطء السيارة، ثم توعر الطريق وكثرت الحجارة.

ولما ابتعدنا عن الخور مئة وأربعة وأربعين كيلاً صرنا في سهل مثل الكف وأرض مستوية، وقد هطلت الأمطار وامتلأت الأرض بالبرك وعَطِر الجوّ برائحة التراب المُبتلّ، فانتعشت النفوس وطاب اليوم وامتلأت قلوبنا نشوة. سرنا في هذه الأرض المستوية أربعة عشر كيلاً، ثم صار مَشيُنا بين هضابٍ وقُور[2] كأنها الأهرام، ثم عادت الأرض مستوية.

وما زالت الصحراء تتلوّن من حولنا، تشتد وتلين، تتبدل مشاهدها وتتغير طبيعتها، حتى بلغنا تبوك في المساء. وكنا قد قطعنا في هذا اليوم وحده ٢٨٣ كيلاً، وكان مجموع ما قطعناه من المدينة إلى تبوك ٧١٨ من الأكيال.

* * *

(١) الخشم في عرف أهل البادية جبل له صخرة بارزة أو شعبة معترضة.
(٢) جمع قارة، وقد تقدم معناها في الحاشية ص٨١ (مجاهد).

من ذكريات الحج

نشرت سنة ١٩٥٥*

في هذه الساعة يقوم الحجاج في عرفة يُلَبّون ويُهَلّلون. إذا لم يسعدكم الحظ بأن تكونوا اليوم معهم فلا أقل من أن تستمعوا الحديث عنهم، لذلك أستأذنكم أن أجعل حديثي اليوم عن الحج.

ألا ترون العروق الشَّعرية كيف تحمل الدم من أطراف الجسم ثم تصبه في الأوردة الكبار، حتى يدور دورته في القلب مجتمعاً وفي الرئة منتشراً، فيُنقَّى من الوضَر ويصفو بعد العكَر، ويعود في الشرايين دماً أحمر جديداً بعد أن كان في الأوردة دماً أسود فاسداً؟ كذلك الحج.

يأتي المسلمون من آفاق الأرض الأربعة أفراداً، ثم ينتظمون جماعات، ثم يدورون حول الكعبة، قلب الأرض المسلمة، ثم ينتشرون في عرفات، رئة الجسم الإسلامي، فتصفّي نفوسَهم من أكدار الشهوات وتنقيها من أوضار الذنوب، فيعودون إلى بلادهم

* لما صدرت طبعة الكتاب الثانية سنة ١٩٨٠ أضاف جدي رحمه الله في هذا الموضع حاشية قال فيها: "كتبت هذه المقالة قبل أن أتشرف بالمجاورة في مكة، من سنة ١٩٦٣ إلى الآن" (مجاهد).

أطهاراً، قد استبدلوا بتلك النفوس نفوساً جديدة كأنها ما عرفت الإثم ولا قاربت المعاصي.

لذلك كان الحج أكبر أمنية يتمناها لنفسه المسلمُ ويتمناها له إخوانه وأصدقاؤه، فهم إذا دَعَوا له دعوة صالحة دعوا له بالحج، وإن شكروا له يداً أو معروفاً قالوا له: "إن شاء الله بحجّك"، ويعبّرون عن ذلك تعبيراً فيه معنى لا تعبر عنه الألفاظ الكثيرة، إذ يقولون: "الله يطعمك إياها".

وإذا كان أقصى ما يتمناه من يقدّر العالِم أو يُكبر الكاتب أو يهوى الحبيب أن يزور البيت الذي وُلد فيه والعش الذي خرج منه والمواطن التي شهدت طفولته وصباه وكهولته وموته، ويطأ الأرض التي وطئ وينشق الهواء الذي نشق، فكيف لا يتمنى المسلم أن يزور موطن الروح ومهوى القلب، الأرض التي انبلج منها فجر الإسلام وأشرقت منها شمسه، وعاش في ربوعها أعظمُ العظماء وسيد الأنبياء، حبيب قلب كل مسلم، ومن هو أعز عليه وأحب إليه من أمه وأبيه وولده وأهله، ويدخل من باب السلام ويبصر البيت الحرام، ويطوف بالكعبة والحطيم ويرى زمزم والمقام؟

هنالك الفرحة الكبرى التي لا تعدلها أفراح الدنيا، وهنالك اللقاء، لا لقاء الحبيب بعد طول الهجران، وهنالك الموكب النوراني الذي يمر من حول الكعبة، موكب الطائفين من كل جنس ولون، من بيض وسمر وسود وشقر، وشيوخ وفتيان ورجال ونسوان، من كل قطر من أقطار الأرض، ينادون بكل لسان، يدعون رباً واحداً يسألونه، وهو الكريم لا يرد سائلاً ولا يُضجره سؤال.

* * *

إنكم لتعجبون إن رأيتم موكباً يمشي ساعات لا يقف ولا ينقطع، أو أبصرتم جيشاً يلبث أياماً وهو يمر لا يتريث ولا ينفد، فاعجبوا، واعجبوا أشد العجب من موكب بدأ يمشي من خمسة آلاف سنة، من يوم بنى إبراهيم هذه البَنِيّة[١]، ولا يزال يمشي إلى اليوم، يطوف بهذه الغرفة القائمة في واد غير ذي زرع من بطن مكة، المبنيّة بالحجارة السود، الخالية من الصقل والتهذيب والزخارف والنقوش. ومن نِعَم الله على الإسلام أنها بقيت كما هي فلم تمتدّ إليها اليد بمثل الفن الذي أراقته العبقرية الإسلامية على الأموي وقبة الصخرة والحمراء وتاج محل[٢]، لأن كل بارع من الفن قد يوجَد ما هو أبرع منه، أما الفطرة الساذجة التي شيدت بها الكعبة فستظل أبداً نسيج وحدها في العظمة والخلود.

هذا الموكب الذي بدأ يمشي من خمسة آلاف سنة ولا يزال يمشي إلى اليوم، وسيقف كل جيش في الدنيا مهما بلغ من القوة والعديد، وكل موكب بشري مهما حوى من الفخامة والعظمة، ويظل هذا الموكب يمشي، يمشي ما بقي الزمان ماشياً على طريق الأبد، يمشي في وَقدة الشمس المتلظّية في آب، ويمشي في قرّة الشتاء في كانون، ويمشي في رَأْد الضحى[٣] ويمشي في هدأة

---

(١) البَنِيّة والبِنْية والبُنْية كل ما يُبنى، كالبُنيان، إلا أن الأولى إذا أُطلقت انصرفت إلى الكعبة خاصة (مجاهد).

(٢) تاج محل في أكرا قرب دهلي، أجمل بناء على ظهر الأرض، بناه الإمبراطور المسلم شاهجهان مدفناً لزوجته ممتاز محل.

(٣) رأد الضحى هو أول النهار أو ارتفاع شمسه (مجاهد).

السّحَر، يمشي في الليل وفي النهار، يمشي في هناءة السلم وفي غمرة الحرب، يمشي رغم النكبات والمصاعب والأهوال.

لم تقف سَيرَه جيوشُ الصليبيين لمّا رمتنا بها أوربا فجاءت كالسيل المنهمر، ولكنه سيل من نار مدمرة وهلاك مبيد، ولا القرامطة لمّا ثاروا ثورة البركان يرمي بالحمم، وعاثوا في الأرض فساداً وتدميراً، وأدخلوا الموت إلى الحرم الآمن ولطخوا بدم الطائفين أرض المطاف، ولا المَغول لمّا هبوا كما تهب الريح الصرصر العاتية تدمر كل شيء... لا، وليس في الوجود قوة بشرية تستطيع أن تقف موكبَ الخلود الذي يطوف أبداً حول الكعبة البيت الحرام.

* * *

يا أيها السامعون والسامعات: إنه ليس الخبر كالعيان، وأنا مهما أوتيت من البيان لا أستطيع أن أصف لكم ما يحس به الحاج عندما يقف على باب الحرم ويرى الكعبة لأول مرة، فقولوا: آمين؛ أسأل الله أن يكتب لمن يريد منكم ألّا يموت حتى تكتحل عينه برؤية هذا المشهد، مشهد الكعبة. الكعبة التي تتوجهون إليها من الشام ومصر والمغرب والمشرق وكل بلد على ظهر الأرض، تتخيلونها بقلوبكم من وراء الجبال والصحارى والآكام البعاد، وكلما اقتربتم منها مرحلة شعرتم بازدياد الشوق وغلبة الجهد. تحسّون كأنكم تدنون من الحبيب ودونه الحُجُب والأستار، فلا تزال تُرفَع لكم حجاباً بعد حجاب وستراً بعد ستر حتى تروا طلعة الحبيب. وأين طلعته من طلعة الكعبة، قبلة الإسلام ومهوى القلوب؟

ها هي ذي الكعبة يا ناس، وهذا الحَطيم وزمزم والمَقام[١].

لقد صحّت الرؤى وتحققت الأحلام، وهؤلاء المسلمون يتحلّقون حولها صفوفاً وراءها صفوف، صفوف تمتد إلى خارج الحرم، إلى وراء الحجاز، إلى الدنيا كلها. فهذه مركز الدائرة وهذه سرّة الأرض، وهنا يلتقي المكان كله، فالمشرق هنا والمغرب، والنائي من الأرض والداني، وهنا الشام ومصر والعراق والمغرب وفارس والمشرق، والهند هنا وجاوة والأرض المسلمة كلها، وقد جاء أبناؤها من كل مكان، كما تصبّ الجداول في النهر الأعظم تدور معه حتى تستقر معه في حضن البحر الرحيب؛ يطوفون بالكعبة ثم يمضون إلى حضن عرفات، فلا ترى إلا بحراً يموج بالسفائن البيض، بالخيام التي تبسم طهراً لعين الشمس.

قلت لكم أنه ليس الوصف كالعيان، ولا يستطيع قلم ولا لسان أن يصف لكم هاتيك العواطف السماوية التي تملأ قلب المسلم إذ يطوف بالكعبة فيخرج من حاضره وينسى دنياه، ويرى أمامه هذا الموكب الطويل يمتد خلال الزمان، فيبصر الخلفاء تمشي معه، والصالحين والعبّاد والأئمة، ويرى أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً، ويبصر رسول الله ﷺ، فهو يمشي على أثره، يدور من حيث دار، ويضع شفتيه موضع شفتَي محمد الحبيب على الحجر الأسود.

---

(١) الحَطيم هو حِجْر إسماعيل، وهو قوس حجري في الجهة الشمالية من الكعبة، بين الركن الشامي والركن العراقي. والمقام مقام إبراهيم. وكل ذلك مضى وصفُه وتجدون صورَه فيما مضى من فصول هذا الكتاب (مجاهد).

صدِّقوني: إن كل لذّات الدنيا، بطعامها وشرابها ولباسها ومتع شهواتها ومناعم أموالها، لا تبلغ ذرة من اللذة الروحية التي يشعر بها الحاجّ وهو يلثم الحجر الأسود الذي لثمه محمد، ومن قبله أبو الأنبياء إبراهيم، صلى الله عليهم جميعاً.

فقولوا آمين: أسأل الله أن لا يحرمكم هذه النعمة.

* * *

وعرفات. إنها لن ترى عينُ البشر مشهداً آخر مثله، هيهات! ما في الدنيا ثانٍ لهذا المشهد العظيم. ولقد يجتمع في المعارض والألعاب الأولمبية واحتفالات التتويج في بلاد الغرب حشود من الناس وحشود، ولكنْ شتّانَ ما بين الفريقين، أولئك جاؤوا للمتعة والفرجة والتجارة، وحملوا معهم دنياهم وقصدوا بلداً زاخراً بأسباب اللذة والتسلية، وهؤلاء خلّوا دنياهم وراء ظهورهم ونزعوها عن أجسادهم ومن قلوبهم، وقصدوا بلداً قفراً مجدباً، صحراء ما فيها ظل ولا ماء، لا يريدون إلا وجه الله.

مشهدٌ لو كان يجوز أن يشهده غيرُ مسلم لاقترحت أن تجعله هيئة الأمم المتحدة عيدَها الأكبر، إذ هنا أُعلنت حقوق الإنسان، لا كما أُعلنت في الثورة الفرنسية ولا كميثاق الأطلنطي الذي كُتب على الماء. أُعلنت قبل ذلك بأكثر من ألف سنة، وطُبِّقت حقيقة، يوم قام سيدنا محمد ﷺ في حجة الوداع، فأعلن الحرية والمساواة وحرمة الدماء.

وكان هذا المشهد في كل سنة دليلاً قائماً يملأ عيون البشر وأسماعهم على أن ما قرره محمد عليه الصلاة والسلام قد طُبِّق

أكمل التطبيق. مشهد يهدم الفروق كلها، فروق الطبقات وفروق الألوان وفروق الأجناس: الناس كلهم إخوة، لا ميزة لأحد على أحد إلا بالعمل الصالح. وإذا كان اللباس الرسمي في الحفلات والمواقف الرسمية ما تعرفون، فاللباس الرسمي هنا قطعتان من قماش فقط، لا خياطةَ ولا أناقةَ ولا زخرفَ، ولا يفترق في هذا المقام أكبرُ ملك عن أصغر شحّاد.

إنه مشهد عجيب، إنه أعجوبة الأعاجيب.

عشرات وعشرات من آلاف الخيام، تحتها أقوام من كل بقعة في الأرض، لا يجمعهم لون ولا لسان ولا بلد، ولكنهم لا يقفون ساعةً حتى يحسّ كل واحد أنه أخ للآخر، أعز عليه من أخيه لأمه وأبيه. إخوان وحَّدَتهم العقيدة ووحّدتهم القبلة، وربما عادى الأخ أخاه حقيقةً إن لم يكن دينُه من دينه، لأن أخوّة الدين أقوى من أخوّة النسب.

إنهم يضجّون بكل لغة، يهتفون جميعاً: لبَّيكَ اللهمَّ لبيك، لبيك إنّ الحمد لك والمُلْك، لا شريك لك. دعوتَنا فجئنا من أقاصي الدنيا، لم تمنعنا الجبال ولا القفار ولا البحار، ولم يمسكنا حب الأهل والولد. دعوتَنا إلى القرآن لا قراءة وترنيماً وتنغيماً، بل عملاً وتطبيقاً، فقلنا: لبيك اللهمّ لبيك. دعوتنا إلى العزة والوحدة والصدق في القول والعمل، فقلنا: لبيك اللهم لبيك. دعوتنا إلى الجهاد، جهاد النفس وجهاد الكافرين، فقلنا: لبيك اللهم لبيك.

لبّيكَ اللهمَّ لبّيك، لبيك إن الحمد لك والملك، لا شريك لك.

إن الحج هو الدّورة التدريبية الكبرى التي تقوّي الأجسام والأرواح، التي تربّي الأجساد والقلوب، التي تُعدّ للحق جيشاً جندُه متمرسون بالشدائد، حمّالون للمصاعب، سامون بأرواحهم إلى حيث لا تستطيع أن تبلغ مداه روح. إن الحج عيش في تاريخ المجد، في سيرة الرسول، في سماء الإيمان؛ إنه النهر الذي يغسل أوضار الناس، إنه الرئة التي تصفّي الدم وترده أحمرَ نظيفاً مملوءاً بالصحة والحياة. إنه المؤتمر الإسلامي الأكبر.

أسأل الله أن يكتبه لمَن لم ينعم به منكم، وأن يجعل لي ولمن حجّ معاداً إليه، وأن يبارك لكم في عيدكم، ويوفقكم فيه إلى كل ما يرضيه.

* * *

المدينة

تشرفت بزيارة المدينة سنة ١٩٣٥، ثم رجعت إليها متشرّفاً بزيارتها سنة ١٩٥٦. وقد رأى القارئ كيف قطعنا الصحراء إليها أولَ مرة وما صَرّمنا فيها من أيام وما حملنا فيها من الشدائد، وركبت إليها المرةَ الثانيةَ طائرةً حديثة قوية، فقطعت بنا في ثلاث ساعات ما قطعناه أول مرة في عشرين يوماً!

وكنت أنظر من شبّاك الطيارة إلى الصحراء وهي تحتي، أراها كأنها بساط متموّج، فأذكر كم لقينا فيها في رحلتنا الأولى، وكم أحسسنا من اللذة والألم والخوف والاطمئنان، وكم رأينا الموت يحيط بنا، حتى إذا قلت: "قد أَخَذَنَا" عاد فابتعد عنا.

لقد ربحنا الزمن ولكنّا خسرنا العواطف والأفكار والتأملات. وهل يحس راكب الطيّارة بواحد من ألف ممّا أحسسنا به ونحن نقتحم الصحراء، نتسلق جبالها ونخوض رمالها، ونشهد أصباحها وأماسيها وليلها ونهارها؟

واستغرقتُ في أفكاري، فما راعني إلا جبال المدينة قائمة أمامنا كالسدّ الهائل والطيارة مقبلة عليها كالبرق، فأغمضت عيني وتصورت أني أحسّ رجة الاصطدام، وإذا بها تنحرف عنه فتمرق

بين الجبلين، وتحط في بسيط من الأرض تطيف به الجبال من الجهات الأربع، كأن الله قد أخلى هذه البقعة وحدها من الصخر ومهّدها مستويةً بين تلك الجبال ليكون منها في آخر الزمان مطار المدينة! وكانت هنالك عمارة جديدة فخمة لكنها لم تكن قد سُكنت، فكان موظفو المطار في ظلّة مؤقتة أقيمت إلى جنبها.

وسرنا إلى المدينة تخترق بنا السياراتُ أوديةً شُقّ فيها الطريق، حتى خرجنا مرة ثانية إلى الصحراء. ولاحت لنا المدينة وبدت لنا القبة الخضراء، فغلبتنا الأشواق وملَكَنا الحنين. ولئن كان في الأرض بقعة يشعر فيها المرء أنه في الجنة حقاً فهي الحرم النبوي، ولعلها معجزة دائمة للرسول، إذ خبّر أن ما بين بيته ومنبره روضة من رياض الجنة.

وإذا كان الناس يرحلون ليروا الأرض التي كانت عليها المعركة من المعارك أو الدار التي عاش فيها العظيم من العظماء، فها هنا كانت المعركة الخالدة بين الخير والشر، وها هنا عاش



مطار المدينة كما كان وقت كتابة هذه المقالة

أعظم عظيم وأفضل إنسان؛ من هنا انبثق مَعين الحضارة الذي استقى الغربيون يوماً من مائه، من الأندلس حين كانوا يَرِدون تلاميذَ يأخذون من كتب ابن رشد وابن سينا، ومن فلسطين حين جاؤونا يحملون إلينا الموت والخراب، فانصرفوا وهم يحملون من عندنا الحياة والعمران كما يحملون مرارة الهزيمة وألم الفشل. ومن هنا كان لنا الهدى، ومن هنا كان لنا المجد، وكل خير نلقاه كان مصدره من هنا.

ولو كان محمد عليه الصلاة والسلام يريد الدنيا وبنى لها لكانت داره مثابةَ العصور وأهلها، ولكنه كان يريد الآخرة، فكانت داره غرفاً صغاراً من اللبن والطين، وكذلك كان مسجده، ما شاد ولا زخرف، وإن كان كل مسجد في الأرض هو في حقيقته أثر من آثار محمد: من الأموي وقبة الصخرة وجامع قرطبة والمسجد الجامع في دهلي، إلى الحرمين اللذين صارا الآن من تحف العمران. ومن آثاره النظاميّةُ[١] والأزهر وجامع القرويين في فاس ومدرسة ديوبند في الهند، وهذه المكتبة الهائلة التي أبادت تسعةَ أعشارها نكباتُ العصور الخوالي، وما وصل إلينا لا تزال المطابعُ من مئة سنة تطبع منه، ولم تطبع ممّا بقي إلّا القليل.

* * *

---

(١) التي أسّسها نظام المُلك السلجوقي في بغداد في منتصف القرن الخامس، وكانت من أعظم المدارس في وقتها، وتولى التدريس فيها جِلّة من كبار علماء الإسلام، كأبي إسحاق الشيرازي والغزالي والجويني (مجاهد).

لمّا زرنا المدينة أولَ مرة كانت مهملة مُضاعة منقطعة عن الدنيا، قد عطّل الإنكليز الخط الحديدي الذي كان لها كالشريان للإنسان يحمل إليه الدم الذي تكون به الحياة، وكالساقية للنبات تجيئها بالماء الذي يجيء بفقده الموت. لقد ساء الإنكليز أن يمتد ذلك الخط وأن يُفتَح للعرب الطريق الذي سلكوه أولَ مرة إلى الشام فملكوها ثم أنشؤوا فيها دولة الإسلام، فما وجدوا المجال لتعطيله حتى عطّلوه، وكان تعطيله وتخريبه بأيدينا نحن مع الأسف. لقد كان أعداؤنا ﴿يُخْرِبون بُيوتَهم بأيديهِم وأيدي المُؤمنين﴾، فرحنا نخرّب طرقنا بأيدينا وأيدي الإنكليز؛ ﴿فاعْتَبِروا يا أولي الأبصار﴾.

ولمّا زرناها سنة ١٩٥٦ وجدناها قد أخذت تتصل بالدنيا بهذا المطار الفخم الذي أنشئ فيها، ووجدنا يد الرعاية والإصلاح قد مسّتها بعد أن كانت بعيدة عنها. ووجدنا العمارات الجديدة قد بدت طلائعُها فيها، ومن ذلك دار الضيافة التي أنزلونا فيها، فلقينا فيها من الإكرام والعناية ومن جودة الفرش وطيب الطعام ولطف المدير ما لا ننساه.

وكان من المصادفات أن وصلنا في رمضان، فلما دنا المغرب وصُفَّت الأواني ووُضعت الأطباق وتصاعدت رائحة الطعام الشهية لم يبقَ لنا صبر، وجعلنا عيونَنا في ساعاتنا، نرى الثواني من بطئها كالساعات، فما صدّقنا لمّا سمعنا الأذان أنْ قد أذّن حقيقة. ومددنا أيدينا، وإذا الطعام مملوء بالفلفل الذي يحرق الحلق ويطير العقل، فذكرت أيامي في الهند وأندونيسيا وقلت: ما هذا يا قوم؟ ألحقنا طعام الهند إلى الحجاز؟

فضحكوا وبيَّنوا، وإذا هو سفير الباكستان قد نزل الدار ففَلْفَلوا من أجله الطعام، وإذا الهند قد لحقتنا حقاً إلى المدينة!

❋ ❋ ❋

وكان الحرم في سنة ١٩٣٥ كالأموي في دمشق، محجوباً بالبيوت والدكاكين لا يبدو منه إلا أبوابه، وكان الذي يخرج من باب السلام لا يصل إلى باب المجيدية حتى يلفّ ويدور، كمَن يخرج من باب النّوفرة في الأموي إلى باب العمارة! فوجدته سنة ١٩٥٦ ظاهرَ الجدران بارز الأركان بادي الجلال، تُطيف به من الجهات الأربع شوارعُ فسيحة، ووجدته بعد التجديد والتوسيع آيةً في عظمة البناء. ولكنك إذا ولجته لم تجد فيه (مع الأسف) شيئاً مما كان ينبغي أن يكون فيه، فلا مجالسَ علم ولا حلقات



الحرم بعد التوسعة الأولى

دروس، وما فيه مدرّس ولا تالٍ مجوّد يشرح ويفسر! ووجدت السائلين يملؤون المسجد. أمّا ما كان يُصنَع عند القبر فقد أُبطل وتعوّد الناس الزيارة المشروعة (والقبر الشريف تحت أرض الحجرة لا يُرى، والصورة المتداوَلة التي يعلّقها الناس في البيوت والحوانيت ليست صورة القبر[١]). ومن مزايا المسجد النبوي أن فيه روائع الخط العربي، وخط الثُّلُث الذي رأيته فيه في أعلى الجدار القبلي لم أجد له في جودته نظيراً.

وقد آلمني أنّ البقيع قد صار[٢] كأنه حقل محروث ترابه ناعم، لم يبقَ فيه إلا قبور معدودة ظاهرة. ولقد رأيت بقايا عظام الموتى على وجه الأرض، لأنهم لا يبنون القبور بناء كما تُبنى في الشام ولا ينتظرون الميت سنين كما ننتظر، بل يحفرون أبداً[٣] ويدفنون، فتمتزج العظام ويكون هذا الذي رأينا. وما ضاقت الأرض ولا مُنع في غيره الدفن. وما عليهم لو تركوا البقيع وأظهروا قبور من دفن فيه (ولقد دُفن فيه أعلام الإسلام في الصدر الأول) لا يجصّصونها ولا يرفعون عليها القباب ولا يبنون عليها المساجد؟ فذلك كله لا يجوز، ولكن لا يحرثونه! المطلوب توسّط واعتدال بلا إفراط ولا تفريط.

* * *

(١) هي صورة القبر القائم وراء الحجرة المنسوب للسيدة فاطمة.
(٢) أي سنة ١٩٥٦.
(٣) أبداً هنا بمعنى دائماً.

وَقفةٌ في العقيق

وقفـة بالعقيق نطـرح ثِقَلاً
من دموعٍ بوقفة في العقيق
(البحتري)

نشرت سنة ١٩٣٥*

أصابتنا في المدينة عينٌ من المطر فحبستنا في الدار أياماً، وجاءت بعد مَحْل من الأرض وشحّ من السماء فرَوَّت البساتين وأسالت الأودية، فاستبشر الناس بنا[1]، إذ كان قدومنا خيراً وزيارتنا غيثاً ومقامنا ربيعاً. وليس أجمل في أرض العرب من الربيع ولا أجدى من الغيث.

ثم انقشعت الغيوم بعد أيام، إلا جَهاماً[2] من السحاب هفّاً

* كُتبَت أيامَ الرحلة، وأخّرتها إلى هذا الموضع من الكتاب لأنها أقرب إلى المقالة الأدبية منها لذكريات الرحلة. وقد نُشرت في «الرسالة» في جزأين، في العدد ١٠٩ الصادر بتاريخ ١٩٣٥/٨/٥ والعدد ١١٠ الصادر بتاريخ ١٩٣٥/٨/١٢ (مجاهد).

(١) أي بالوفد السوري.

(٢) الجهام هو السحاب لا ماء فيه (مجاهد).

رقيقاً، وأفتقَ قَرْنُ الشمس[1] فخلع على الدنيا حُلّة نُسجت من خيوط النور، وحَلَى اليومُ وطاب، فخرجنا من دورنا نستمتع بجماله وطيبه، ونملأ صدورنَا بهذا النسيم الناعش، وعيونَنا بهذه المناظر الخلابة، وآنافَنا بهذا الأرَج يتضوّع من هذه التربة المعطرة بعطر السماء.

وسرنا في شارع العنبرية نريد الحرم، فلم نكد نتعدى «المناخة» حتى قيل: قد سال العقيق. فإذا الوجوه تطفح بالبِشر وتفيض بالسرور، وإذا على كل لسان: قد سال العقيق! وإذا الناس كلهم يستعدون للخروج.

وهل يملك الناس نفوسهم فيقعدون لا يخرجون إلى العقيق وقد سال العقيق؟ وهل يذكر عربي العقيقَ ثم لا يذكر الحب والشعر والفن والجمال، والحياة الناعمة والعيش الرغيد؟ أوَ لم يكن وادي العقيق رمز الهوى والشباب، ومَغْنى الغِنى والغناء، ومثابة الفن والأدب، ومَجْمع العشاق ونَدِيّ الشعراء؟ ألم يولد على جنبات العقيق ديوان كامل من أبرع دواوين الأدب العربي وأحلاها؟ ألم تعش على أطراف العقيق العشراتُ من القصور الفخمة والرياض النضرة، والمغاني[2] التي فاض منها الشعر والسحر والعطر على الدنيا كلها؟ أليس لاسم العقيق حلاوة؟ أما

---

(١) أفتق قرن الشمس: أي بدا من فتق في السحاب (مجاهد).

(٢) المغاني جمع «مَغْنَى»، وهو في الأصل المنزلُ الذي غَنِيَ أهله فيه، وقد تُطلق على أي منزل. وكان جدي رحمه الله يعرّب بهذه الكلمة ما يُسمّى في لغة الإفرنج «الفيلا»، وهي الدّارة الواسعة الفاخرة (مجاهد).

عليه طلاوة؟ ألا يحلو في الأذن تكرارُه ويلذّ اللسانَ تردادُه؟

ألم يقرأ أحاديثَ العقيق ويروِ أشعارَ العقيق مَن لم يرَ قطّ العقيق، فيهوى العقيقَ ويحِنّ إلى العقيق؟ فكيف يسيل العقيق ثم لا يخرج أهل المدينة إلى العقيق؟ أوَ لم يسمع عبد العزيز بن الماجِشون أنْ قد سال العقيق وهو خارج من صلاة الصبح، فلا يتريث ولا يمرّ بداره، بل يمضي إليه من ساعته فيلهو فيه بعض اللهو ويسمع فيه الغناء، وهو هو في مكانته ووقاره؟ فكيف بعامة الناس وشبابهم؟[1]

* * *

خرجنا مع من خرج، فلم نجاوز السور ونترك عن أيماننا المحطة العظيمة، الخالية الخاوية، الكابية الباكية، التي أضاعها أهلوها وأهملوها فنسوها، حتى بدت لنا «الحرّة» السوداء الواسعة[2]، فسلكنا طريقاً فيها جديداً على يسار الطريق القديم

---

(١) الخبر في «الأغاني» (٦/ ٣٠)، وفيه عن ابن الماجِشون: "صلينا يوماً الصبح بالمدينة، فقال قوم: قد سال العقيق، فخرجنا من المسجد مبادرين إليه. فانتهينا إلى العَرْصة، فإذا من وراء الوادي قُبالتنا دَحْمان المغني وابن جُندَب مع طلوع الشمس قد تماسكا بينهما صوتاً ". قلت: تماسكا بينهما صوتاً أي يتبادلان الغناء ببيت شعر. وكان دحمان -على شهرته بالغناء- صالحاً كثير الصلاة مدمناً للحج، وله أخبار. وابن الماجِشون معروف، وهو من فقهاء المدينة، وابنه عبد الملك مثله (مجاهد).

(٢) وهي حرّة الوبرة، إحدى حرّتَي المدينة (أو لابتَيها).

الذي يهبط الحرة، على سلّم منقورة في الصخر، وهذه النقرة هي ثنيّة الوداع التي طلع منها رسول الله ﷺ فاستقبلته الولائد بالدفوف يُنشدنَ: "طلع البدر علينا"، والتي أشرق منها «البدر» على القلوب والعقول فأنارها، فهي منه في نور إلى يوم القيامة.

وسرنا في هذا الطريق نحواً من كيلين اثنين، فانتهينا إلى «بئر عروة» التي حفرها الإمام الزاهد العلَم عروة بن الزبير، فكانت في قصره العظيم الذي اندثر ولم يبقَ له من أثر. وهي أعذب بئر في المدينة وأطيبها، وكان ماؤها يُحمَل إلى الخلفاء وهم في دارات ملكهم، يؤثرونه على ينابيع الشام وفرات العراق. وإلى جانب البئر قهوة جديدة قامت على جذوع النخل، فجلسنا فيها على كراسيّ مستطيلة -تُتّخَذ في مقاهي الحجاز مجلساً وسريراً- نطل على الوادي العظيم.

والوادي رغيب[١]، بين عُدْوتَيه[٢] أكثر من مئة متر، وعلى العُدْوَة الأخرى جبال حمراء جميلة المنظر، وقد غثَا الوادي[٣] وامتلأ. وكان السيل دفّاعاً تلتطم أَواذِيّه[٤] وتصطخب أمواجه،

---

(١) أي متسع، والفعل منه رَغُب يرغُب (مجاهد).

(٢) العُدوتان طرفا الوادي وجانباه؛ في القرآن: ﴿إذ أنتم بالعُدوَة الدنيا وهم بالعُدوَة القصوى﴾ (مجاهد).

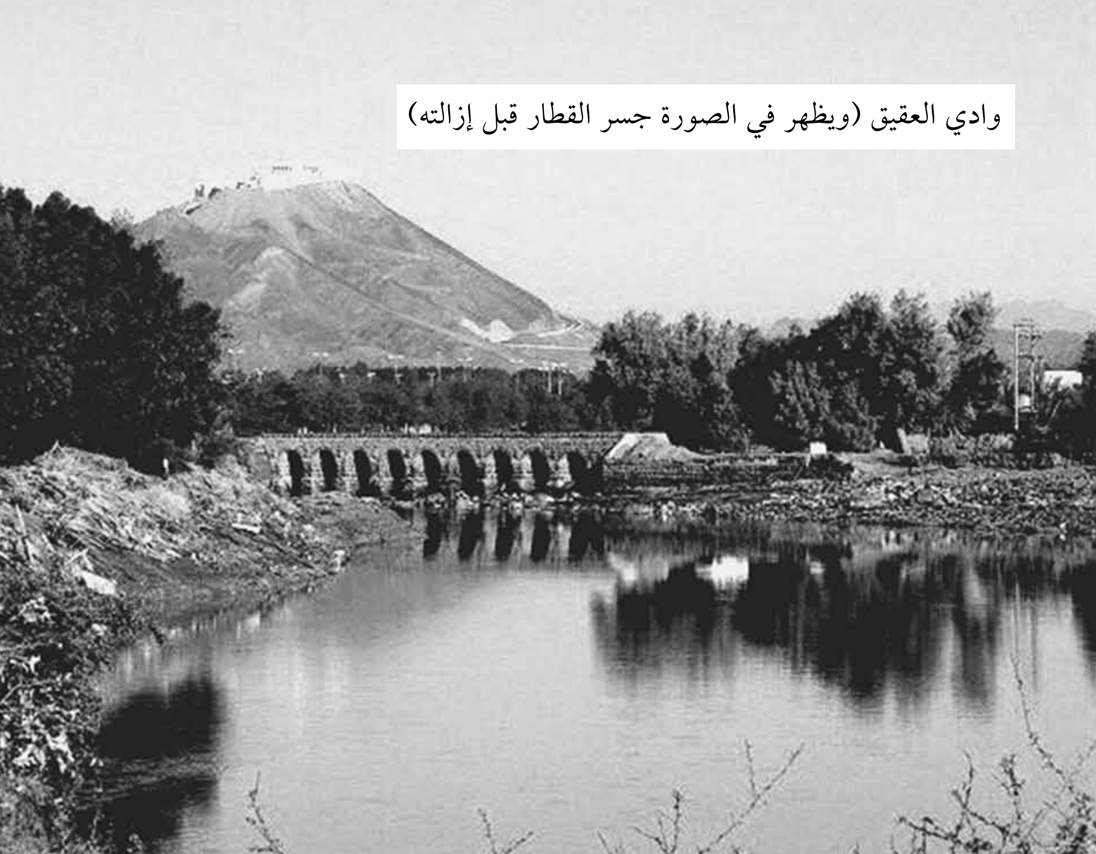
(٣) غثا الوادي: كثر فيه الغُثاء. وهو ما يحمله السيل من فُتات الأرض فيتخلّط برغوة الماء، والتشبيه به مشهور كما في حديث القصعة (مجاهد).

(٤) الأواذيّ جمع الآذيّ، وهو الموج، أو الموج الشديد خاصة، أو هو طبقات الماء التي ترفعها الريح عن سطحه (مجاهد).

يرمي بالزبد ويطوّح بالفقاقيع، ويجري متكسراً وله خَرْخَرة وله دَرْدَرة، وعلى جانب الماء حصباء واسعة قد جلس فيها المَدَنيون حِلَقاً حول «سَماورات» الشاي البراقة العالية يغنون ويطربون، ما سمحت لهم الحكومة أن يغنوا ويطربوا.

❋ ❋ ❋

جلس إخواننا يتجاذبون أطراف الحديث، فيذكرون بلادهم وأوطانهم، ويحنّون إلى الغوطة الغَنّاء والعين الخضراء والزبداني وبلودان وتلك الجنان، وجلست أحدق إلى ماء العقيق، أحنّ إلى أيامه الغرّ وماضيه الفخم وأفكر في حاضره المُمِضّ وواديه القاحل، فأطيل التحديق وأمضي في التفكير حتى أذهل عن نفسي


وادي العقيق (ويظهر في الصورة جسر القطار قبل إزالته)

وأنسى مكاني، فأرى صفحة الماء تضطرب وتهتز، وتختلط فيها الأنوار وتمتزج فيها الأضواء، كأنما هي سبيكة ذهب أو قطعة ياقوت أُلقي عليها نور وهّاج.

ثم أراها قد استقرت وسكنت، فإذا العقيق غير العقيق، وإذا هو غارق في العطر والنور، وإذا من حوله العشرات من القصور تضيء كأنها الثريا في السماء فتنعكس أنوارها في الماء، فتتوارى النجوم استحياء وتغض العين خجلاً، ثم تستتر ببراقع الغمام وتبكي، فيضحك العقيق لبكاء السماء وتضحك الأرض لضحك العقيق!

وأرى قصر عروة العظيم قد سطعت في شرفاته الأنوار، وحف به الشعراء والمغنون ينتظرون نزيله الجليل، الشاعر الغَزِل الفقيه المحدث عروة بن أذينة[1]، ليأخذوا من شعره ويحفظوا من حديثه، فإذا طال بهم الانتظار وتصرّم الليل ولم يفوزوا بطائل ذهبوا إلى دورهم وقد أيسوا من لقائه تلك الليلة، وأزمعوا أن يباكروه من الغد.

وسكن العقيق وخلا إلّا من شاعرٍ أرِقٍ:

يناجي طيفَ من يهوى ويبـغي عنده السـلوى

وخشع الليل، وأنصت الكون، فقام عروة على شرفة القصر، فَرَاقه سكون الليل وفتنه منظر العقيق، فهاج في نفسه الشوق واندفع ينشد:

---

(١) هو قصر عروة بن الزبير، وعروة بن أذينة كان نزيلاً فيه.

إن التي زعمَتْ فـؤادُك مَلَّهـا
خُلِقَتْ هواك كما خُلِقْتَ هوى لها
فَبِكَ التي زعمَتْ بها وكلاكُما
يُبدي لصـاحبه الصَّبـابةَ كلّها
ويبيت بين جوانحي حبٌّ لها
لو كان تحت فراشها لأقَـلَّهـا
ولَعَمرُها لو كان حبُّك فوقَهـا
يوماً وقد ضَحِيَتْ إذن لأظلّها
بيضاءُ باكَـرَها النعيمُ فصاغهـا
بـلبـاقـةٍ فـأدَقَّـهـا وأجـلّهـــا
لمّـا عرَضْتُ مسلِّماً لي حاجةٌ
أرجـو معونتَهـا وأخشى ذُلَّهـا
منَعَتْ تحيَّتَها فقلتُ لصاحبي
مـا كـان أكثرَهـا لنـا وأقـلَّهـا
فدنـا فقـال: لـعلّهـا مَعْذورَةٌ
من أجْلِ رِقْبَتِها، فقلت: لعلّها[1]

فلما كان الصباح غدا أبو السائب المخزومي على عبد الله[2]، فقال له: أسمعت أبيات عروة أمس؟ قال: وأية أبيات؟

---

(١) الرِّقْبة (بكسر فسكون) هي الحالة التي تكون عليها المراقبة، يريد: لعلها معذورة لأنها مراقَبة (مجاهد).

(٢) هو عبد الله بن مصعب الزبيري، من ولد عبد الله بن الزبير. وكان أبو السائب المخزومي غزيرَ الأدب كثير الطرب، وله فكاهات =

قال: وهل يخفى القمر؟ قوله: إن التي زعمَت فؤادك مَلّها...

فأنشده إياها. فلما بلغ إلى قوله «لعلها» قال أبو السائب: أحسن والله، هذا والله الدائم العهد الصادق الصبابة، لا الذي يقول:

إنْ كان أهلُكِ يمنعونك رغبةً
عنّي فأهلي بي أَضَنُّ وأرْغَبُ

وإني لأرجو أن يغفر الله لصاحبك (يعني عروة) حسن ظنه بها وطلبه العذرَ لها.

ثم يعرض عليه عبد الله طعاماً فيقول: لا والله ما كنت لآكل بهذه الأبيات طعاماً إلى الليل. وينتظر عبد الله، حتى إذا حان المساء وأثّر الجوع في أبي السائب ذهب إليه فقال له: جئت أنشدك وأحدثك. فيقول: هات ما عندك. فيحدثه وينشده، حتى ينشده بيتَي العرجي:

باتـا بـأنْعَمِ ليـلـةٍ حتى بـدا
صُبحٌ تَـلوّحَ كالأغـرّ الأشْقَرِ
فتلازمـا عند الفراق صَبابـةً
أخْذَ الغَريمِ بفَضْلِ ثوب المُعْسِرِ

= وأخبار مشهورة، وكان جده يُكنّى أبا السائب أيضاً، وكان خَليطاً (أي جليساً أو صاحباً) للنبي ﷺ قبل الإسلام، فكان النبي إذا ذكره قال: «نعم الخليط كان أبو السائب، لا يداري ولا يُماري» (مجاهد).

فيقول أبو السائب: أعده عليّ. فيعيده أبو مصعب، فيستفزّ المخزوميَّ الطربُ فيحلف بالطلاق لا ينطق بحرف غيره حتى يرجع إلى بيته! ويمر بهما عبد الله بن حسن بن حسن وهو منصرف من مالٍ له يريد المدينة[1]، فيسلّم عليه ويقول: كيف أمسيت يا أبا السائب؟ فيقول:

فتلازمـا عند الفراق صَبابـةً
أخْذَ الغَريمِ بفَضْلِ ثوب المُعْسِرِ

فيقبل ابن حسن على عبد الله فيقول: متى أنكرت صاحبك؟ فيقول: منذ الليلة. فيقول: إنّا لله. أيُّ كهلٍ أُصيبت به قريش! ثم يمضي.

ويمر بهما عمران بن محمد التميمي قاضي المدينة، يريد مالاً له على بغلة له، ومعه غلام على عنقه مِخلاة فيها قَيد البغلة، فيسلم ويقول: كيف أنت يا أبا السائب؟ فيقول:

فتلازمـا عند الفراق صَبابـةً
أخْذَ الغَريمِ بفَضْلِ ثوب المُعْسِرِ

فيقول القاضي لعبد الله: متى أنكرت صاحبك؟ فيقول: آنفاً. فيسترجع القاضي ويهمّ بالمضيّ، فيَمكر عبد الله بصاحبه ويقول: أفتدعه هكذا أيها القاضي وتمضي؟ إني ما آمَنُ أن يتهوّر في بعض

(١) المال في الأصل هو كل ما يُملَك، من نقد وذهب وغيره، وإذا أطلق العرب «المال» فإنه ينصرف إلى الإبل لأنها كانت أكثر أموالهم (مجاهد).

آبار العقيق. قال القاضي: صدقت. يا غلام: قَيْدَ البغلة. فيضع القيد في رجله وهو يشير بيده ويصيح[1]:

فتلازمـا عند الفراق صَبابـةً
أخْذَ الغَريمِ بفَضْلِ ثوب المُعْسِرِ

* * *

ثم يضطرب الماء ويَمُوج، فتنطمس الصورة فلا أرى في الماء إلا أشباحاً مبهمة مهتزة متداخلة، ثم تَبينُ وتَضِحُ فإذا أنا أرى قصر عروة بن الزبير وقد هُيِّئ وفُرش ودار به الخدم والعبيد، واجتمع من حوله السُّراة والأعيان وهم يتحدثون، تبدو عليهم أمارات الملل والقلق فِعْلَ الذي ينتظر شيئاً ويبطئ عليه، وأدنو منهم فأفهم من حديثهم أن القادم صاحب القصر عروة بن الزبير، أحد الفقهاء السبعة، وقد كان في دمشق فأصابته الأَكِلة[2] في رجله، فأراده الأطباء على قطعها وإلا سرى الداء فأفسد عليه

(١) القصة في كتب الأدب. وفي «جمع الجواهر» للحصري القيرواني أن القاضي محمد بن عمران كان أثقل الناس جسماً (أي أنه كان بَديناً)، فلما أمر غلامه بتقييد أبي السائب راح يدافعه بيده وهو ينشد البيت، فلما أطال نزل القاضي عن البغلة وقال: يا غلام، احمله على بغلتي وألحقه بأهله. قال عبد الله: فلما كان بحيث علمت أنه قد فاته أخبرته الخبر، فضحك وقال: "قبّحك الله ماجناً؛ فضَحْتَ شيخاً من قريش وعذّبتَني وأنا لا أقدر أن أتحرك" (مجاهد).

(٢) بفتح الهمزة وكسر الكاف، هي التي نعرفها اليوم باسم «الغرغرينا»، قال في القاموس: الأكلة داء في العضو يأتَكِل منه (مجاهد).

جسده. وقيل له: نَسقيك الخمر حتى لا تجد ألماً. فقال: لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافيته. قالوا: نسقيك المُرْقِد (البنج). قال: ما أحب أن أُسلَب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألماً لذلك فأحتسبه. قالوا: فما تصنع إذن؟ فأخذ في التهليل والتكبير وقال: شأنكم بها!

ودخل عليه قوم أنكرهم، فقال: ما هؤلاء؟ قالوا: يمسكونك فإن الألم ربما عزب معه الصبر، وأنت شيخ كبير. قال: أرجو أن أكفيكم ذلك من نفسي. فقُطعت كعبه بالسكين، حتى إذا بلغ العظم وُضع عليه المنشار فقطعت وهو يهلل ويكبر، ثم أُغلي له الزيت في مغارف الحديد فحُسِم به، فغُشي عليه، ثم أفاق وهو يمسح العرق عن وجهه، فلما رأى القدم بأيديهم دعا بها، فقلبها في يده ثم قال: أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى حرام.

وأسمعهم يتحدثون كيف دخل في ذلك اليوم ابنُه محمد، وهو فتى المدينة جمالاً وكمالاً وأدباً ونسباً، كيف دخل إصطبل الوليد، فرَمَحَتْه دابّة فقتلته، وما يعلم عروة بشيء من ذلك. وكان عروة رجلاً صالحاً، قد عاف الدنيا وانصرف عنها ولم يُرِدْ منها إلا زاداً يقطع عليه الطريق إلى الجنة.

ذكر العُتْبي أن المسجد الحرام جمع مرّةً بين عبد الملك بن مروان وعروة وأخويه -عبد الله ومصعب- على عهد معاوية بن أبي سفيان، فقال بعضهم لبعض: هلمّ فلنتَمنَّ. فقال عبد الله بن الزبير: مُنْيَتي أن أملك الحرمين وأنال الخلافة. وقال مصعب: مُنْيَتي أن أملك العراقين وأجمع عقيلتَي قريش، سُكينة بنت

الحسين وعائشة بنت طلحة. وقال عبد الملك: مُنيتي أن أملك الأرض كلها وأخلف معاوية.

فقال عروة: لست في شيء مما أنتم فيه. مُنْيتي الزهد في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة، وأن أكون ممّن يُروَى عنه هذا العلم.

فصرّف الدهرُ مِن صَرْفه إلى أن بلغ كل واحد منهم إلى أمله، فكان عبد الملك يقول: مَن سَرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى عروة.

وأرى عروة وقد أقبل من سفره، فدخل القصر وحار الناس كيف ينعون إليه محمداً، حتى جاء عيسى بن طلحة فدخل عليه، فقال عروة لبعض بنيه، اكشف لعمّك عن رجلي لينظر إليها. ففعل، فقال عيسى: إنا لله وإنا إليه راجعون. يا أبا عبد الله، ما أعددناك للصراع ولا للسباق، ولقد أبقى الله لنا منك ما كنا نحتاج إليه، رأيك وعلمك. قال عروة: ما عزّاني أحد عن رجلي مثلك.

قال: فإني معزّيك بمحمد. فوثب فزعاً يقول: ما له؟ قال: لقد لقي الله. فاصفَرّ عروة، ثم جلس يسترجع ويقول: اللهمّ أخذت عضواً وتركت أعضاء، وأخذت ابناً وتركت أبناء، فإنك إن كنت أخذت لقد أبقيت، وإن كنت ابتليت لقد عافيت[١].

* * *

(١) من شاء فليقرأ القصة المؤثرة مفصّلةً في مقالة «مأساة عالم»، وهي في كتاب «رجال من التاريخ» (مجاهد).

ويتبدل المنظر فإذا أنا أرى قصر سعيد بن العاص الذي يقول فيه عمرو بن الوليد:

القصــر فالنخـل فـالجَمّـاء بينهمـا
أشهى إلى النفس من أبواب جَيْرونِ[1]

وأرى فيه حركة وازدحاماً، وأرى على الوجوه سحابة من غم وعلى الجباه سطوراً من كآبة، فأغشى القومَ أسألهم وأعلم علمهم، فإذا هم واجمون لأن سعيد بن العاص يُحتضَر. وأي نبأ في المدينة أروع من موت سعيد؟ وفيه يقول الفرزدق:

ترى الغُرَّ الجَحَاجِحَ من قُرَيش
إذا ما الأمرُ في الَحدثانِ غَالا[2]
قيـامـاً ينظـرون إلى سـعيـدٍ
كـأنـهـمُ يَـرَوْنَ بـه الـهِـلالا

وأدخل القصر، فأسمع عَمْراً ابنَه يقول له: لو نزلت إلى المدينة؟ فيقول له سعيد: يا بني، إن قومي لن يضنّوا عليّ بأن

(١) القصر قصر سعيد بن العاص، والجمّاء بئر بالعقيق عذبة طيبة، وجَيرون دمشق، وهو اسم قديم لها (انظر ابن عساكر: ١/١١)، وقد يسمى الباب الشرقي للجامع الأموي «باب جيرون»، وهو أيضاً اسم البوابة الشرقية لرواق سوق معبد جوبتر، عند التقاء زقاق نارنجة بجادة القيمرية (راجع «معجم دمشق التاريخي» للدكتور قتيبة الشهابي: ١/٢٢) (مجاهد).

(٢) الجَحْجَح والجَحْجاح (والجمع جَحاجِح وجَحاجيح) هو السيد الكريم. وحَدَثانُ الدهر حوادثه ونوائبه (مجاهد).

يحملوني على أعناقهم ساعةً من نهار. فإذا أنا متّ فآذنهم، فإذا واريتني فانطلق إلى معاوية فانعَني له، وانظر في دَيْني، واعلم أنه سيعرض قضاءه، فلا تفعل، ولكن اعرض عليه قصري هذا، فإني إنما اتخذته نزهة وليس بمال.

وما هي إلا أن يموت، فيحمله الناس من قصره حتى يدفنوه في البقيع، ورواحل عمرو بن سعيد مُناخة، فيعزيه الناس على قبره ويودعونه، ويمضي من ساعته إلى معاوية فيكون أول من ينعاه له، فيتوجع له معاوية ويقول: هل ترك دَيناً؟ فيقول: نعم. فيقول معاوية: هو عليّ. فيقول: قد ظن ذلك وأمرني ألّا أقبله منك، وأن أعرض عليك بعض ماله فتبتاعه فيكون قضاء دينه منه.

فيقول: اعرض عليّ. فيقول: قصره بالعَرْصة. فيقول معاوية: قد أخذته بدَيْنه. قال نوفل بن عمارة: وكان دين سعيد ثلاثة آلاف ألف درهم، فاشترى معاوية القصر بألف ألف درهم، والمزارع بألف ألف، والنخيل بألف ألف[١]. فيقول عمرو: هو لك، على أن تحملها إلى المدينة وتجعلها بالوافية[٢].

فيحملها له إلى المدينة، فيفرقها عمرو في غرمائه، وكان أكثرها عِدات وَعَدها سعيد. فيأتيه شاب بصك فيه عشرون ألف

(١) في كل الطبعات السابقة من الكتاب "كان دين سعيد ثلاثة آلاف درهم"، والصواب ما أثبتّه هنا، وكذلك ورد في المقالة المنشورة في «الرسالة» سنة ١٩٣٥ (مجاهد).

(٢) كانت الدراهم تنقص في وزنها وتزيد، وهو يعني بالوافية التامة الوزن.

درهم بشهادة سعيد على نفسه وشهادة مولى له عليه، فيرسل عمرو إلى المولى فيُقرئه الصك، فيبكي حين يقرؤه ويقول: نعم، هذا خطه وهذه شهادتي عليه. فيقول عمرو: ومن أين لهذا الفتى عليه عشرون ألف درهم، وإنما هو صعلوك من صعاليك قريش؟ فيقول المولى: أنا أخبرك. مرّ سعيد بعد عزله، فاعترض له هذا الفتى ومشى معه حتى صار إلى منزله، فوقف له سعيد وقال: ألك حاجة؟ قال: لا، إلا أني رأيتك تمشي وحدك فأحببت أن أصل جناحك. فقال لي سعيد: أئتني بصحيفة. فأتيته بهذه، فكتب له على نفسه هذا الدَّين وقال: إنك لم تصادف عندنا شيئاً، فخذ هذا، فإذا جاءنا شيء فائتنا. فيقول عمرو: لا جرم، والله لا يأخذها إلا بالوافية. يا غلام، أعطه إياها. فيعطيه عشرين ألف درهم وافية.

ويجيئه مولى لقريش فيقول: إني أتيت أباك بابن مولاي (فلان) وقد هلك أبوه ليزوّجه، فقال: ما عندي، ولكن خذ ما شئت في أمانتي. فيقول له عمرو: كم أخذت؟ فيقول: عشرة آلاف. فيُقبل عمرو على القوم فيقول: مَن رأى أعجز من هذا؟ يقول له سعيد: خذ ما شئت في أمانتي، فلا يأخذ إلا عشرة آلاف! والله لو أخذ مئة ألف لأدّيتها.

* * *

ويتبدل المنظر، فأرى العقيق قد ازدحم بالناس حتى كأنه المحشر، وانتقلت إليه المدينة حتى لم يبقَ فيها كهل ولا غلام، ذلك أن خبراً سرى في المدينة سَرَيان الأمل في النفوس اليائسة، فترك الناسُ ما هم فيه وأقبلوا على قصر سعيد يسمعون منه ما لم يسمعوا، وإذا ابن عائشة، وهو أضَنّ خلق الله بالغناء وأسوأ الناس

فيه خُلقاً، ومَن إذا قيل له "غَنّ" قال: ألمثلي يُقال غَنّ؟ وإذا ابتدأ بغناء وقيل له "أحسنت" قطع الغناء مُغضبَاً وقال: ألمثلي يُقال أحسنت؟

وإذا هو يغني أطيب غناء وأطربه، فلا ينتهي من صوت حتى يشرع في آخر، لا يسكت ولا يستريح، حتى عدّوا عليه مئة صوت. وإذا خبره أن العقيق طغى وازداد ماؤه، فاعتصم ابن عائشة بقصر سعيد بن العاص، فملأ الماء عَرْصة القصر، فصعد على قَرن البئر، ورآه الحسن بن الحسن -وكان قادماً على بغلة له وخلفه غلامان أسودان كأنهما شيطانان- فقال لهما: امضيا رُوَيداً حتى تقفا بأصل القرن الذي عليه ابن عائشة. فخرجا حتى فعلا ذلك، ثم ناداه الحسن: كيف أصبحت يا ابن عائشة؟ قال: بخير، فداك أبي وأمي. قال: انظر إلى مَن بجنبك. فنظر، فإذا العبدان. قال: أما تعرفهما؟ قال: بلى. قال: فهما حُرّان، لئن لم تُغَنّ مئة صوت لآمرنّهما بطرحك في البئر. وهما حران، لئن لم يفعلا لأقطعنّ أيديهما! فغنى، فلم يرَ الناس أحسنَ يوماً منه!

* * *

ثم أرى فتياناً من فتيان المدينة، فيهم يونس الكاتب وجماعة ممّن يغني، قد خرجوا إلى واد يقال له رومة، من بطن العقيق، فغنوا فأثار غناؤهم أهل الوادي، فاجتمع إليه الرجال والنساء حتى كان حولَهم مثلُ مراح الضأن. وأرى محمد بن عائشة مقبلاً، معه صاحب له، حتى يرى جماعة النساء عندهم، فيأخذه الحسد وتحزّ في نفسه الغَيرة، فيقول لصاحبه: كيف بك إذا فرّقتُ هذه الجماعة؟ فيسخر منه صاحبه، فيهيج ابن عائشة، فيأتي قصراً من

قصور العقيق فيعلو سطحه ويلقي رداءه فيتكئ عليه، ويغني بشعر عبيد بن حنين:

هذا مُقامُ مطَرَّدٍ هُدِمَت منازلُه ودورُه
نَمّتْ عليه عُداتُه كذباً فعاقَبه أميرُه
ولقد قطعت الخَرْقَ بعد الخرقِ مُعتَسفاً أسيرُه[1]
حتى أتيت خليفةَ الرحمن مَمْهوداً سريرُه
حيَّيْتُه بتحية في مجلسٍ حضرت صُقورُه

فلا ينقضي الصوت إلا والنساء كلهن تحت القصر الذي هو عليه، وتقوض مجلس يوسف ولم يبق فيه أحد!

وأرى غلاماً خلاسياً مديد القامة أحول، قد ارتقى صخرة من العقيق منفردة فاضطجع عليها ضجعة خفيفة، ثم هَبّ فزعاً وهو يغني غناء ما سمع مثلَه السامعون، يزعم أن الشيطان أجراه في مسامعه وهو نائم، ويعيد الغناء وهو يتصيد الطير بحِبالة[2] في يده، فيمر به شيخا مغنّي مكة، ابن سريج والغريض، وقد أقبلا على بعيرين لهما يزوران المدينة ويتعرّضان لمعروف أهلها ويلقيان مَن بها من صديقهما، فيسمعان ثم يستعيدان الصوت:

القصر فالنخل فالجَمّاء بينهما
أشهى إلى النفس من أبواب جَيْرونِ

---

(١) الخرق هو القَفْر، والمعنى: أسيرُ فيه خابطاً على غير هدى. وفي رواية «منقطعاً» (مجاهد).

(٢) الحِبالة والأُحبول: المِصيدة، ما يُصاد به من أي شيء كان (مجاهد).

فيعيده وهو مشغول عنهما بصيده، فيقبل أحدهما على صاحبه فيقول: هل سمعت كاليوم قط؟ فيقول: لا والله! فيقول: فما هو رأيك؟ فيقول: هذا غناء غلام يصيد الطير، فكيف بمن في البلد؟ ثم يدعو أن ثكلته أمه إن لم يرجع! فكَرَّا راجعَين. وكان المغني هو مَعْبَد المشهور، سيد من غنّى صوتاً في الحجاز.

* * *

ويتبدل المنظر، فأرى حميدة بنت عمر بن عبد الرحمن بن عوف وقد خطبها رجل عبشمي من أهل الشام[1] فلما أراد أن يرتحل بها وحفّ بهما الناس يودعونهما سمعَت رجلاً يغني بشعر أبي قطيفة:

ألا ليت شعري هل تغيّرَ بعدَنا
جنوبُ المصلى أم كعهدي القرائنُ؟
وهل أدؤرٌ حولَ البلاط عَوَامِرٌ
من الحيّ أم هل بالمدينة ساكنُ؟[2]
إذا بَرَقت نحو الحجاز سَحابةٌ
دعا الشوقَ مني برقُها المُتطامِنُ
ولم أنْـأَ عنها رغبةً عن بلادها
ولـكنّـه مـــا قَـدّرَ الله كـائـنُ

(١) أي رجل من بني عبد شمس. في «الأغاني»: "خطبها إلى أهلها فزوّجوه إياها على كُرهٍ منها"، وهو أنسب للسياق (مجاهد).
(٢) أدؤر جمع دار، وهي أيضاً دور وديار وديارة، وجمع الديارة ديارات (مجاهد).

فتسقط وقد أُغمي عليها، فيعالجونها كيما تفيق، فإذا أفاقت سمعته يغني:

ألا ليتَ شِعري هـل تغيّرَ بعـدَنـا
قُبـاءٌ وهل زالَ العَقيقُ وحاضِرُهْ؟
وهـل بَرِحَتْ بَطحـاءَ قبرِ محمّدٍ
أَرَاهِـطُ غُـرٌّ مـن قـريشٍ تُبـاكِـرُهْ
لهـم منتهـى حبّي وصَفْوُ مَـوَدّتي
ومَحْضُ الهَوى منّي، وللنّاس سائِرُه[1]

فتغَشَّتْ بين الناس وسقطت ميتة!

* * *

... واضطربت الصورة وتضاءلت، ثم توارت واختفت، وإذا صفحة الماء بيضاء ليس فيها صورة، وإذا الفن والمجد والعطر والنور، وإذا الدور والقصور والأنس والحبور، كل أولئك قد غطى عليه الفَناء وابتلعه السيل الدفّاع، ثم عاد يجري بين الآكام الجرداء وله خرخرة وله دردرة.

وإذا كل ما بقي من هذه الدنيا الواسعة قهوةٌ قامت على

---

(١) سائر الشيء بقيته. وهي لفظة يَهِمُ فيها كثيرون فيظنونها بمعنى كله أو جميعه، وقد نبَّهَ إليها جدي غيرَ مرة في أثناء كتبه. فالشاعر منح أولئك الرهط من قريش محضَ حبه (أي أصدقَه وأصفاه) وأفاض سائره (بقيته) على عامة الناس (مجاهد).

جذوع النخل، وبئر نُصبت عليها سانية[1]، وجماعة قد تحلّقوا يشربون الشاي ويطربون، وما بهم -لو حققت- من طرب! وإذا قصر سعيد أنقاض ماثلة، وإذا سائر القصور تلال من الرمل الأحمر...

وإذا المجدُ والجَلالَةُ والجاه كما يَطرِسُ السطورَ البَنانُ![2]

* * *

(١) السانية: الناعورة.

(٢) طَرَس الكتاب وطرّسه محاه، والطَّرْس والتطريس أيضاً الكتابة (أو الكتابة التي مُحيت ثم كتبت)، فهي من ألفاظ الأضداد (مجاهد).

عرفات

نشرت سنة ١٩٣٦*

﴿وأذِّنْ في النّاس بالحَجِّ يَأتوكَ رِجالاً وعلى كلِّ ضامِرٍ يَأتينَ مِن كل فَجٍّ عميق. لِيَشْهدوا مَنافِعَ لهم ويذكروا اسْمَ الله في أيّامٍ مَعْلوماتٍ على ما رَزقهُم مِن بَهيمَةِ الأنْعَام، فَكُلوا منها وأَطعِموا البائِسَ الفَقير. ثمَّ لْيَقْضوا تَفَثَهُم وَلْيُوفُوا نُذُورَهُم وَلْيَطَّوَّفوا بالبَيْتِ العَتيق﴾

هنالك ينكشف الغطاء وتنفتح أبواب السماء، فيتوجه الحُجّاج إلى الله بقلوب انزاحت عنها ظُلمة الأهواء والشهوات وأشرقت عليها الأنوار، فسَمَتْ حتى رأت الأرض ومَن عليها ذَرّة صغيرة تحملها رياح القُدرة، ثم سَمَت حتى سمعت تسبيحَ الملائكة بألسنة الطاعة، ثم سَمَت حتى تدبرت القرآن غضاً عريضاً كأنما نزل به الوحي أمس، وسمعت النداء: ﴿يا أيُّها النّاسُ إنّا خَلَقناكُم مِن ذَكَرٍ وأنثى، وجَعَلْناكم شُعوباً وقبائِلَ لِتَعارَفوا، إنّ أكرمَكُم عندَ اللهِ أَتْقَاكُم﴾. فأجابت: لبّيكَ اللهُمّ لبيك. فردّدت بِطاح عرفات وأرجاء الحرم، وردّدت السماوات السبع والأرَضون السّبع: لبّيك اللهُمّ لبّيك!

---

* في مجلة «الرسالة» العدد ١٣٩ الصادر بتاريخ ١٩٣٦/٣/٢.

هنالك تتنفس الإنسانية التي خنقها دخان البارود وعلامات الحدود وسيّدٌ ومَسود وعبدٌ ومعبود، وتحيا في عرفات، حيث لا كبير ولا صغير ولا عظيم ولا حقير، ولا مأمور ولا أمير ولا غنيّ ولا فقير.

هنالك تتحقق المُثُل العليا التي لم يعرفها الغرب إلا في أدمغة الفلاسفة وبُطون الأسفار، فتزول الشرور وترتفع الأحقاد، وتعمّ المساواة ويسود السلام، ويجتمع الناس -على اختلاف ألسنتهم وألوانهم- في صعيد واحد: لباسهم واحد، يتوجهون إلى رب واحد، ويؤمنون بنبي واحد، ويَدينون بدين واحد، ويصيحون بلسان واحد: لبّيكَ اللهُمّ لبّيك.

هنالك تظهر المعجزة الباقية، فتُطوى الأرضُ ثم تؤخَذ من أطرافها حتى توضَع كلّها في عرفات، فتلتقي شُطْآنُ أفريقيا بسواحل آسيا، ومدن أوربا بأكواخ السودان، ونهر الكنج بنهر النيل، وجبال طوروس بجبال البلور، فيعرف المسلم أن وطنه أوسع من أن تحدّه على الأرض جبالٌ أو بحار، أو تمزّقه ألوانٌ على المصوَّر[1] فوق ألوان، أو تفرقه في السياسة خِرَقٌ تتميز من خِرَقٍ وأعلامٌ تختلف عن أعلام. ذلك لأن وطن المسلم في القرآن، لا في التراب والأحجار ولا في البحيرات والأنهار ولا في الجبال والبحار: ﴿إِنَّمَا المُؤمِنونَ إِخْوَة﴾، ما قال «إنما العرب» ولا «إنما الأتراك» ولا «إنما الأكراد».

هنالك يتفقد الإخوة إخوتَهم، فيُعين القويُّ الضعيفَ ويعطي

---

(١) أي الخريطة (مجاهد).

الغنيُّ الفقيرَ ويساعد العزيزُ الذليلَ، فلا ينصرفون من الحج إلا وهم أقوياء أغنياء أعزاء.

هنالك يذكر المسلم كيف مَرَّ سيّدُ العالَم صلى الله عليه وسلّم بهذه البطاح مهاجِراً إلى الله، تاركاً بلدَه التي نشأ فيها وقومَه الذين رُبّي فيهم، وكيف جاء حتى وقف على الحَزْوَرَة[1]، فنظر إلى مكة وقال: «إنك لأحَبّ بلاد الله إلى الله، وإنك لأحَبّ بلاد الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت». ثم يستقبل هذه الصحراء الهائلة، ليس معه إلا الصدّيق الأعظم، يتلفّتُ كلما سار ليتزوّد بنظرة من مكة، حتى غابت وراء الأفق الفسيح، فانطلقا يَؤُمّان الغار.

هل علمَتْ هذه البِطَاحُ أن هذا الرجل الفَرْد الذي قام وحده في وجه العالم كله، يصرع باطلَه بقوة الحق ويبدّد جهالتَه بنور الإسلام ويهدي ضلالتَه بهدي القرآن، والذي فرّ من مكة مستخفياً، سيعود إليها بعشرة آلاف من الأبطال المغاوير، فتفتح له مكةُ أبوابَها وتتهاوى عند قدميه أصنامُها، ثم تعنو له الجزيرة، ثم يخضع لدينه نصف المعمور؟

هل علمت هذه البِطاح أن هؤلاء النفر الذين مرّوا بها هاربين من جبروت قريش وسلطانها، سيَعِزّون حتى تدين لهم قريش، ثم يَعِزّون حتى يَرثوا كسرى وقيصر في أرضيهما، ثم يَعِزّون حتى يرثوا الأرض ومَن عليها، وسيكثرون حتى يبلغوا أربعمئة

---

(١) الحزورة هي الرّابية الصغيرة (مجاهد).

مليون[1]، وسيتفرقون في الأرض داعين مجاهدين فاتحين، ثم يجتمعون في عرفات حاجّين مُنيبين مُلَبّين: لبيك اللهمّ لبيك؟

هنالك وقف سيد العالَم صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، يعلن حقوق الإنسان ويقرر مبادئ السلام، وينشر الأخوّة والعدالة والمساواة بين الناس قبل أن تنشرها فرنسا بألف عام: أيّها الناس: اسمعوا مني أبيّن لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلّغتُ؟ اللهمّ اشهد. أيها الناس: إنما المؤمنون إخوة، لا يحلّ لامرئ مالُ أخيه إلا عن طيب نفس منه. ألا هل بلّغت؟ اللهمّ اشهد. أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى. ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد.

وهنالك وقف يعلن اكتمال الرسالة الكبرى التي بعثه الله بها إلى الناس كافة، ويتلو قوله تبارك وتعالى: ﴿اليومَ أكمَلْتُ لَكُم دينَكُم وأتْمَمْتُ عَلَيكُم نِعْمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإسْلامَ ديناً﴾، ويبعث صحابته ليحملوا هذه الرسالة إلى آخر الأرض، ثم يحملوها إلى آخر الزمان. فحملوها فأنشؤوا بها هذه الحضارةَ التي استظلّ بظلها الشرق ويستظل بظلها الغرب.

* * *

(١) أي يوم كتابة هذه المقالة، وهم اليوم -وأنا أعدّ هذا الكتاب للنشر- ألف مليون وستمئة مليون (مجاهد).

في عرفات تتجلى عظمة الإسلام، دين الحرية والمساواة والعلم والحضارة. ومن عرفات يسمع المسلمون داعي الله يدعو: حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح. فيجيبون: لبيك اللهمّ لبيك، وينطلقون ليعملوا للآخرة كأنهم يموتون غداً ويعملوا للدنيا كأنهم يعيشون أبداً.

ألا فَلْتفسدِ الأرضُ وَلْتَطْغَ الشرور، وَلْيعصفِ الحديدُ وَلْينفجر البارود، وَلْتَغُص الإنسانية في حَمْأة الرذيلة إلى العنق، فإنه لا خوف على الفضيلة ولا على الحق ولا على السلام ما دام في الأرض «عرفات»، وما دام في الجو هذا الصوت القدسي المجلجل: «لبيك اللهمّ لبيك».

* * *

على غار حراء

نُشرت سنة ١٩٥٦*

لقد طوّفت في الآفاق وضربت في البر والبحر ورأيت من البلدان قديمها وحديثها، ووقفت على مواطن القدس وآثار المجد ومجالي الجمال في الأرض، فما رأيت مكاناً كان أبلغ في قلبي أثراً، وكان أكثر على البشرية فضلاً وأخلد في التاريخ عظماً وأكبر على الحضارة يداً، من هذا الغار المقفر القائم على قمة جبل أجرد في قَفْر موحش منقطع، هذا المرقب الذي أطلّ منه يوماً على العالم سيد العالم، محمد ﷺ.

ولقد تشرفنا بزيارته في رحلتنا الأخيرة إلى الحجاز قبل شهرين، وكان معنا سيارة لها سائق بدوي باقعة من البواقع، له لمّة سوداء قد ضفرها ضفائر، إذا انزاح العقال عنها ورأيته بها -بعينيه اللتين تَقِدان كعيني فَهْد- حسبت أن قد رأيت جنّياً!

فقلنا له: قد زرنا الحرم وعرفات ومِنى، فهل تعرف الطريق إلى غار حراء فتأخذنا إليه؟

---

* في مجلة «المسلمون»، عدد محرّم ١٣٧٦.

فقال: حِيل (أي «قوي»، على لغة إخواننا المصريين). هذا هو (وأشار إلى الجبل).

ويسمّى اليوم «جبل النور»، وهو جبل أسود عال، يبدو بين الجبال كأنه -من علوّه- المنارة بين البيوت.

قلنا: فخذنا إليه. قال: هيّا.

ومشى بنا في طريق عرفات، فلما خرجنا من مكة وجاوزنا آخر بيوتها عطف بنا ذات اليسار، فمشى بنا في فلاة لا جادّةَ فيها حتى أبعد بنا وأطال السير، والجبل في مكانه، نراه تارة وتخفيه عنا الجبال القريبة تارات، ما دنونا منه ولا دنا منا![1] وما كان دولاب السيارة يدور بنا دورة إلا صعدت نَشْزاً أو هبطت حفرة أو وطئت حجراً، فلا تزال تهتز بنا حتى مَخَضتَنْا مَخْض الحليب.

وكانت ساعة الزوال والشمس في قبة السماء، وكأن وهجها لَفْح التنور المشتعل لمن ينظر فيه، والصحراء من حولنا تتضرّم فَيْحاً كأن حجارتها جمرات، فذكَرتُ بها رحلتنا الأولى إلى الحجاز من إحدى وعشرين سنة، يوم خرجنا من دمشق على غير هدى، نفتح طريقاً للسيارات في أرض ما وطئتها سيارات قبلنا منذ برأها الله[2]، فلقينا فيها الألاقي وامتدت بنا شهرين.

---

(١) كان ذلك قبل ستين سنة، وقد امتد عمران مكة اليوم فوصل إليه، بل تجاوزه بأكيال (مجاهد).

(٢) اللهمّ إلا سيارة واحدة للشيخ عبد العزيز بن زيد مفتش الحدود يومئذ، وسفير المملكة العربية السعودية اليوم في دمشق (أي سنة نشر المقالة).

وغابت مكة وبيوتها، وتوارى عنّا واديها، واختفت كل أثارة للحياة والعمران، وصرنا وحدَنا في هذه الفلاة الموحشة، في هذه السيارة التي أضحت -من حَرِّها- كالفرن تنفث لهباً، وهذا السائق المنكَر الذي يمشي بنا على غير هدى ويدور دوران السّانية! وقديماً قالت في أمثالها العرب: «سَيْر السواني سفرٌ لا ينقطع».

فقلنا له: يا عبد الرحمن، يظهر أنك لا تعرف الطريق؟

قال: وَلَوْ! شيف (أي كيف) ما أعرف؟!

فسكتنا. وما زال يدور حتى أبصر وادياً ما رأينا في كل ما مررنا به أوحش منه، فولجه ووقف، وأشار إلى جبل قائم كالجدار المنحوت وقال: من هنا.

قلنا: ويحك! ومن أين نصعد؟ وإن نحن صعدنا فماذا نفيد من الصعود، وما هذا جبل النور الذي دللتنا عليه؟

وعلمنا أنه جاهل بالطريق. وكنا قد مررنا بقهوة من تلك القهوات البلدية التي تسمى في الحجاز «شايْخانات»، وليس فيها إلا مقاعد طويلة من القش تصلح للقعود وللمنام، وليس لها عيب إلا أنها تكسر ظهر القاعد وتطيّر النوم من عيون النعسان[1]، فقلنا: اذهب بالسيارة فادعُ صاحب القهوة ليدلنا، ونحن نعطيه.

وجاء صاحب القهوة، وهو بدوي مشدود شَدّ الوتر، لم تُبقِ منه الأيام إلا جلداً أسود على عظم دقيق. وكان قد صحبنا من مكة

---

(١) نعسان من العامي الفصيح، والناعس أفصح منها.

شاب حضري أبيض سمين يكاد يتفزّر شحماً ولحماً، فلما رآه سخر منه وقال: وما يصنع هذا، وهو ميت يمشي؟

فما سرنا إلا قليلاً حتى تبين مَن الميت الذي يمشي: أهذا الحضري السمين أم ابن الصحراء؟ لقد كُشفت الحقائق، فإذا البدوي -على نحافته- كأنه عمود من حديد، وإذا الآخر -على سِمَنه- كأنه سارية من الطين!

* * *

وكان الجبل بدعاً في الجبال، جبلين رُكِّب أحدهما فوق الآخر! أما الأسفل فجبل عادي، وأما الأعلى فقطعة واحدة من الصخر الأسود الأملس كأنه بيضة كسرتَ رأسها ثم أقمتها عليه، أو كأنه قبة مصنوعة بالإزميل[1] ذاهبة في السماء.



(١) الإزميل: المطرقة. من العامي الفصيح.

وكان هنا دَرَج منحوتة[1]، قد أبلاها القدم وأحنى حافاتها فلم تعد تتماسك عليها رجل الصاعد. ونال منا الحر والعطش، ولكنا صبرنا حتى بلغنا أوائل الصخرة، فقلت: إلى هنا وبَسْ[2].

ولم أخشَ الصعود، بل خشيت النزول من بعد. ولكنْ أصرَّ الإخوان، فاستحييت أن أكون أنا -الرياضي، ابن الجبال، الذي نشأ في قاسيون وأمضى صباه قافزاً على صخوره موغلاً في شعابه- أقلّهم صبراً، فصعدت مُكرهاً. وكدت -على رغم الدرج المنحوتة- أهوي مرّات، وكنت كلما نظرت تحتي ورأيت السيارة قد أصبحت أصغر في البصر من النملة أحس أن رأسي يدور[3].

وكان البدوي يطأ الصخر وطء متعسف جبار ويدحرج الحجارة بقدميه، فصرخت به أن ترفق ويحك، فإن هذي الصخور قد سمعت يوماً أول كلمة من حديث السماء في أذن الأرض. إنها شهدت أول آية خُطّت في كتاب الله الذي هبط به سيد الملائكة على سيد البشر، ولو استطعت لمشيت على الرأس تقديساً وإجلالاً، فما أجرؤ أن أطأ بقدمي الجبل الذي ضم ذراعيه يوماً على محمد عليه السلام، وسمعَت أذناه جبريل يقول له: ﴿اقرأ باسْمِ ربّك الذي خلق﴾.

لقد انقطع بريد السماء عن الأرض منذ مات محمد ﷺ،

---

(١) درج مؤنثة لأنها جمع درجة، مثل سلك جمع سلكة وحال جمع حالة.

(٢) «بَسْ» معرّبة من القديم.

(٣) أكثر كتّاب مصر -إلا الأبْيناء منهم- يؤنثون كلمة الرأس، مع أن العرب لا تؤنث الرأس ولا ترئّس الأنثى!

ولم يبقَ على ظهرها من شهود الوحي إلا هذه الشعاف وهذه الأصلاد. وإذا كان شعراء العرب يستطيبون الوقوف على آثار الأحبة ويستنطقون الدِّمَن والآثار، فقف -وَيْك- سائلْ هذه الأصلادَ ما خبر الوحي؟

* * *

وكنا قد بلغنا القمة بعدما تقطعت أنفاسنا ونشفت[1] حلوقنا وبلغت أرواحنا التراقي، ونظرنا فإذا نحن كالمعلّق في السحاب، وإذا الدنيا كلها أسفل منا، وإذا نحن لا كَمَن هو على ظهر جبل، ففي الجبال ما على ظهره فَلَوات فِساح، بل كمن هو على ظهر عمارة سامقة! وإذا ذروة الجبل لا تزيد مساحتها على مساحة غرفة من الغرف، أما الغار فكان تحتنا، في مكان لا يمكن أن يصل إليه إلا مَن يتدلى ثم يمرّ من شق في الجبل، حتى يبلغ فرجة في الصخر كأنها وَكْر نَسْر، ما أحسب طولها يعدو المترين ولا يبلغ عرضها المتر.



على قمة جبل النور، ويبدو مدخل الغار تحت الصخرات، ومكة تنبسط في السهل، وقد بدت في الأفق البعيد قمة ساعة الحرم الجديدة

وكان هذا هو غار حراء.

فقلت في نفسي: إننا لم نصل إلى القمة -ونحن جماعة ونحن نصعد على درج منحوتة- حتى أشرفنا على الموت، فكيف كان الرسول ﷺ يصعد وحده، وكيف عرف مكان هذا الغار، إلا أن يكون قد ارتاد هذه الجبال كلها وبلغ أعاليها؟ وكيف كان يقيم وحده الليالي ذوات العدد، وما حوله إلا هذه الجبال السود وهذه الوحشة الصامتة المرعبة؟

ونظرت، فإذا كل شيء من حولي صامت صمت الرهبة ساكن سكون الجلال، لا نَأْمَةَ ولا حسّ ولا حركة، ولا شيء يشغل الإنسان عن التفكير في السماء. والكعبة تبدو من بعيد وسط هذا الإطار الصخري، فمن كان في الغار كان كأنه في الدنيا وما هو في الدنيا، يرى الكعبة وحدها فيتصل منها بكل ما هو سماوي طاهر، ويَخفى عليه كل شيء غيرها فينفصل عن كل ما هو أرضي ملوَّث.

وقالت لي النفس: بماذا كان يفكر محمد ﷺ وهو يقضي الأيام والليالي وحيداً في هذا الغار؟

فقلت: أنا أعرف -ويحك- بماذا كان يفكر محمد؟ أنا أسمو بعقلي الأرضي المثقل بالشهوات والمطامع إلى جَوّ محمد؟ أتطمع الزواحف أن تزاحم العِقبان في أكباد السماوات؟

وقعدت خاشعاً مفكراً. وانطلق ذهني يرتاد جنبات الماضي الحبيب، يتصور محمداً ﷺ وهو في هذا المرقب العالي وحيداً

---

(١) نشف من العامي الفصيح.

مفرداً، حين جاءه البريد من فوق السبع الطباق برسالة من الله، وقال له: اقرأ.

إن أول كلمة في دستور الإسلام كانت «اقرأ»، لم تكن «قاتل» ولم تكن «اغتن» ولم تكن «سيطر»، لأن الإسلام ليس دين قتال ولا دين مال ولا دين سيطرة وسلطان، ولكن الإسلام دين العلم والفكر والهدى.

﴿اقرأ﴾، لا باسم ملك ولا أمير، ولا باسم حزب ولا باسم شعب، بل ﴿باسم ربك﴾، ربك ﴿الذي خلق﴾. لم يقل الذي خلق قريشاً ولا الذي خلق العرب، بل الذي خلق الخلق جميعاً، لأن دعوة محمد ﷺ إلى الخلق جميعاً، إلى الإنس والجن، دعوة فيها أعظم تكريم ناله الإنسان. وهل أعظم من أن يبعث إليه الله برسالة على يد واحد من بني الإنسان؟

إن الذي تأتيه رسالة الملك يعتزّ بها ويجعلها مفخرة العمر، فكيف وهذه رسالة الله ملك الملوك؟ إنها غاية الإعزاز، ولكنْ لا تغترَّ بها أيها الإنسان ولا تتكبر، واذكر أن أصلك علقة: ﴿خُلق الإنسان من عَلَق﴾. والكِبْر صفة الله، فيا عجباً لمن أصله من العَلَق ويتطاول حتى يدّعي صفات الألوهية!

﴿اقرأ وربك الأكرم﴾. ومِن أعظم مظاهر كرمه أنه ﴿الذي عَلّمَ بالقلم، عَلّم الإنسانَ ما لم يعلم﴾. هذه فاتحة الرسالة الخالدة التي بعث الله بها محمداً عليه الصلاة والسلام، ما مجّد فيها الحربَ ولا ذكر السيف، ولكن كرّم العلم وذكر القلم. فأين يُذهَب بهؤلاء المكابرين الذي يقولون أن شرعة محمد شرعة السيف وحده؟

السيف؟ لا بد من السيف، ولكنْ لنزيح به من يعترض طريقنا إلى السلام، لندافع به عن حريتنا في العمل على كشف الظلمات عن العقول ورفع الظلم عن الناس، وعن حرية المظلومين (الذين اشتمل عليهم الظلام) في السعي إلى الاستنارة بهذا الضياء الذي بدا للدنيا كلها من غار حراء.

ما حاربْنا إلا مَن حاربَنا، ولا دفعنا إلا من اعتدى علينا، وكنا نريد للناس جميعاً أن ينالهم الخير الذي أُفيض علينا؛ كنا نقول لهم: تعالوا شاركونا فيه تكونوا منا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا. لم يكن في فتوحنا غالب ومغلوب، ولا سيد ومَسود، ولا أشراف وعامة، ولا عرب وعجم، بل كان الناس عندنا قسمين: «الذين آمنوا» و«الذين كفروا»، فالذين آمنوا كلهم إخوة متساوون لا تَفاضلَ بينهم إلا بالتقوى، والذين كفروا من أهل الكتاب يكونون في ذمتنا وعهدنا إن ساكنونا في أرضنا ولم يَنقضوا عهدنا، ونؤمّنهم إن استأمنونا ونفي لهم إن عاهدونا، ولا نخشى حربهم إن هم اختاروا الحرب وحاربونا.

لذلك ترون كل فاتح غريب لا بد أن يأتي عليه يوم يُطرَد فيه حتى يعود من حيث أتى، أو يَفنَى -من قلّته- في الأمة التي غلبها وفتح ديارها، إلا المسلمين، فإنهم ما دخلوا بلداً إلا أذابوا أهله فيهم وجعلوه لهم إلى يوم القيامة. لا يحمون فتحهم بالسيف والسنان بل بالعقيدة والإيمان، حتى يكون أهل البلد هم حرّاس هذا الفتح لا يرضون به بديلاً. وهاكم مصر والشام وفارس والمغرب، هل فيها مَن يرضى أن يعود بلدُه إلى ما كان عليه قبل الفتح؟

ذلك لأن الفاتحين يفتحون البلاد بالسيف يحاربون به أهلها، ونحن نفتح قلوب أهل البلاد بالعقيدة وللعقيدة، حتى يصير أصحابها أغْيَرَ منا على هذه العقيدة. هذه جاوة، دخلها الإسلام يوم دخلها الاستعمار الأوربي، وكان الإسلام يمشي وحده يحمله النفر من التجار، والاستعمار تمشي معه أبطال الرجال بعُدد القتال، تحملهم الأساطيل التي تَميس وسط اللجّة كأنها الجبال، فماذا كانت العاقبة؟ مضى الاستعمار عنها فلا يعود إليها أبداً بإذن الله، واستقر الإسلام فيها إلى يوم القيامة.

* * *

وارتاع محمد ﷺ لمّا جاءه الوحي. وكان بشراً مثلنا، ولم يكن يدري ما الكتاب وما النبوّة[١]، وراح إلى أهله، إلى أعظم النساء خديجة، يرعد يقول: دثّروني، زمّلوني.

فعاد النداء العلوي يدوّي في أذنيه أنْ يا أيها المدثّر: قُمْ، فليست حياتك للمنام؛ إن على عاتقك حملاً ثقيلاً، إن أمامك عملاً كبيراً، إن العالم على خطر، فقم فأنذر العالم ليتجنب الخطر. قف وحدك في وجه الدنيا كلها وحطّم أوثانها، أوثان الحجر وأوثان اللحم والدم، وامحُ الظلم وانشر العلم، وأقم في الأرض صرح الحضارة الخيّرة العادلة.

إننا -لطول ما قرأنا سيرة الرسول ﷺ- لم نعد نتنبّه إلى

(١) والذي يقرؤونه في «المولد» من أن جده علم أنه نبي وأمه علمت، بل إن الوحوش علمت به وتباشرت، كله لا أصل له.

عظمتها. إن الألفة تذهب الشعور، والمقيم في البلد الجميل لا يرى من جماله ما يراه القادم عليه من الغرباء. لذلك أضرب لكم مثلاً يوضح لكم ما كُلف به محمد عليه الصلاة والسلام.

تصوروا اليوم رجلاً أمياً في قرية من قرى الصحراء الكبرى الجاثمة وراء الرمال، كُلّف أن يبدّل عادات قومه وأن يغيّر عقائدهم، وأن يحملهم على دستور جديد، وأن يأخذهم -بعد ذلك- ليبلغوه الدولتين اللتين اقتسمتا الأرض، أميركا وروسيا. فلا تمضي عليه ثلاثون سنة حتى يقوم بذلك كله، ويغلب الدولتين الكبيرتين، ويقيم للناس عالماً جديداً في نظمه وأوضاعه ولسانه!

هذا ما صنعه محمد ﷺ. لقد كانت فارس والروم يومئذ كأميركا وروسيا اليوم، فهل أدركتم الآن عظم ما صنعه محمد؟ صلى الله على محمد وسلم وبارك.

* * *

وبعد، فها هنا وُلدت دولة الإسلام. الدولة التي كانت يوماً مؤلفة من أربعة فقط، القائد ومعه رجل وامرأة وصبي، أبو بكر وخديجة وعلي، ثلاثة يمثلون البشر جميعاً، الرجالَ والنساء والأولاد. ثم صاروا أربعين، فكان منهم العرب، ومنهم الفرس يمثلهم سلمان، والروم يمثلهم صهيب، والحبشة يمثلهم بلال، وكان منهم بيض وسمر وسود، وكان في ذلك دليل واضح على أن دولة الإسلام فوق الأجناس والقوميات.

ثم صار الأربعون ثلاثَمئة فانتصروا في بدر، ثم صاروا عشرة آلاف ففتحوا مكة، فلما صاروا مئة ألف مشوا يفتحون العالم.

من هذه الصخرة الصماء سال الماء الذي روّى فَيافي الجزيرة، فأخرجت للناس جنات الشام وبغداد والقاهرة وقرطبة ودهْلي. من هذه القَفْرة الموحشة استمدت دنيا الحضارة خِصْبها وفنها ونماءها. من هنا، في ظلمة الليالي السود التي كانت تغمر دنيا الناس، قبسنا الشعلة. من هنا أخذنا المنار الهادي، فحملناه شرقاً وحملناه غرباً، فضوَّأنا للمدنيّة الخيّرة طريقَها خلال القرون.

لقد كان محمد ﷺ يصعِّد في هذه الجبال يبتغي فيها الخلوة بالله، ويد الله توجّهه، حتى بلغ هذا الغار، فاتسع -على ضيقه- حتى شمل الدنيا، ونَدِي صخرُه حتى أنبت الزهر، وكان منه عرش مُلك، لا لمحمد ﷺ، فما كان محمد ملكاً ولا كان طالب ملك، ولكن لأمة محمد عليه الصلاة والسلام. لقد ملكنا الدنيا يوماً بالسلاح الذي حملناه من حراء، وسنبقى ملوكها ما بقي في أيدينا هذا السلاح.

كان محمد يقضي الليالي وحيداً على فراش الصخر في الغار الموحش، على حين كان ملوك الأرض ينامون على الحرير والريش في القصور العامرة، وحولهم الخدم والأعوان. ولكن محمداً ﷺ كان أعزّ في الغار وأكرم، لأنه كان يتطلع إلى السماء وهم ينظرون إلى الأرض، فلما اتصل بالسماء ابتلع الغارُ القصورَ.

ترك لقريش دنياها حين أوى إلى الغار، لم يأخذ منها إلا مقدار ما يسند جنبَه ويُمسك صلبه، فأعطاه الله فيه الدنيا والآخرة. ما انزوى في سرداب في باطن الأرض ولا في زاوية من زوايا البلد، ولكن اختار أمنع مرقب في أرفع ذروة، ليطل على الدنيا

من فوق فيراها صغيرة فيزهد فيها، ويتطلع إلى رحب السماوات، وليعلّم أمّتَه أن الإسلام شرعة السموّ وأنه دين المعالي، وأن السعادة لا تُنال إلا بالجهد والمشقة.

* * *

وبعدُ، فإن النهر يسير آلافاً وآلافاً من الأميال، فلا ينقطع سَيره ولا تنضب مياهه ما دام من ورائه الينبوع يمدُّه. وهذا ينبوع قوتنا نحن المسلمين. هذا هو الينبوع، ورَدَه أجدادنا فصدروا عنه ملوكَ الأرض وأئمة الهدى، وضللنا نحن طريقه وذهبنا نفتش عنه في باريس ولندن ونيويورك وموسكو، فرجعنا بالذلة والضعف والهوان.

فهل نعود إلى حراء، لتعود لنا منزلتنا في الأرض ويعود لنا النصر والعز والعلاء؟

* * *

الشريف عدنان

نشرت سنة ١٩٣٥*

كنا في «فندق مكة»، ذلك القصر الفخم الذي كان للشريف عدنان حِمَى منيعاً وحصناً حصيناً، يهاب الجبابرة الدنوّ من بابه وتخشى الطير التحليق في سمائه ويتجنب الناس النظر إليه إلا نظر الخائف الحذر، لأنهم يعلمون أن الكلمة متى خرجت من فم صاحبه كانت كسهم القضاء، مَن أصابت أصْمَتْ[1]، وأنه ليس بين أحدهم وبين أن يُقتَل أو يُدفَن حياً في جُبّ القصر المظلم، أو تُنهَب أمواله أو تُحرَق داره، إلا أن يشي به إلى الشريف واشٍ أو تصيبه عرضاً نقمة من نقماته.

وكنا في الردهة الكبرى -التي بناها فأجاد بنيانها وزَخرَفها فبالغ في زخرفتها، حتى كانت تحفة من التحف وآية من آيات العمران- نعجب من تصاريف القدر وأحداث الزمان، كيف ذهب المُلك واندثر السلطان، وغدا الشريف الجبار الذي كان يتبختر في ثياب الوَشْي وأردية الديباج، وتمشي أمامه العبيد بالسيوف والخدم بالمجامر ويسير وراءه الوجهاء والأعيان، كيف غدا

* في مجلة «الرسالة» العدد ٩٨ الصادر بتاريخ ١٩٣٥/٥/٢٠.
(١) يقال: أصمى الصيدَ: أصابه فقتله (مجاهد).

بعد هذا الجمال الناضر عظاماً نخرة في حفرة مقفرة، وكيف استبدل بالقصر الكبير هذا القبر الحقير، وكيف ذهب المال والولد والخدم والعبيد والحجّاب والأعوان والأعداء والإخوان، ومات الحب والبغض والخوف والرجاء، حتى لكأنما لم يمرّ على الدنيا عدنان، وكأنما لم يكن يوماً سيد مكة وجبارها! وكيف ورثنا القصر أياماً وليالي، نطؤه مطمئنين وننام فيه آمنين ونأمر فيه مُطاعين، لا نذكر صاحبه وبانيه ولا نقيم له وزناً ولا نحسب له حساباً.

كنا جالسين مع إخواننا رجال الوفد السوري، نتحدث أنْ لا بقاءَ للإنسان وأن لا خلود في الدنيا، وأن الأيامَ دولٌ والدهرَ دولاب، فكم من عزيز قد ذَلَّ ومن ذليل قد عَزّ، ومِن ملوك كانوا أعز من النجم وأمنع من السحاب ضاعوا وضاعت ذكراهم. فلا يغترَّنَّ أحدٌ بالدنيا:

فمـا الدنيـا ببـاقية لِـحَيٍّ   وما حَيٌّ على الدنيا بباقي

ولا يدّخِرَنَّ وسعاً في كسب الذكر للدنيا والأجر للآخرة، فما الحياة إلا حياة التاريخ، بل حياة الجنة.

* * *

وكنت لا أنِي أسأل عن «الرسالة» وألحّ على مدير الفندق (وهو من المشتركين فيها) أن يأتيني بالأعداد الأخيرة منها، فقد كنت في دمشق إذا تأخرت «الرسالة» يوماً قلقت من تأخرها واشتدّ شوقي إليها، فكيف وقد مَرّت أربعةُ أعداد لم أرَها؟ صدرت ونحن على هامش الحياة من وراء حدود العالم، نسير في

الصحراء عشرين يوماً من دمشق إلى المدينة لم نرَ فيها إلا ثلاثَ قرى، ما لقينا من دونها بشراً ولا شجراً ولا وحشاً ولا طائراً، ما أبصرنا إلا سلاسل الجبال وتلال الرمل التي تتعاقب لا حدّ لها، فتّانة متموّجة كأنها قد مرت عليها يدُ نقّاش صَنَاع، عشرين يوماً ملأت فصلاً طويلاً من سِفْر حياتي بأعمق الشعور وأشدّ العواطف(١).

فلما جاءني خادم الفندق بأعداد «الرسالة» أقبلت أصْفَحها وأقرأ من كل مقالة عنوانها، فرابني منها خبرٌ ما إن قرأته حتى عَرَتْني رجفة وأحسست أنْ قد دِيرَ بي، خبر هائل تصدّعُ لهوله قلوبُ المؤمنين حزناً وألماً، وتندى له الجباه حياء وخجلاً، وتكِلّ عن وصفه الألسنة دهشة وتفظعاً.

ذلك أن تلك «العُصْبة» لم يَشْفِ غيظَ قلوبها كل ما صنعته بالإسلام وما أنزلته بأهله، فعمدت إلى بيت من بيوت الله تُقام به شعائر الله، فجعلته بيتاً للأصنام ومثابة للوثنية. أماتت فيه التوحيدَ وأحيت فيه الشرك، وطمست منه آيَ القرآن وأظهرت فيه الصور والأوثان. لم تَضِقْ بها الأرض حتى ما تجد مكاناً لمتحفها هذا إلا المسجد الجامع، ولكن النفوس الملحدة ضاقت بهذا المسجد، وأحسّ أصحابها كأنّ هذه المآذن في عيونهم وكأن هذه القبة

(١) الفقرة السابقة لم ترد في أيّ من طبعات الكتاب، ولعل مؤلفها -رحمه الله- لم يجد لها أهمية حينما نشره فحذفها منه. وقد تأملتها فرأيت لها قيمة بعد كل هاتيك السنين، فأعدتها إلى موضعها من المقالة كما صدرت في مجلة «الرسالة» أولَ مرة (مجاهد).

على ظهورهم، وعَشِيَت أبصارهم من نور الله فأرادوا ليطفئوه بأفواههم ويمنعوا مساجد الله أن يُذكَر فيها أسمه، فعُطِّلَت الصلاة في «أيا صوفيا» فلا تقام فيها صلاة بعد اليوم، وسكت المؤذن فلا يدعو في مآذنها إلى الله ولا يصدع بالتهليل والتكبير، ونأى عنها المؤمنون فلا يدخلونها إلا مستعبِرين باكين، يندبون فيها مجد الإسلام وعظمة الخلافة وجلالة السلطان، وذلّ فيها المسلمون وصاروا غرباء عنها وهم أصحابها وأهلوها، وعزّ فيها المشركون وشعروا أن «أيا صوفيا» قد خُتِمَت فيها صفحة الإسلام باسم أتاتورك كما فُتحت باسم محمد الفاتح!

«أيا صوفيا» التي صِيح في مآذنها ٨٨٠ ألف مرة «حَيّ على الصلاة، حي على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله»،



فاصطفّ فيها المسلمون خاشعةً أبصارُهم، مؤمنةً قلوبُهم، ساكنةً جوارحُهم، قد وضعوا الدنيا تحت أقدامهم ودَبْرَ آذانهم وأقبلوا على الله بخشوع وإخلاص، فجزاهم بما خشعوا وأخلصوا قلوباً استنارت بالإيمان وعُمّرت باليقين، وكان القلب منها وهو يخفق بين جوانح صاحبه أكبرَ من الأرض وهي تجري في ملكوت الله، فملكوا بهذه القلوب الأرضَ وفتحوا بها العالم.

«أيا صوفيا» التي بات فيها المسلمون ١٧٦ ألف ليلة ولهم في جوفها دويّ بالتسبيح والتكبير والتهليل كدوي النحل، وما في أرضها شبر لم يكن موطئ قدم مصل، أو مجلس قارئ، أو مقام ذاكر، أو مقعد مدرّس أو سامع، ولم يكن يحصي إلا الله كم خُتم فيها من ختمة وكم أُلقي فيها من درس، وكم ذُكر فيها الله وكم أقيمت فيها الصلاة.



«أيا صوفيا» التي يشهد كل حجر فيها، وتشهد أرضها وسماؤها، وتشهد قبتها المُشْمَخِرَّة وتشهد مآذنها السامقة، ويشهد الله وملائكته ويشهد الناس أنها بيت من بيوت الله وحصن من حصون التوحيد ودار من دور العبادة.

«أيا صوفيا» تعود للجِبْت والطاغوت وتحمل الصور والأصنام، ويخسرها الإسلام والشرق ليربحها الكفر والغرب! لقد أُريقت حول أيا صوفيا دماء زكية وزهقت في سبيل أيا صوفيا أرواح طاهرة، من لدُنْ معاوية إلى عهد الفاتح إلى عهد عبد الحميد. أفَراحت الدماء هدراً وذهبت

النفوس ضياعاً، وعادت بعد سبع وثمانين وأربعمئة سنة[1] وكأنما لم يُذكَر فيها الله ولم يُتْلَ فيها القرآن، ولم تَقُمْ فيها الأئمة ولم تتجاوب مآذنها بالآذان؟

لقد بنى المسلمون هذا المجد على جماجمهم وسَقَوه بدمائهم وحَمَوه بسيوفهم، ثم وقفوه على الإسلام، أفيأتي في ذيل الزمان من يعبث بالوقف ويهزأ بالدماء ويلعب بالجماجم، ثم لا يردعه رادع ولا يعظه واعظ؟

ومن هم الأتراك لولا الإسلام؟ على أي حسب يتّكلون وبأي نسب يفخرون، وبأي ماضٍ يعتزون وبأي مجد يباهون؟ أبمجد رعاة البقر في تركستان؟ أم بمجد أرطغول بك، وقد جاء من مشرق الشمس بدوياً جافياً فقيراً لا يملك إلا أعنّة ركائبه وطُنُب خيامه، يفترش الغبراء ويلتحف السماء، فصار أحفادُه بالإسلام سادةَ القارات الثلاث؟ إن الإسلام إلّا يكن بالترك يكن بغيرهم، ولكن الترك إلّا يكونوا بالإسلام لا يكونوا والله بغيره أبداً.

* * *

(١) هكذا هي في المقالة الأصلية، وقد أخطأ جدي رحمه الله في الحساب (فهو لم يكن على علاقة حسنة به في أي يوم!) لأن جيش السلطان محمد الفاتح دخل القسطنطينية في العشرين من جُمادى الأولى عام ٨٥٧هـ (٢٩ أيار ١٤٥٣)، وقد نُشرت هذه المقالة في العدد الثامن والتسعين من مجلة «الرسالة» الصادر في العشرين من أيار (مايو) ١٩٣٥ (١٧ صفر ١٣٥٤هـ)، فيكون ما انقضى من يوم فتحها إلى تاريخ كتابة المقالة ٤٩٧ سنة من السنوات القمرية، أو ٤٨٢ من السنوات الشمسية (مجاهد).

وَعُدنا نعتبر ونتحدث أنْ لا بقاءَ للإنسان وأنْ لا خلودَ في الدنيا، وأنّ الأيام دُوَل والدهر دولاب، فكم من عزيز قد ذلّ وكم من ذليل قد عزّ، وكم من ملوك ورؤساء جمهوريات كانوا أعز من النجم وأمنع من السحاب ضاعوا وضاعت ذكراهم. وأن أتاتورك مهما يكن جباراً قوياً فإنه سيصبح ويصبح أعوانه رمَماً بالية في حفر خالية، وسيبقى الله وسينصر دينه ويؤيد حزبه: ﴿إنّا نحنُ نزّلْنا الذِّكْرَ وإنّا له لَحَافظون﴾.

أيها الشريف عدنان[1]: لا تغترّ؛ قد ورثنا القصر وورثتَ القبر، وهدمنا ما بنيت وبنينا ما هدمت، وما هدمت -إذ هدمت- إلا مجدك في التاريخ وأجرك في الآخرة.

* * *

(١) المراد به هنا أتاتورك.

الصِّلات الروحية
بين سوريا والمملكة العربية السعودية

نُشرت سنة ١٩٥٦

كنت في مصر من بضع سنين، وكانت في الجامعة بعثة من الطلاب تستعد لتَمضي إلى الحج، فعلق بها طالب يعرفه إخوانُه شيوعياً خبيثاً حرباً على الإسلام وأهله مجادلاً لدعاته، فأبَوا عليه الصحبة، وألحَّ هو راغباً فيها، وخبّرني بذلك أستاذ في الجامعة فقلت له: أنا أرى أن تأخذوه معكم، فلعل الله قد أذن بصلاحه فبعث هذه الرغبة في نفسه.

فاستبعد ذلك. فقلت: إن هذا الطالب كالآلاف من أمثاله ممّن نشأ على الإسلام ورُبّي عليه في بيته فرسخ الإيمان في قلبه، لأن الكفر والإيمان ومبادئ الخير والشر إنما يكون رسوخها في سن الطفولة والصبا. إنه مؤمن في قرارة نفسه، ولكنّ ضَعف الدعوة إلى الحق وقوة الدعوة إلى الباطل هي التي صارت به إلى هذا المصير. إنه طلاء إذا سطعت عليه شمس الحجاز أذابته فكأنه ما كان.

وأخذوا برأيي وصحبوه.

ولما رجعوا ولقيت هذا الأستاذ قال لي: لقد كان ما قدّرتَ، ولكنه كان شيئاً عجيباً دُهش له كل من كان معنا، حتى الطالب نفسه. فإننا ما بلغنا حدود الحرم ونزعنا ثيابنا حتى تبدل نفساً بنفس، كأنما نزع مع الثياب دنياه كلها من قلبه وأفكار السوء من رأسه، وترك الباطل الذي كان يحيا فيه وعاد الفتى المؤمنَ، يجهر بالتلبية أكثر من جهرنا ويخشع لها أشدّ من خشوعنا. فحسبنا ذلك تظاهراً منه لنا وتزلفاً إلينا، حتى إذا بلغنا باب الحرم وبدت لنا الكعبةُ غلبت عليه حالٌ يستحيل أن تكون تصنّعاً وتمثيلاً، وراح يبكي وينشج حتى لقد أبكانا! ثم كان أكثَرَنا صلاة وطوافاً واستغراقاً في العبادة.

قلت: هذا أثر الحرم في نفس المسلم. وهَبْ أن هذا الشاب كان فاسقاً أو كان شيوعياً، أفما صلى مرة واحدة في عمره؟ أمَا رأى من يصلي؟ فكيف يصلي ولا يتعلق بهذا البيت؟

إن المصلين يتوجهون جميعاً من آفاق الأرض الأربعة، خمسَ مرات كل يوم، إلى هذه البَنِيّة السوداء؛ يقومون صفوفاً وراء صفوف، يتصوّرونها على البعد من وراء الجبال والبحار وقلوبُهم تهفو إليها أكثر مما يهفو إلى المحبوب قلبُ العاشق الهَيْمان، وبينهم وبينها من البعد ألف حجاب، فلا يزال الحاجّ منهم يجزع الأرض يدنو منها، وكلما دنا وارتفعت له الحجب حجاباً بعد حجاب زاد به الشوق خطوة بعد خطوة، حتى يأذن الله بالوصول، فإذا هو في حضرة القُدُس، وإذا هو يلمس بيده جدرانها ويقبّل حجرها ويتعلق بأستارها، وإذا هو في لذة من لذائذ الروح لو اجتمعت أقلامُ أدباء البشر من كل لسان لما استطاعت وصفها.

فإذا مشى في الموكب الأزلي، الموكب الذي بدأ يسير من عهد إبراهيم لم ينقطع أبداً، موكب الطهر الذي يسير في الحر والقر، وفي السلم والحرب، وفي الليل والنهار على مدى الأيام وكر الليالي، موكب الطائفين، أَحَسَّ كأنْ قد حُلَّ عنه قيد الزمان والمكان، فرأى الزمان كله قد اجتمع هنا، والمكان كله هنا: الشام هنا، ومصر هنا، والعراق وفارس، وهنا إفريقية والمغرب، والسند والهند وجاوة، والأرض المسلمة كلها هنا، والماضي هنا، والحاضر هنا... في هذا الموكب يمشي إبراهيم أبو الأنبياء ومحمد سيد الرسل صلى الله عليهم جميعاً، والصحابة والتابعون، والخلفاء والأئمة والفاتحون، والمسلمون كلهم، مَن كان منهم ومن سيكون.

فما مسلم يطوف حول الكعبة إلا أحس أن وطنه الحق ها هنا، لا البلد الذي وُلد فيه وشهد مدارج طفولته وملاعب صباه. فهل تراه يفكر في غيره ليستطيع أن يبحث عن «الصلات الروحية بينه وبين ذلك الوطن»؟[(١)] هذا وطني قبل وطني.

وإذا نسي الشاعر دار حياته ومثابة ذكرياته، حين يقف على موطن حبه فيخاطب آثاره ويستنطق دِمَنه وأحجاره، ويجعل ذلك مفتتح قصائده وبداية مقاصده، أفلا ينسى المسلم كل شيء إذا وقف على «موطن الروح»، ورأى الكعبة والمقام وزمزم والحَطيم؟

* * *

(١) نُشر هذا الفصل في العدد الممتاز من «البلاد» السعودية، وهي التي اقترحت الموضوع.

فماذا أكتب عن المملكة التي فيها «الحجاز»، منزل الوحي ومبعث الدين، وفيها «نجد»، مثابة العروبة ومهوى القلب؟ فيها الدين والدنيا، والإسلام والعروبة، وأمجاد الماضي وآمال المستقبل؟

وهل في أماني المسلم أكبر من أن يرى تلك المشاهد ويقف بتلك الأعتاب؟ وهل يجد الشاكر دعوة يوليها المتفضل عليه والمحسن إليه، غير أن يدعو له بأن «يطعمه الله حجة»، وإن توضأ قال له «من زمزم»[١]، وإن صلى قال له «حَرَماً»[٢]؟ ويرحل المرء إلى آفاق الأرض للتجارة والعلم والسياحة، فلا يَعلق به وصفُ رحلة ويلزمه عمرَه كله إلا الرحلة إلى الحج، فلا يجد مفخرة لنفسه بعدها أحب إليه من أن يُدعى «الحاج».

وهل في معجم القومية كلمة أظهر وأكبر وأسْيَر من كلمة «نجد»؟ نجد، دار العرب ومثابة الهوى وملهمة الشعراء؟ هل في الأرض كلها -على رحبها- واد أو جبل أو بحيرة أو أيكة أو روضة من رياض الحسن أو جنة من جنان الفتون، قال فيها الشعراء (شعراء كل أمة) مثلَ الذي قال شعراء العرب في نجد؟ من شعراء الجاهلية الأول إلى هذه الأيام لا يضيق مكان القول في نجد، ولا يفرغ الشعر من الكلام عن نجد، ولو مررت أشير إلى ما يحضرني الآن من «النجديات» لملأت صفحات[٣].

---

(١) هذا هو الاصطلاح الشامي.

(٢) هذا هو الاصطلاح المصري.

(٣) انظر مقالة «حلم في نجد»، وقد نُشرت أول مرة في رسالة مستقلة =

فماذا أقول وفي أرض المملكة الحرم، وفيها نجد، وهما قبلتا الإسلام والعروبة؟ كل مسلم يتوجه بصَلاته إلى الكعبة، وكل عربي غير مسلم يتلو أشعار العرب في نجد، يقول له قلبه: ها هنا وطن الروح المسلمة، وها هنا وطن القلب العربي.

من هذه الصحراء التي تفحّ رمضاؤها ناراً، ومن الصخر الصلد القائم حول حراء، من هنا تفجر ينبوع الإسلام، ومن هنا خرجت جنات الشام والأندلس وشِعب بَوّان، وعلى هذه الجبال السود نزلت دعوة الحق والخير والجمال على الأرض، ومن هذه الصحراء انبعث أدب العرب. الصحراء التي لا تعرف النفاق ولا المكر؛ قف على قاسيون في ضباب الغداة أو وهج الظهيرة وانظر إلى البلد[1]، تَرَ سُطوحاً تلمع باسمةً لعين الشمس ولا يعلم ما تحتها إلا الله، أما الصحراء فلستَ ترى فيها سطوحاً نقية تخفي تحتها رجساً، ولا ترى عِوَجاً فيها ولا أَمْتاً، ولا يختلف ظاهرُها عن باطنها.

والصحراء موطن أسود لا حظيرة أغنام، فلا يعيش فيها إلا الآساد ومَن لهم همم الآساد وصبر الجمال. والصحراء دار العلماء والأقوياء لا يعيش فيها جاهل؛ الجاهل بالنجوم والجهات

= سنة ١٩٨٢، ثم ضمّها الشيخ -رحمه الله- إلى الطبعة المَزيدة من كتاب «صور وخواطر» التي نشرَتها دار المنارة سنة ١٩٨٨، فلما أعدت نشر الكتاب في طبعة جديدة مصححة ومراجَعة قبل بضع سنين حذفتها منه، وفي نيّتي أن أُلحقها بالطبعة الجديدة المصححة من كتاب «فِكَر ومباحث» إن شاء الله (مجاهد).

(١) يريد دمشق كما تبدو من جبل قاسيون (مجاهد).

والمسالك يموت فيها، ويموت الضعيف الذي لا يقوى على مكابدة الأهوال. لذلك انبثق الإسلام من هذه الصحراء، لا في جنات الشام ولا تحت قباب القسطنطينية ولا بجنب إيوان المدائن، ولا في أوربا التي كانت يومئذ مسرحَ وحوش على صورة بني آدم.

إنّما الإسلامُ في الصحرا امْتَهَدْ
لـيَـجـيء كـل مُسـلـمٍ أسَـــدْ

فلن نَضِلّ ولن نذلّ ما دامت هذه الصحراء لنا. كلما أصابنا عفن المدن ورطوبة الحضارة «نشرنا» أنفسنا فيها، في عرفات، فنعود أطهاراً أصحاء.

* * *

أتسألني -بعدُ- عن «العلاقات الروحية بين الشام والمملكة العربية السعودية»؟ أي علاقات يا أخي؟ إن العلاقات إنما تكون بين اثنين، وما هنا إلا واحد هو الوطن الإسلامي.

إن الوطن الإسلامي ليس كما يفهم الناس؛ إن وطن المسلم ليس بلده الذي وُلد فيه وعاش في رحابه والذي تظلله رايته. لا، وما في الإسلام إلا راية واحدة يستظل بها كل مسلم هي راية القرآن، ووطن واحد هو كل أرض يُعمَل فيها بأحكام الإسلام وتقام فيها حدود الله، وينادى فيها بـ«لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

والإسلام يحرّم على المسلم أن يقيم ببلد لا يستطيع أن يعبد الله فيه ويوجب عليه الهجرة منه ولو كان فيه أهله وماله وذكريات

أمسه وآمال غده. ولذلك شرع الله الهجرة الأولى، وبقيت أحكامها إلى يوم القيامة: ﴿إنّ الذين تَوَفّاهُمُ الملائكةُ ظالِمي أنفسِهم، قالوا: فيمَ كنتم؟ قالوا: كنا مُستضعَفين في الأرض. قالوا: ألم تكن أرضُ الله واسعةً فتُهاجروا فيها؟﴾... ثم لا يكون الجزاء إلا النار.

فليست الشام وحدَها وطني. موطني الأول البلدُ الذي بزغت منه أنوار الإسلام، والذي تقام فيه حدود الله ويُحكم فيه بما أنزل الله. ولو خُيِّرت (لا سمح الله ولا قدّر) بين أن تصيب بلدي جائحةٌ أو أن تصيب المدينةَ لافتديت المدينة بالشام ومن فيها، وبين أن ينزل ببيتي البلاء أو أن ينزل بالكعبة لرضيت أن يكون بيتي وألفُ ألف بيت مثله الفداءَ لبيت الله.

ولست في ذا وحدي؛ كل مسلم في الأرض فيه مثلي. لذلك تراني أفرح كلما سمعت عن الحجاز خبر خير، وكلما رأيت في أرض المملكة تقدماً وعمراناً.

كان عهدي بجُدّة مثلاً -سنة ١٩٣٥- أنها قرية يُطيف بها سورٌ له أبواب، وما فيها إلا أزقة وحارات لا تكاد تتسع لتسير فيها السيارات، فلما جئتها حاجّاً من سنتين بلغَت بنا الطيارة جدة وأنا نائم، فصحوت ونظرت تحتي، فما ظننت والله إلا أننا نازلون في الإسكندرية، فلما قالوا "هذه جدة" شُدهت. ثم غبت عنها سنتين وجئتها من شهرين فوجدتني لا أكاد أعرفها!

والمدينة، مدينة الرسول التي تشرّفَتْ به مرتين: مرة بحياته -صلى الله عليه وسلم- فيها، ومرة بمثوى جسده في ثراها، قد وصلَت إليها يدُ الإصلاح فمسّتها، فأخذت تنشق الهواء بعدما

لبثت أمداً وهي كالمخنوقة لا تجد متنفساً، ومشى في سمائها أول خيط من النور بعدما طال عهدها بالليل، وستمشي صُعُداً -إن شاء الله- في طريق العَلاء، حتى تعود مرة أخرى عاصمة الدنيا وقصبة الأرض المسلمة كما كانت يوماً من الأيام، يوم كانت جيوش الإسلام تحارب بالحق والعدل دول الأرض كلها معاً، تحارب الروم في الشام وفي مصر والفرسَ في العراق، وكلما استنجد قائدٌ بعمر هَزّ عمر هذه القرية الصغيرة فأمدّته بالجند وبالقُوّاد، لم ينضب لها معين ولم يجفّ لها ينبوع. وكيف وهي مدينة محمد عليه الصلاة والسلام؟

وفي الرياض لقيت عجباً أعجب من العجب: تمشي المدنُ إلى العمران مشياً أو تسعى -إن نشطت- سعياً، وهذه تطير طيراناً. لقد رفعت القريةَ القديمة يدٌ عبقرية ووضعت مكانَها بلداً جديداً، فلم يبقَ مما أعرف إلا قطعة من السوق القديم الذي لا يعدو عرضه المترين فيه دكاكين صغار لاصقة بالأرض، ولكني رأيت في هذا السوق الضيق، في هذه الدكاكين الصغار، شيئاً لم أرَ مثله ولا قريباً منه في المدن الكبار. وقفت فيه على تاجر شيخ نجدي، فسألته عن بضاعة معروضة: كم ثمنها؟ قال: كذا، ولكن عند جاري هناك أجود منها وأرخص! إي والله هكذا كان، ولولا أنه كان معي لما صدقته.

ولو كان لي رأي لاقترحت الإبقاء على تلك القطعة من السوق ليعرف العالم كيف كانت الرياض وكيف صارت، وليعلموا كيف تكون أخلاق العرب التي هذبها الإسلام. فيا أيها الشيخ النجدي الذي لا أعرف اسمه: لك تحياتي على البعد وإكباري.

أما كُبرى العجائب فقد تمت في الحرم. أنا أعرف حرم المدينة وأعرف تاريخ الزيادات فيه من لدن عمر وعثمان إلى الوليد وقايتباي وعبد المجيد، فلما سمعت خبر الإصلاح الأخير حسبت أنها زيادة كتلك الزيادات وتوقعت أن أرى فيه توسيعاً يجيء من الأصل كالرقعة في الثوب، وكنت -مهما بالغت في حسن الظن- أقدّرها رقعة من حرير، فلما جئت ورأيت وقفت شاخصاً لا أستطيع أن أنطق.

وتعمدت أن أدقق النظر لأنتقد شيئاً فأقول: ياليت أنهم فعلوا هذا وتركوا ذاك! فما استطعت أن أقول لما فعلوه ليتهم تركوه، ولا لما تركوه ليتهم فعلوه. عمل عظيم عظيم. لقد صنع السعوديون للحرم في هذه السنين القلائل أكثر مما صنعه ملوك المسلمين جميعاً في ألف وثلاثمئة سنة، أما حرم مكة فإن البداية فيه تبشر بنهاية يصغر معها ما كان في المدينة.

* * *

وبعد، فالمعذرة يا أخي، فلن أكتب في موضوع الصلات الروحية بين القطرين. إني أستطيع أن أكتب عن الصلات بين الشام والعراق أو مصر أو باكستان أو أندونيسيا، وإن كنت أحبها كلها وأراني فيها كأني في بلدي، أما عن الصلات بين الشام والمملكة العربية السعودية فذلك شيء آخر.

إن وطني الأول ها هنا، أنا أعيش حقاً وأنشق نسيم الحياة هنا حين أقف على دار الأرقم، فأسمع همس الفئة القليلة التي أخلصت لله واستجابت لدعوة الحق دون أهل الأرض جميعاً،

ثم أراها وقد بلغت الأربعين فخرجت في المظاهرة التي مشت أولاً أربعين خطوة إلى المطاف، ثم مشت إلى بدر والقادسية واليرموك وعين جالوت حتى أزاحت عن الأرض الدولَ التي جثمت على صدرها بالظلم والكِبر، وستمشي حتى تزيح كل دولة ظالمة طاغية أو تقوّمها حتى تعود إلى الحق.

وما زرت «قباء» إلا دار بي الزمان وعاد أدراجه على طريق القرون، حتى أرى البشائر بالهجرة وأسمع الولائد ينشدنَ: "طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع"[1]، وأرى موكب محمد ﷺ، لا تمشي وراءه الجند ولا ترفرف عليه الأعلام ولا تُقرع له الطبول، ولا يحفّ به القُوّاد ولا يلمع على رأسه التاج، ولكن يضيء على جبينه نور القرآن وتحفّ به ملائكة الرحمن، وتصفق له قلوب الناس وتنزل عليه من ربه الرحمات، وتمشي وراءه القرونُ تهتدي هي وأهلُها بهديه وتقبس من نوره.

لقد طلع البدر من «ثنيّات الوداع»، لا عليكنّ وحدَكنّ يا وَلائد المدينة، بل على الدنيا كلها، فبدد عنها غياهب الجهل وأزاح عنها ظلام الظلم وأسبغ عليها ثوب الأمن والعدل والخير.

وما سعيت بين الصفا والمروة، وما صعدت جبل الرحمة، وما قمت في الروضة أو وقفت على البقيع، أو مررت ببدر ورأيت العدوة الدنيا والعدوة القصوى، إلا شعرت كأني أعود إلى تاريخ السمو الإنساني، تاريخ السيرة النبوية.

---

(١) هذا هو المشهور، ورُوي أن ذلك كان عند رجوعه صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك.

هذه هي المنازل التي نزل بذكرها جبريل وقدّسها الكتاب، حتى لَنصلّي بالكلام عنها[1]. وما نقدس الأمكنة أو نعبدها، ما نعبد إلا الله وحده، لا شريك له له الحق وله الأمر، وهو الذي ينفع ويضر، ولكنا نحبها ونَحِنُّ إليها لأنها هي الأرض التي اختصها الله برحمته، رحمته التي أفاضها على الدنيا.

لقد كانت مكة قرية صغيرة متوارية بين الأخشبَين، لم تدر بها روما ولم تحفل بها القسطنطينية، فلما دوّى فيها صوت محمد ﷺ ينادي أن "لا إله إلا الله ولا ربَّ سواه، لا كسرى ولا قيصر ولا اللات ولا العزى، وأنها خابت وخسرت الأصنام كلها، أصنام الحجارة وأصنام القبور وأصنام اللحم والدم، وأن الفضل بالتقوى والعاقبة للمتقين" وقعت معجزة المعجزات؛ كبرت هذه القرية حتى أكلت مدنَ الباطل، ثم كبرت حتى ولدت مدن الخير والحق، ثم كبرت حتى صارت أمّ الأرض كلها.

هنا وُضعت أسس دمشق والبصرة والكوفة وبغداد والقاهرة والقيروان ومراكش. من هنا خرج أبو بكر وعمر وخالد وطارق، وأبو حنيفة والشافعي والبخاري ومسلم والغزالي وابن تيمية، وابن رشد والبيروني والجاحظ وابن قتيبة وجرير وأبو تمام وشوقي، وكل إمام عادل حقق في الأرض أحلام المصلحين، وكل قائد شق بسيفه الطريق للمدنية العادلة خلال أشواك الظلم، وكل مؤلف أقام صرح الهداية لكل طالب علم.

---

(١) أي نقرأ الآيات التي تذكرها في صلاتنا.

من هنا خرجت الحضارة الخيِّرَة التي لا تزال الإنسانية تنعم بخيراتها. هنا مهوى القلب، هنا موطن الحب، هنا مستراح الأرواح، هنا موطني الأول، من هنا بدأ فجر الإسلام.

* * *

المنزل الأول للبشرية

رأي جديد أدعو الكتّاب والباحثين
إلى تمحيصه وتصحيحه.

نشرت سنة ١٩٦٨

إذا فخر ناس بأن لديهم من البقاع الأثرية ما ترجع ذكراه أربعين أو خمسين قرناً إلى الوراء، وما يتصل بأقوام كانوا قبل أربعة آلاف سنة أو خمسة آلاف سنة، فإن ها هنا، في مكة، ذكرى توغل في الماضي مئة ألف سنة. نعم، مئة ألف سنة، بل أكثر من مئة ألف سنة على التحقيق. إنها أقدم ذكرى بشرية.

لا تقولوا: هات النص التاريخي، فإني أتكلم عن عهد لم يكن قد وُلد فيه التاريخ ولا حملت به أمُّه، عهد أقدم من التاريخ نفسه، عهد آدم وحواء.

إن الرواية المتوارَثة التي يتناقلها الأبناء عن الآباء من أقدم الأزمنة هي أن آدم وحواء لمّا هبطا من الجنة[١] افترقا وتاها في أرجاء الأرض، فمشى آدم يفتش عنها ويناديها ومشت هي تفتش

(١) الأرجح من قولَي العلماء أن الجنة التي كان فيها آدم وحواء ليست هي جنة الآخرة الموعودة، ولكنها جنّة غيرها.

عنه وتناديه، فكان لقاؤهما هنا، في «عَرَفة».

في هذه القَفْرة، لا في السهول المُمرِعة ولا على ضفاف الأنهار الفيّاضة، ولا على شُمّ الذرى المتعممة بالثلج ولا في الأودية المتوشحة بالغابات، ولا على حفافي العيون المتدفقة بالزلال العذب... هنا كان التعارف والتلاقي، وهنا قضى أبوكم آدم وأمكم حواء «شهر العسل». فإذا كان في الدنيا أمكنة وُلد فيها تاريخ قوم أو سُجّلت فيها بطولة أمة أو عاشت فيها ذكرى شعب، فهذا المكان ليس لقوم ولا لأمة ولا لشعب، ولكنه لجميع بني آدم وبنات حواء.

وها هنا، في هذه البلاد، توفيت «السيدة الأولى» في الأرض، حواء. لا، ما حضرتُ وفاتها ولا مشيتُ في جنازتها ولا وقفت على دفنها، ولكن دلّتني عليها الروايةُ الأخرى التي يحملها الخلف عن السلف، من عشرة آلاف سنة، بأن قبرها في «جُدّة البحر» من أرض تهامة.

إني لأذكره -قرب وزارة الخارجية اليوم- وكان طوله مئة متر، وبين موضع رأسها وموضع سرّتها يَصطفّ مئة رجل! هكذا تصوروها. صحيح أنها رواية شعبية لا تقرر حقيقة تاريخية، ولكن لماذا لم تأت رواية أخرى بأن قبرها في جبال كشمير، أو في غابة بولونيا في باريس، أو بجوار الهرم في الجيزة؟ إنه لا دخان من غير نار، ولا يمكن أن تعمّ هذه الرواية وتنتشر وتمشي في العصور إلا ولها أصل. فهذه البلاد -إذن- هي المنزل الأول للبشرية.

* * *

وإذا مررنا مع العصور رأينا هذه الجزيرة العربية مثل الأم، تلد الأطفال وتحضنهم، حتى إذا كبروا أطلقتهم فذهبوا فأسسوا الدول وبَنَوا الممالك.

قوم عاد كانوا فيها، في «الربع الخالي» الذي لم يكن خالياً، بل كان حالِياً بالزرع والضرع والمدن والقرى، ولم يكن صحراء، بل كان -يوماً- سهولاً مخصبة معشبة ذات مياه وعيون، وكان فيه يوماً إرم ذات العماد التي لم يُخلق مثلها في البلاد.

روى ذلك علماؤنا، ثم جاء المؤرخ الطلياني، الأمير كاتياني، فبنى عليه نظريته التي يُغْني علمُ القراء بها عن الكلام فيها، ثم جاء فيلبي (أو الشيخ عبد الله فيلبي كما يحبّ أن يُدعَى[١]) فرأى بالعيان ما ظنه كاتياني بالوهم. رأى في الربع الخالي، شماليّ حضرموت، بقايا مستحاثات لحيوانات بحرية، بقايا أسماك في جوف الصحراء!

فهذه الجزيرة، كانت تحمل كما تحمل الأنثى، تم تتمخض، ثم تلد. إنها تضطرب عند الولادة وتموج مثل موج البحر، تضرب موجةُ قبيلةٍ القبيلةَ التي أمامها فتزيحها عن مكانها، وهذه تزيح

---

(١) جون فيلبي، أو هاري سينت جون فيلبي، ويُعرف أيضاً باسم الشيخ عبدالله. عميل للمخابرات البريطانية، كان يتقن العربية ويرتدي اللباس العربي التقليدي، وادّعى الإسلام وتزوج امرأة عربية مسلمة من نجد. لعب في الجزيرة العربية والأردن وفلسطين دوراً خبيثاً يشبه ويكمل الدور الذي لعبه لورنس في إخراج العثمانيين من بلدان المشرق العربي (مجاهد).

التي بعدها، حتى تصل الموجة إلى القبيلة التي تقيم على حافة الجزيرة، فتضربها فتطردها، فتخرج من الجزيرة لتضرب في آفاق الأرض.

ولقد سمعت من الأستاذ عبد الرحمن عزام -لمّا كان سفير مصر في العراق من ثلاثين سنة- أن هذا ما يُشاهد الآن في شمالي أفريقيا، إذ تموج القبائل فيها وتتدافع حتى تصل الدفعة إلى أدنى القبائل من مصر، فتدخل واديها وتشتغل مع الأيام بالزراعة وتتمَصّر، وأن في الصعيد أسراً عربية الأصل جاءت من هذا الطريق، منها أسرة عزام والباسل، وأسر أخرى ذكرها ونسيت من بُعد العهد أسماءها. ولخالي الأستاذ محب الدين الخطيب رسالة في هذا الموضوع، قليلة الصفحات كثيرة الفوائد، اسمها «اتجاه الموجات البشرية في جزيرة العرب».

وقدّروا لكل موجة عشرة قرون، ففي كل ألف سنة أو نحوها تخرج من الجزيرة موجة تضرب في الأرض وتنشئ الممالك وتقيم العمران. خرجت موجة إلى الغرب فكان منها أول أسرة حكمت مصر من خمسة آلاف سنة، ثم خرجت موجة إلى الشرق، فكان منها الكلديون الأولون والسومريون وحكام العراق الأقدمون.

ثم خرجت موجة أخرى إلى الشرق، فاستقرت حيناً في «البحرين»، ثم غرّبت حتى بلغت سواحل الشام، فكان منها الفينيقيون الذين علّموا الناسَ الكتابةَ وجرّؤوهم على ركوب البحار، فكانوا أساتذة اليونان، وكان من قادتهم القائد العبقري هاني بعل (أنيبال) الذي حكم قرطاج وقهر روما لمّا كانت روما

سيدة الكتائب، ولكنه حينما استمرأ العيش في إيطاليا أفسد النعيمُ جندَه، وأذهب الترف من نفوسهم جلادة أبناء الصحراء وعلّمهم رخاوة أهل المدن، فغُلبوا بعد أن كانوا هم الغالبين. وموجة بعدها إلى الغرب حملت العمالقة إلى مصر، فحكموها أمداً طويلاً وكانوا ملوك صلاح وإصلاح، وإن دعوهم «الهِكسوس»، أي ملوك الرعاة، وعلى عهدهم دخل يوسف الصدّيق أرض مصر.

ثم كانت الموجة الكبرى، الموجة الخيّرة النيّرة التي حملت الحق والخير والسعادة، لا إلى العراق وحده ولا إلى الشام ومصر فقط، بل إلى الدنيا كلها من مشرق شمسها إلى مغربها، موجة الإسلام.

* * *

من هنا خرج الإسلام وهنا وُلدت من قبلُ العربية. نعم، إن العربية ولدت هنا، ولي -يا سادة- نظرية، فاسمعوها مني وجادلوني فيها إن لم تقبلوا بها.

يتعلم الأولاد اليوم (وتعلمنا نحن من قبل) أن العرب ثلاثة: عرب بائدة كطَسْم وجَديس والعمالقة وجُرْهُم الأولى، وعرب عاربة هي حِمْيَر وكَهْلان وسائر أبناء قَحطان، وعرب مستعربة هم أبناء إسماعيل. تلقينا هذا ويتلقاه التلاميذ اليوم على أنه حقيقة مسلَّمة، ولكني فكرت فيه بعد أن كبرت وعقلت وجاوزت حد التلقي، فوجدت أنه مُناف للواقع مخالف للقرآن. وهاكم البيان:

أسألُ أولاً: ما معنى «المستعرب»؟ المستعرب ليس عربياً ولكنه دخيل على العربية، إنها مثل كلمة «المستشرق». ماذا تفهم

من كلمة المستشرق؟ أليس هو العالم الغربي الذي اشتغل بعلوم الشرق؟ إنه ليس شرقياً، بل هو مستشرق. وكذلك المستعرب، ليس عربياً بل هو طارئ على العربية!

هذا التقسيم كلام من كلام الناس، لا يُدرى مَن قاله ولا يُعرف له دليل، فهل نأخذ به أم نأخذ بكلام رب الناس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ إن الله سمى محمداً «النبيّ العربي» ووصف القرآن بأنه نزل بلسان عربي مبين. وهذا التقسيم يجعل أبناء إسماعيل مستعربين، فيكون محمد رسول الله ﷺ مستعرباً لا عربياً، ويكون القرآن قد نزل بلسان المستعربين لا باللسان العربي المبين!

إن من الثابت ثبوتاً لا شك فيه أن لسان مَن يُسمَّون بالعرب العاربة[1] يختلف في مفرداته وفي تركيب جُمَله عن اللسان الذي نزل به القرآن. فأيهما هو العربي؟ أبو عمرو بن العلاء، شيخ الرواة وأستاذهم يقول: "ما عربيّة حمير بعربيتنا ولا لسانهم بلساننا"، وأنجلو جويدي، المستشرق الطلياني، وضع في كتابه صور نقوش وكتابات وُجدت في اليمن، ليست عربية ولا نفهمها نحن عرب اليوم، مع أننا نفهم القرآن ونفهم شعر الجاهلية. وقصة

(١) لا أقصد لسان الأَزْد وكِنْدَة واللخميين وقوم غسان وأمثالهم من الذين نزحوا إثر انهيار السد، ولا لسان اليمن قبل الإسلام بقرن أو قرنين، فهذا لا يكاد يختلف عن لسان قريش إلا قليلاً، ولكن أقصد مَن كان قبل ذلك من أهل اليمن الأولين. وقد خبّرني الأستاذ العالم الرحالة الشيخ خليفة شعبان أن هذا اللسان القديم هو الذي تنطق به اليوم قبائل المَهْرة شرقيّ حضرموت.

سيف بن ذي يزن مع العربي الذي قال له "ثب" معروفة، وقوله "من دخل ظَفار حَمَّر"[1].

فأي اللسانين هو العربي؟ العربي هو لسان القرآن، ومن قال غير ذلك فإنه يكذّب القرآن! فالعرب العاربة -إذن- هم قوم محمد ﷺ، واللسان العربي الأصيل هو اللسان الذي نزل به القرآن.

* * *

شيء آخر، رأي لي يبدو لكم إذا سمعتموه أول مرة غريباً، ففكروا فيه ولا تردّوه بادي الرأي[2]، ثم إذا رأيتموه بعد الفكر باطلاً ورددتم عليّ بالدليل شكرت لكم ورجعت عن رأيي، وثقوا أن أهون شيء عليّ أن أرجع عن الخطأ إذا تبين لي.

إن إبراهيم هو أبو العرب العدنانيين، فالقرشيّ -مثلاً- ينتسب إليه ويراه أباه الأعلى. فهل كان إبراهيم عربياً قرشياً؟ لا، قطعاً. هل كان إبراهيم يهودياً عبرانياً؟ لا، قطعاً. فما معنى هذا؟ كيف يكون أبا العرب وليس عربياً وأبا العبرانيين وليس عبرانياً؟ معناه الواضح أن الجنس العبراني إنما ابتدأ وجودُه بعدَه، والجنس

(١) من أمثال العرب، يُضرَب للرجل إذا خالط القوم أخذ بزيّهم وكلامهم. وأصله -كما في كتب الأمثال- أن أعرابياً كان بين يدي ملك حمير، فقال له: "ثب"، أي اقعد بالحِمْيَريّة، فحسب العربي أنه يأمره بالوثوب فقفز، وكان على مكان مرتفع، فسقط فهلك، فقال الملك تلك المقولة (مجاهد).

(٢) يقال: بادي الرأي وبادئ بدء إذا كان ذلك أول مرة.

العربي (أعني الذي لسانه لسان القرآن[1]، ومنه قوم محمد النبي العربي ﷺ) إنما ابتدأ وجوده بعده.

كل جنس من أجناس البشر، أو كل عرق بالتعبير الصحيح، له بداية، لأن الناس كانوا كلهم محصورين في رجل وزوجته، في آدم وحواء، ثم تفرّعوا فروعاً وكانوا عروقاً وأجناساً؛ تفرعوا بافتراقهم واختلاف بلدانهم وتنوع بيئاتهم، وتفرعوا بالتزاوج بين أجناس مختلفة وعروق متباينة. وهذا بحث طويل فيه كتب كثيرة، وهو علم يدرَّس في الجامعات.

فلما تزوج يعقوب (إسرائيل) بامرأة من الكنعانيين نشأ قوم لا هم عراقيون كأبيهم ولا كنعانيون كأمهم، بل هم جيل جديد، هم العبرانيون. ولما تزوج إسماعيل بامرأة من جُرهم نشأ جيل جديد هم العرب. فالعبرانيون بنو إسرائيل، والعرب بنو إسماعيل.

ونحن إذا وَسّعنا معنى كلمة «العربي» وأخذناها بنوع من التجوّز دخل تحتها عاد وثَمود وجُرهم وطَسْم وجَديس والعمالقة وسائر تلك القبائل. أما إذا أردنا تحديد العربي الأصيل، وجعلنا الأصل الذي نرجع إليه والأساس الذي نعتمد عليه الحقيقتين المسلَّمتين، وهما كون محمد ﷺ عربياً أصيلاً وكون لسان القرآن هو العربي الأصيل، كان العرب هم أبناء إسماعيل[2]، وكان هذا التقسيم إلى عرب عاربة ومستعربة باطلاً منقوض الأساس.

---

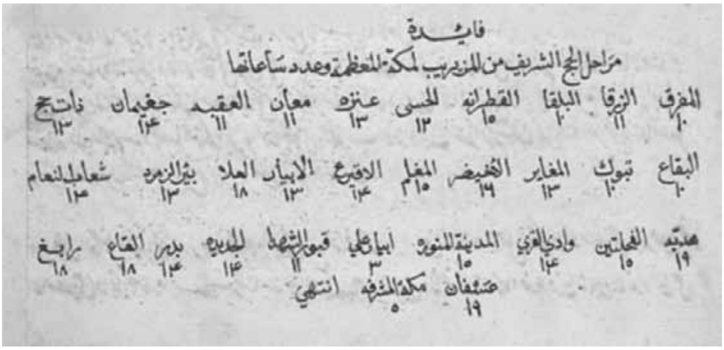
(١) من قَيْس أو يمن.

(٢) قال بعض العلماء إن إسماعيل هو أبو العرب جميعاً، قحطانيين وعدنانيين، وربما كان هذا هو الحق.

هذا ما عندي، فما الذي عند الأساتذة المخالفين لي في هذا الرأي؟[1]

* * *

(١) أصل هذه المقالة حديث أذيع في حج عام ١٣٨٤ (نيسان ١٩٦٥)، ثم أعاد جدي -رحمه الله- كتابته ونشرَه في العدد السادس من السنة الثانية والعشرين من مجلة «الحج» سنة ١٩٦٨، ولم أعلم أن أحداً جادله في هذه النظرية أو رَدَّ عليه (مجاهد).



فائـــدة

مراحل الحج الشريف من المزيريب لمكة المعظمة وعدد ساعاتها

المفرق	الزرقا	البلقا	القطرانه	الحسى	عنزه	معان	العقبه	جغيمان	ذات حج
١٠	١١	١٠	١٥	١٢	١٣	١١	١١	١٤	١٣
البقاع	تبوك	المغاير	الاخيضر	المعظم	الاقيرع	الابيار	العلا	بير الزمرد	شعاب النعام
١٠	١٠	١٣	١٦	١٥	١٤	١٣	١٨	١٣	١٤
هدية	الفحلتين	وادي القري	المدينة المنوره	ابيار علي	قبور الشهدا	الجديده	بدر	القاع	رابغ
١٩	١٥	١٤	١٠	٣	١١	١٤	١٤	١٨	١٨

عسفان ١٩ مكة المشرفه ٥ انتهي

وثيقة قديمة من العهد العثماني، توضح مراحل الحج البري وأطوالها مقدَّرة بسير الإبل.

المحتويات

من آثار المؤلف

(١) أبو بكر الصديق	١٩٣٥
(٢) قصص من التاريخ	١٩٥٧
(٣) رجال من التاريخ	١٩٥٨
(٤) صور وخواطر	١٩٥٨
(٥) قصص من الحياة	١٩٥٩
(٦) في سبيل الإصلاح	١٩٥٩
(٧) دمشق	١٩٥٩
(٨) أخبار عمر	١٩٥٩
(٩) مقالات في كلمات	١٩٥٩
(١٠) من نفحات الحرم	١٩٦٠
(١١) حكايات من التاريخ (١ - ٧)	١٩٦٠
(١٢) هتاف المجد	١٩٦٠
(١٣) من حديث النفس	١٩٦٠
(١٤) الجامع الأموي	١٩٦٠
(١٥) في أندونيسيا	١٩٦٠
(١٦) فصول إسلامية	١٩٦٠
(١٧) صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق)	١٩٦٠

(١٨) فِكَر ومباحث ١٩٦٠

(١٩) مع الناس ١٩٦٠

(٢٠) بغداد: مشاهدات وذكريات ١٩٦٠

(٢١) تعريف عام بدين الإسلام ١٩٧٠

(٢٢) فتاوى علي الطنطاوي ١٩٨٥

(٢٣) ذكريات علي الطنطاوي (١-٨) ١٩٨٥-١٩٨٩

(٢٤) فتاوى علي الطنطاوي (الجزء الثاني) ٢٠٠١

(٢٥) فصول اجتماعية ٢٠٠٢

(٢٦) سيّد رجال التاريخ (محمد ﷺ) ٢٠٠٢

(٢٧) نور وهداية ٢٠٠٦

(٢٨) فصول في الثقافة والأدب ٢٠٠٧

(٢٩) فصول في الدعوة والإصلاح ٢٠٠٨

(٣٠) البواكير ٢٠٠٩

(٣١) الذكريات: الفهارس والصُّوَر ٢٠١١

(٣٢) كلمات صغيرة ٢٠١٦

(٣٣) أعلام من التاريخ ٢٠١٩